النهب الكبير

الجزء الثاني - حملة مصر

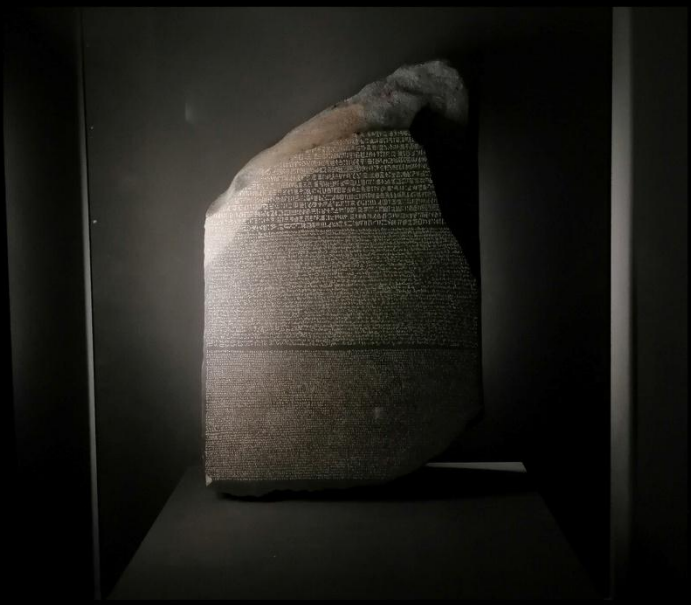

روبير كازانوفاس

رواية تاريخية



ملخص

النهب الكبير — الجزء الثاني: حملة مصر (١٧٩٨-١٨٠١)

الجزء الثاني من ملحمة تاريخية في أربعة مجلدات مكرسة لعمليات النهب النابليونية، تروي هذه الرواية أعظم حملات النهب وأكثرها إثارة للدهشة: الحملة على مصر. في التاسع عشر من مايو ١٧٩٨، أبحر أسطول من ثلاثمئة وخمسين سفينة من ميناء طولون. على متنه ثمانية وثلاثون ألف جندي ومئة وسبعة وستون عالما. وجهتهم سرية، ومهمتهم سرية أيضا، لكن في مواجهة العامة وحدهم. يسمي برتوليه هذا المشروع في مذكراته الخاصة «عملية اقتناء»، فيما يسميه بونابرت «بعثة علمية». كلا الاسمين وجهان لحقيقة واحدة تتتبعها الرواية خطوة بخطوة، من الاستيلاء على مالطة إلى شواطئ النيل، وصولا إلى ورشات باريس حيث سيولد كتاب وصف مصر. عبر دفاتر دونون ومسوحات جومار ومرطبانات جوفروا سانت هيلير وصمت برتوليه، تتكشف الآلية الداخلية للنهب المستنير: جمال الإيماءة العالمة وعنف الغارة التي تخفيها. وفي الهوامش، يدون حسن — المترجم والشاهد والذاكرة — ما لا يكتبه رجال المعرفة. في نهاية الرحلة، يبقى سؤال معلقا دون إجابة: ما الفرق بين أخذ شيء وأخذ صورته؟ حجر رشيد في لندن، واللوحات النقشية في باريس، أما مصر فتبقى على ضفة نهرها.

عن المؤلف

روبير كازانوفاس، الذي سبق له نشر «الغرفة المسروقة» و«الوصية كانت مزورة» و«النهب»، أستاذ فخري حائز على درجة الأغريجاسيون، وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية. وهو حقوقي يحدوه شغف عميق بتاريخ المجموعات الفنية، كرس سنوات طويلة لدراسة مصادرة الدول للأعمال الفنية. وبوصفه رئيسا لمنظمة «الاستردادات الدولية» غير الحكومية، أصدر أعمالا أكاديمية عديدة في هذا الموضوع.

ISBN 9782488999786

النهب الكبير
رواية تاريخية في أربعة أجزاء
روبير كازانوفاس
casanovas@hotmail.com
ISBN : 978-2-488999-78-6
الإيداع القانوني أبريل 2026 – كتاب إلكتروني ونسخة ورقية
© 2026 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة
www.international-restitutions.org

الغلاف: نسخة بالحجم الحقيقي من حجر رشيد مدرجة في مسرح بصري، في متحف شامبوليون بمدينة فيف (إيزير، فرنسا)
17 يوليو 2022 – جوليان بيتار



النسخة العربية
الجزء الثاني
1798-1801 – حملة مصر
النسخة النهائية المنقّحة والمصحَّحة

للمؤلف نفسه:
الغرفة المسروقة (رواية تاريخية)
الوصية كانت مزورة (رواية تاريخية)
النهب (رواية تاريخية)
النهب الكبير – الجزء الأول – ولادة المنظومة (رواية تاريخية)

تنبيه

هذه الرواية خيال تاريخي قائم على أبحاث حقيقية.
الأعمال المذكورة وُجدت فعلًا، وقد أُخذ معظمها إبّان الفتوحات الفرنسية بين عامي 1794 و1813.

أغلب الشخصيات وُجدت بالفعل.

ويروي مجرى الأحداث وقائعَ حقيقية موثّقة.

ولمقتضيات السرد، قد تكون بعض الشخصيات والمشاهد والحوارات من نسج الخيال.

النسخة الأصلية من الرواية، المكتوبة بالفرنسية، تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية. وقد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو أخطاء في فهم المعنى أو تقريبات.

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

الفصل الأول : الشرق تحت السلاح

الفصل الثاني : الصعود في النيل

الفصل الثالث : زمن العلماء

الفصل الرابع : الانـهيار والعودة

النهب الكبير
رواية تاريخية في أربعة أجزاء

الجزء الثاني - حملة مصر (1798-1801)

الفصل الأول : الشرق تحت السلاح

1 - من طولون إلى مالطا

في صباح 19 مايو 1798، التقط كلود لويس برتوليه من رصيف طولون قطعة من حبل مطليّ بالقطران وقرّبها من أنفه. وكان حوله أكثر من ثلاثمئة سفينة تستعدّ للإبحار وسط ضجيج السلاسل وصيحات الأوامر.

فاحت من الحبل رائحة قطران الصنوبر الإسكندنافي وملح البحر المتوسط وشيء آخر لم يتبيّنه على الفور. ربما راتنج نباتي، لعلّه صمغ المستكة من خيوس. أعاده إلى جيبه ليحلّله على متن السفينة. كان الرصيف يهتزّ تحته. وكانت هذه الرائحة تذكّره ببيل بايزي.

في عام 1796 أرسله بونابرت إلى إيطاليا مع غاسبار مونج. كانت مهمّتهما أن يحدّدا في مجموعات الأمراء الإيطاليين ما يستحق أن يُنقل إلى اللوفر. جابا قصور ميلانو وبولونيا وروما، يدوّنان العناوين والأبعاد. ثم سافرت اللوحات في صناديق، كلٌّ منها في إطارها المنفصل، ملفوفةً في أغطية. وصل بعضها متضرّرًا. وبعضها الآخر لا.

ستفعل الحملة ما فعلته حملة إيطاليا، ولكن على نطاق أوسع. ما كان بونابرت يسمّيه حملة علمية، كان برتوليه يسمّيه في مذكّراته الخاصة، وبدقة أكبر، عملية استحواذ.

الفرق هو مصر. كان في إيطاليا جامعو تحف وأسواق وأسعار. وكان في مصر مقابر مختومة منذ ثلاثة آلاف عام.

وعلى سطح لوريان، السفينة الأميرالية ذات المئة والعشرين مدفعًا، كان بونابرت يراقب الأسطول وهو يتحرّك. أما وجهته فكان الرجال يجهلونها.

كان مونج يخطّ معادلات على غلاف دفتره بينما تناور السفن. لم ينظر إلى الرصيف ولا إلى أي شيء لا يقبل الحساب. وكان سنّ القلم يصرّ على الكرتون.

وفي الأسفل، في الطابق السفلي ج، كان إدم فرانسوا جومار يمدّ خيطًا بين بكرتين ليقيس طول ممرّ. خرّيج الدفعة الأولى من البوليتكنيك، في العشرين من عمره، كان يغادر فرنسا للمرة الأولى. أشار الخيط إلى ثلاثة أمتار واثنين وستين سنتيمترًا. عدّ الأضلاع التي يمتدّ الممر بمحاذاتها، ونسب قياسه إلى المسافة بين الهياكل، واستخلص منها تقديرًا لطول السفينة بفارق أمتار قليلة. لم يطلب منه أحد ذلك.

أما جوزيف فورييه، عالم الرياضيات ذو الثلاثين عامًا، فقد استقرّ في قمرة على السطح العلوي مع كومة من الأبحاث حول المعادلات الجبرية لن يفتحها طوال الرحلة. حضارة بأكملها تنتظر القياس هي ما حسم قراره بالإبحار. أما العلم الميداني فلم تكن له به أي خبرة.

كان دومينيك فيفان دونون، الكاتب والدبلوماسي، قد أخذ مكانه على متن الفرقاطة *جونون* التي كانت تتقدّم الأسطول مع فرقاطتين أخريين. تأمّل الأفق الفارغ طويلًا.

في قمرته الضيقة، كان يرتّب عدّته للمرة الثالثة منذ الصعود إلى السفينة. دفاتر الرسم أولًا، مصنّفة بحسب القياس. ثم أقلام الفحم في علبتها الجلدية. والريش، والأحبار السوداء وحبر السبيا، والفرشاة بمختلف أحجامها ملفوفة في قماش. كان يعرف هذا الترتيب عن ظهر قلب، لكل أداة مكانها، كما يعرف النحوي لغته، وكانت إعادته تمنحه إحساسًا بأنه يمسك بشيء ما. لم يكن لمصر بعدُ شكل في ذهنه. أما عدّته فكان لها شكل. وإن ساء كل شيء آخر، فسيجد على الأقل أقلام فحمه مرتّبة.

جنّده بونابرت برسالة من عشرة أسطر. *سترسمون الآثار*. وكفاه ذلك. قبِل دون أن يسأل أين ولا متى ولا في أي ظروف.

استغرق الأسطول عدة ساعات في الخروج من المرفأ. وعلى الشاطئ كانت المناديل لا تزال تتحرك حين تجاوزت أولى الأشرعة الرأس. نظر دونون إلى الساحل وهو يبتعد.

— هل تخاف؟ سأله ضابط من *جونون*.

— خوف؟ كلا يا سيدي. لهفة. هذا ليس الشيء نفسه إطلاقًا.

بينما كانت السفن تبلغ عرض البحر، رسم السواحل والجزر في ضوء الصباح. وسيظهر هذا الرسم بعد سنوات بين لوحات الطبعة الأولى من كتابه *الرحلة*.

ستة أسابيع كانت تفصل طولون عن مصر، مع توقف في مالطا. وعبر الأسطول البحر المتوسط في صمت ملاحي نسبي، متفاديًا نلسون بالمصادفة بقدر ما كان بالانضباط.

في الأيام الأولى كان البحر هادئًا. غزا العلماء الأسطح بآلاتهم، يدوّنون اتجاه الرياح. كان جومار يحسب سرعة الأسطول بعدّ العُقد. وكان علماء الطبيعة

يصطادون العيّنات بالشباك. وكانت دفاتر دونون تمتلئ بأشرعة منتفخة وهياكل قاتمة وانعكاسات على الماء. كان يرسم البحر أقل إتقانًا من الآثار، لكنه كان يحاول.

أما بونابرت فكان يقضي أيامه في القراءة. فقد حمل معه مكتبة ميدانية انتُقيت بعناية فائقة. حملات الإسكندر، وتعليقات قيصر، وتاريخ بوليبيوس، وروايات الرحّالة العرب عن مصر. كان يقرأ بسرعة، يثني الصفحات، ويدوّن على الهوامش بخط متراصّ. وفاجأه مونج ذات صباح وهو يعيد قراءة سرد رحلة فولني إلى سوريا ومصر، الذي نُشر قبل أحد عشر عامًا.

— فولني متشائم، قال بونابرت دون أن يرفع عينيه. لم يرَ سوى الانحطاط. أما نحن فسنرى المنابع.

أغلق بونابرت الكتاب ووضعه على ركبتيه. كان مونج يعرف هذه السمة فيه. بونابرت لم يكن يقرأ ليُعترَض عليه، بل كان يبحث عن سوابق لما يريد فعله أصلًا. فلم يلحّ مونج.

كانت مكتبة *لوريان* تقوم مقام مؤسسة. فقد جعل منها بونابرت أكاديمية صغيرة عائمة، فيها قراءات بصوت عالٍ في المساء ومناقشات حول التاريخ القديم لمصر. وكان يجتمع حول مائدة القمرة الكبرى كبار العلماء والضباط الذين لهم ذوق في الآداب. كانوا يقرؤون هيرودوت، ويناقشون ثوقيديدس، وغالبًا ما ينتهون، في ساعة متأخرة جدًّا، إلى أسباب سقوط روما. وكان بونابرت يترأس الجلسات ويتدخل كثيرًا، بثقافة تاريخية أدهشت أساتذة معهد فرنسا.

— لماذا تموت الحضارات، هذا لا يعنيني. لماذا تدوم، هذا ما أريد أن أفهمه. لقد صمدت مصر ثلاثة آلاف عام. ما الذي يُبقي دولة قائمة ثلاثة آلاف سنة؟

طرح فوربيه فرضية عن انتظام فيضانات النيل وإمكانية التنبؤ بالمحاصيل. كان يحب الأمثلة التاريخية لأنها تمنح الأفكار المجرّدة ثِقَل الزمن. فآلاف السنين من الفيضانات المنتظمة كانت تعادل برهانًا لا تستطيع الرياضيات وحدها أن تقدّمه. كان يرى فيها حضارة حلّت مسائل الريّ والعمارة والفلك قبل زمن بعيد من الجبر الذي يدرّسه لطلابه. وكان يتحدث عن ذلك بالأرقام أكثر منه بالكلمات. وتحدث برتوليه عن تركّز السلطة في إدارة مركزية. أما دونون، المدعو تلك الليلة إلى متن *لوريان*، فاعترف بأنه لا يعرف شيئًا من ذلك، وبأنه يعوّل على الآثار لتخبره.

مال بونابرت نحو برتوليه.

— في إيطاليا، تفاوضنا مع الأمراء. أما هنا فلا أمراء. لا شيء سوى مقابر وآثار لا يدّعيها أحد. وما سنأخذه لم يعد له مالك حيّ منذ زمن طويل. وهذا فرق كبير.

— إنّ غياب المالك الحيّ، يا جنرال، لم يكن يومًا غيابًا للمالك.

قالها برتوليه بصوت خافت، وكان بونابرت قد استأنف قراءة كتابه. كان يعلم منذ البندقية، ومنذ ميلانو، أن الكلمة العادلة والكلمة النافعة ليستا دائمًا واحدة. وكان ذلك ثمن الحملة، وقد قبله حين صعد على متن *لوريان*. وأبقى عينيه لحظة أخرى على لهب المصباح الذي كان يدخّن.

في اليوم العاشر، تغيّر الطقس. اضطرت رياح شمالية غربية الأسطول إلى تعديل مساره. فتفرقت السفن قبل أن تتجمع من جديد بأوامر الأميرال برويس. مرض جنود، ومرض عدة علماء أيضًا، منهم مونج الذي أمضى يومين مستلقيًا في سريره، شاحبًا، ووعاء في متناول يده، عاجزًا عن فتح كتاب للمرة الأولى منذ سنوات. لم يكن يشكو. كان ينتظر أن يتفضّل جسده باستئناف العمل، وكان من يعرفونه يعلمون أن هذا الصمت لم يكن صفاءً.

واصل دونون رسومه من السطح، لا يصيبه دوار البحر. كان البحر بلون أزرق لم يره قطّ في اللوحات، أزرق عنيف لا صلة له بمناظر كلود لورين البحرية. ولتصويره كان ينبغي رسم البحر على نحو آخر. ولم يكن يعرف أحدًا فعل ذلك.

بقي سؤال الوجهة طويلًا بلا جواب.

كان بونابرت قد وزّع على الضباط تعليمات مختومة لا تُفتح إلا في عرض البحر. وكان الجنود يتكهّنون. كانت تُسمع أكثر الأسماء تنوّعًا. إنجلترا، والبرتغال، وأيرلندا، والأنتيل، ومالطا، والهند. وكان الأكثر اطّلاعًا يهمسون باسم مصر، لكن هذا الاسم بدا بعيدًا إلى حد أن قلّة تجرأت على تصديقه.

بعد بضعة أيام، ترك بونابرت كبار ضباطه يفهمون الوجهة، التي لن يكشفها البيان الموجّه إلى الجيش كله رسميًّا إلا في 22 يونيو، بعد مالطا. مصر. الساحل الأفريقي للبحر المتوسط. النيل، والأهرامات، والصحارى، وأطلال طيبة ومنف. وانتشرت الشائعة بسرعة بين العلماء. فكّر برتوليه على الفور في مياه النيل وفي النطرون المصري. وقال مونج، وكان لا يزال شاحبًا، إنه يأمل خصوصًا أن يجدوا ماءً صالحًا للشرب. أما جومار فلم يسأل عن شيء. كان يفضّل أن يعرف مسبقًا ما سيراه، فقضى ساعتين مغلقًا على نفسه في قمرته يعيد قراءة ملاحظاته عن نُظم الريّ القديمة.

أخرج دونون هيرودوت من حقيبته. وانفتح الكتاب من تلقاء نفسه عند ذكر الأهرامات. تصفّح وصف بحيرة موريس، ومتاهة هوارة، وأهرامات الجيزة كما رآها الرحّالة الإغريقي قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح. كان ألفان وثلاثمئة عام تفصل هيرودوت عن تلك اللحظة. أما الأهرامات فما زالت هناك. أغلق دونون الكتاب دون أن يضع علامة في الصفحة.

وبعد أن مرّ الأسطول بمحاذاة ساحل صقلية على مسافة حذرة، اتجه نحو الجنوب الشرقي. كانت الشمس تشرق أبكر وتغرب أبعد، وكانت الحرارة ترتفع. وبالنسبة إلى كثير من الجنود الذين لم يغادروا شمال فرنسا قطّ، كان هذا البحر بالفعل حافة العالم المعروف. كانوا ينظرون إلى الأفق بفضول قلق، متّكئين على الحواجز اللاهبة.

كانت ليلة اليوم الثامن عشر أصفى ليالي الرحلة. كان الهواء يحتفظ بحرارة النهار ويفوح برائحة القطران والملح. لا غيمة واحدة. وقمر في تربيعه الأخير، طلع منذ قليل، يلقي على الماء ضوءًا باردًا دقيقًا. وكانت أشرعة الفرقاطات البيضاء تلمع كأنها ورق مبلّل. وكانت هياكل السفن الحربية السوداء ترسم ظلالًا واضحة على الماء الساكن. لم تكن الأمواج تُسمع إلا بالكاد — صرير الصواري البطيء، وخفق الأشرعة المكتوم وهي تبحث عن الريح — ومن بعيد جدًّا، صوت إنسان أو صيحة طائر ليلي.

قرابة منتصف الليل، رسا زورق قادم من *لوريان* بجانب *جونون*. كان بونابرت قد اعتاد هذه الجولات الليلية، منفردًا أو يكاد، بينما ينام ضباطه، وكان يزور أحيانًا فرقاطات الطليعة. التحق بدونون واتّكأ على حاجز السفينة دون أن ينبس بكلمة وقتًا طويلًا.

— أنت ترسم في الليل أفضل مما ترسم في النهار.

— الليل يحذف التفاصيل التي لا حاجة إليها. لا تبقى إلا الأشكال. وهذا أكثر صدقًا. هناك... — بحث عن الكلمة — هناك، لا جديد، كل شيء قد رُئي من قبل. أمّا مرسومًا بدقة؟ لا شيء. يصف هيرودوت الأهرامات دون أن يقيسها. ويذكرها سترابون دون أن يفهمها. وأنا أودّ أن أعود بصور لا يستطيع أحد أن يقول عنها إنها تقريبية.

لم يجب بونابرت. كان ذلك أسلوبًا في التفكير يفهمه. وعلى البعد، عن يسار السفينة، كان يتبيّن خط داكن قد يكون الساحل الصقلي أو كتلة غيوم منخفضة. ولم يسأل أيٌّ منهما ضابط المناوبة عن حقيقته.

في تلك الليلة نفسها، على بُعد أيام من الإبحار نحو الغرب، كان أسطول نلسون يبحث عن الأسطول الفرنسي دون أن يعرف أين هو. ولو هبّت الرياح على نحو آخر لغرق كل ما سيحمله دونون في دفاتره مع السفن.

في 9 يونيو، بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار، ظهرت السفن الفرنسية أمام فاليتا.

كانت جزيرة مالطا، التي يحكمها منذ عام 1530 فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، تحرس مدخل البحر المتوسط الشرقي بحصونها المشهورة بأنها منيعة.

استدعى بونابرت كبار جنرالاته والعلماء أمام الأسوار.

— صمدت هذه الأسوار أمام أربعين ألف تركي عام 1565. لكن الفرسان الذين يدافعون عنها اليوم شيوخ ومنقسمون ومفلسون. لن نحتاج إلى حصار. يكفي أن ننزل.

تدخّل الجنرال لويس ديزيه، الضابط ذو الملامح الزاهدة الذي كان يقود إحدى فرق الجيش.

— أيها الجنرال بونابرت، هل معلوماتكم عن الانقسام الداخلي في الرهبنة موثوقة؟

— فرسان مالطا منقسمون إلى فصائل متناحرة. والأستاذ الأعظم ضعيف. لن يقاتلوا. سندخل عمّا قريب.

رأى مونج أن عليه أن يطرح سؤالًا.

— أيها الجنرال... مالطا ليست في حرب مع فرنسا. إن الرهبنة ذات سيادة، ومعترف بها منذ قرون. والبابا، والقوى الكاثوليكية... أي مبرر ستقدّمونه؟

— مونج، يا صديقي العزيز، أنت عالم رياضيات. احسب كم من الوقت نستطيع الصمود في مصر إذا قطع الإنجليز طرقنا. مالطا هي المزلاج. أما المبرر الدبلوماسي فليس من شأنك. مرافقي يتولى ذلك.

سكت مونج. كان قد تعلّم للتوّ أين يمرّ الحدّ.

تمّ الإنزال في وقت واحد في عدة نقاط من الجزيرة، فباغت المدافعين. واستمرت المقاومة يومين. واستسلمت مالطا في 12 يونيو.

كشف الجرد عن كميات مذهلة من المعادن الثمينة، تكفي لتمويل عدة أشهر من الحملة. وجال دونون، الذي تمكّن من النزول في 14 يونيو، في قاعة الكنز الكبرى التي كان المفوضون يجردونها صندوقًا صندوقًا.

كانت ثروة الفرسان نقدية في المقام الأول، من سبائك فضة وقطع ذهبية ومصوغات كنسية. عدة ملايين من الفرنكات بحسب تقدير برتوليه.

لكن ما استوقف دونون كان في مكان آخر. ففي غرفة الأواني المقدسة بكاتدرائية القديس يوحنا، كان الجنود ينزعون اللوحات. أما سقف الصحن — وهو سلسلة جدارية ضخمة لماتيا بريتي عن حياة القديس يوحنا المعمدان، مرسومة مباشرة على الحجر بين عامي 1661 و1666 — فكان عصيًّا على الأخذ. أكبر من أن يُحمل وأثبت من أن يُنزع. فتركوه. أما لوحات الحامل فكانت تُؤخذ.

تعرّف على عدة لوحات، منها صور لكبار أساتذة الرهبنة، ولوحة كبيرة هي *قيامة لعازر* من المدرسة النابولية كانوا يلفّونها دون أي احتياط.

ورأى دونون أيضًا ما لم يكونوا يأخذونه. ففي مصلى الكاتدرائية كانت توجد لوحة *قطع رأس القديس يوحنا المعمدان*، أكبر لوحات كارافاجيو، بارتفاع ثلاثة أمتار وستين سنتيمترًا وعرض خمسة أمتار وعشرين، عاصفة من السواد والحمرة. الجلاد ينحني على الجسد المقطوع الرأس الذي يشكّل دمه بركة. وفي هذا الدم خطّ الرسام توقيعه، *ف. ميكيلانجيلو*. اللوحة الوحيدة التي وقّعها طوال حياته.

اقترب جندي ليقدّر إن كان بالإمكان إنزالها. فوضع دونون يده على ذراعه.

— هذه لن ترحل. لقد رُسمت لهذا الجدار. ستموت على متن سفينة.

نظر الجندي إلى دونون لحظة، ثم إلى اللوحة، ثم هزّ كتفيه ومضى يتفقد مكانًا آخر. وبقيت اللوحة.

دوّن في دفتره الأبعاد والموضوع والتوقيع، ثم ظلّ واقفًا أمام اللوحة دون أن يكتب. كانت لهذه اللوحة خاصية نادرة : إنها تتفحّص المتفرج بدورها. الجلاد المنحني على الميت، أو السجّان الذي يدير رأسه، كان يبدو وكأنه يستجوب من يتأمل المشهد — وأنت، ماذا تحمل معك؟

صودرت مصوغات مستشفى الرهبانية بالكامل، من أطباق المائدة والشمعدانات وأواني القربان. كان لمستشفى مالطا أرضيات من الرخام ومنسوجات جدارية وأواني فضية يقال إنها لا نظير لها في أوروبا. ستُصهر إلى سبائك. أما المرضى الذين سيأتون إلى هنا فسيأكلون في صحون من القصدير.

كل غزوة تموّل التي تليها — الآلية نفسها دائمًا، فكّر وهو يرى شمعدانًا ينتقل من يد إلى يد.

وكانت هناك أيضًا *سلسلة نسيج الهند*، وهي منسوجات جدارية صُنعت في الجوبلان انطلاقًا من رسوم مستوحاة من لوحات جلبها الأمير جان موريس دي ناسو سيغن من البرازيل — فيلة وببغاوات وحصون استوائية ومشاهد بلاط، بألوان ما زالت زاهية. كان ملك فرنسا قد وهب الرهبنة ما سيتركه جيش فرنسا، هذه المرة، في مكانه.

دوّن الأبعاد. ارتفاعها مترانِ ونصف المتر وعرضها خمسة أمتار تقريبًا لأكبرها. صوف وحرير. كان بالإمكان لفّها. لكنها لم تُلفّ. فإما أن الجنود لم يجدوا الوقت وإما أنهم لم يدركوا قيمتها.

— اتركوا المنسوجات، قال دونون لضابط الصف الذي كان يشرف على الجرد. إنها قادمة من فرنسا، وقد أهداها لويس الرابع عشر للرهبنة.

في الخارج كانوا يحمّلون الصناديق على الزوارق. الذهب والفضة واللوحات المعيّنة. أما مكتبة الرهبانية، آلاف المجلدات باللاتينية والفرنسية والعربية

والتركية، فستبقى شبه كاملة على رفوفها. لا مكان ولا وقت. كان جنود الثورة ينهبون بسرعة. وكان العلماء يلتقطون ما تبقّى.

كانت هناك كتب من مهد الطباعة، ومخطوطات من القرون الوسطى، ورسائل في الملاحة ورسم الخرائط تراكمت منذ القرن الثاني عشر. لم يكن الجنود يعرفون ماذا يفعلون بالكتب. سأل رقيب إن كانت تساوي شيئًا. أجاب دونون نعم، بعضها. فنبّه الرقيب إلى أنه لا يملك صناديق. وجد دونون اثنين، ووضع فيهما بنفسه أقدم المخطوطات. نحو مئة مجلد، اختارها بالحدس، بلا فهرس، بناءً على رقّ أكثر اصفرارًا من غيره. أما الباقي فقد تُرك على الرفوف.

وستبقى هناك. وبعد رحيل الفرنسيين، ستصبح مكتبة الرهبنة المكتبة العامة لمالطا.

«كانت فلاندر منهجية، وإيطاليا عالمة، ومالطا متعجلة. كانت كل حملة تنهب بحسب الوقت المتاح والرجال الحاضرين. ستكون مصر شيئًا آخر. ليست مدينة تُفرَّغ في ثلاثة أيام، بل بلدًا يُقطع على مدى أشهر. وسيكون النهب فيها بطيئًا.» دوّن برتوليه ذلك في ملاحظاته، وهو يراقب الزوارق المحمّلة تبتعد نحو السفن.

أقلع الأسطول مساء 19 يونيو. وكان دونون على السطح يراقب فاليتا تبتعد. مدينة من حجارة شقراء، وأسوار تنحدر حتى البحر، وأبراج كنائس باروكية. كان يعلم من الآن أنه لن يرى مالطا بعد ذلك. في العنابر كانت الصناديق مكدّسة مع الذهب والأواني الفضية. وفي دفاتره الحصون والكاتدرائية والميناء.

أما الذهب فسيُعاد صهره. وأما اللوحات الملفوفة في العنابر، فلن يعيدها أحد.

2 - من الإسكندرية إلى النيل

في الأول من يوليو، بعد رحلة بحرية تفادى خلالها الفرنسيون نلسون مرات عدة، أعلن الحرّاس ظهور سواحل مصر المنخفضة. رائحة رمل ساخن وملح. وكان مونج على السطح منذ الفجر.

ـــ الإسكندرية. إقليدس وإراتوستينس وبطليموس. سبعمئة ألف مجلد أُحرقت. انظروا ما بقي منها! هتف بونابرت.

أمعن مونج النظر في الساحل.

ـــ كنت أتوقع... حسنًا، شيئًا آخر يا جنرال. بلدة متداعية. أين المعابد والقصور؟ والمكتبة الكبرى؟

ابتسم بونابرت.

ـــ كل ذلك زال. الرومان والبيزنطيون والعرب والعثمانيون. لم يبقَ سوى الحجارة. ولهذا نحن هنا.

بدأ الإنزال في المساء، في موج عالٍ. أنزلت الزوارق الجنود في المياه الضحلة. قفزوا في الماء وخاضوا حتى الشاطئ في العتمة الدافئة. وبلغتهم الرائحة قبل البيوت. ملح، وحجر ساخن، وسمك، ودخان مدينة قديمة لم تكن تتوقع أن تُباغَت.

نزل العلماء في اليوم التالي، في آخر النهار، بعد أن سقطت المدينة. لم تكن الإسكندرية ما قرؤوه. عشرة آلاف نسمة، وشوارع ضيقة، وبيوت من الطوب النيء تتفتت.

وضع دونون قدمه للمرة الأولى على الأرض المصرية ونظر حوله بخيبة أمل لم يحاول إخفاءها.

ـــ أهذه هي حقًّا؟ أطلال وأكواخ؟

كان عمود بومبي ينتصب على بعد خمسمئة متر، وحيدًا في سماء من الرمل. سبعة وعشرون مترًا من الغرانيت الأحمر المجلوب من أسوان فوق قاعدة من الحجارة المنحوتة. ولم تكن له أي صلة ببومبي. فقد شُيّد نحو عام 297 بعد الميلاد تكريمًا للإمبراطور ديوقلديانوس، بعد أن سحق ثورة اندلعت في الإسكندرية.

كان الجذع أحادي الكتلة، كتلة واحدة ارتفاعها عشرون مترًا ونصف المتر، ووزنها قرابة ثلاثمئة طن، صُقلت منذ خمسة عشر قرنًا، وما زالت ملساء عند اللمس تحت الغبار. وكان التاج الكورنثي في أعلاه قد فقد بعض أوراق الأكانثوس لكنه ظلّ مقروءًا. أخذ جومار قياساته بأدواته. القطر عند القاعدة مترانِ وواحد وسبعون سنتيمترًا؛ وعلى الثلثين العلويين نحو مترين وخمسين سنتيمترًا. كان العمود مستدقًّا قليلًا. فقد حسب الصنّاع الوهم البصري الذي يجعل الجذع مستقيمًا تمامًا للعين من الأرض. وكان الحساب لا يزال صامدًا.

عند القاعدة، كانت كتل متناثرة تحمل شذرات من نقوش هيروغليفية، انتُزعت على الأرجح من معبد فرعوني أقدم. فقد نهب الرومان المعابد ليبنوا، ونهب العرب المباني الرومانية، ونهب العثمانيون المباني العربية. وعمود بومبي نفسه قائم على حجارة سبق أن استُخدمت في مكان آخر.

رسم دونون العمود من ثلاث زوايا. من الأمام، ومن ثلاثة أرباع، ومن الجانب انطلاقًا من الشمال. كان النصب سيبقى هناك، محكومًا عليه بأن يكون علامة تهتدي بها السفن الداخلة إلى الميناء. وسينضم رسمه إلى لوحات *وصف مصر*، وسيذهب إلى باريس ولندن وفيينا.

كانت الإسكندرية مخيّبة، فقد تراكمت فيها قرون أكثر مما ينبغي. وكان العلماء ينظرون من الآن نحو النيل.

كلّف سقوط المدينة نحو مئة وخمسين بين قتيل وجريح فرنسي. وكان كليبر قد أُصيب في رأسه ونجا. وقد اتخذ بونابرت مقر قيادته في قصر الحاكم العثماني،

واستدعى الأعيان ليشرح لهم، في بيان مترجم إلى العربية، أن الجيش الفرنسي جاء ليحرر مصر من طغيان المماليك ويعاقب الذين يهينون السلطان العثماني، صديق فرنسا.

— يا شعوب مصر، كان النص يعلن، سيقال لكم إني جئت لأهدم دينكم. لا تصدّقوا ذلك. أجيبوا بأني جئت لأردّ إليكم حقوقكم وأعاقب الغاصبين، وبأني أحترم، أكثر من المماليك، الله ونبيّه والقرآن. ونحن أيضًا مسلمون حقيقيون. ألسنا نحن من قضى على البابا، الذي كان يقول إنه يجب شنّ الحرب على المسلمين؟ ألسنا نحن من قضى على فرسان مالطا؟

وبينما كان بونابرت ينظّم إدارة الإسكندرية، شرع العلماء في أعمالهم الأولى. بحث دونون عن آثار العظمة البطلمية. وجد منها القليل، بضع كتل أُعيد استخدامها في جدران من الطوب.

أمضى دونون ليلته الأولى بلا نوم. فقد ظلّت الشوارع تضجّ بحياة ليلية لم يسمع مثلها من قبل. أصوات بالعربية، وكلاب شاردة، وخرير نافورة في فناء لا يُرى، ونداءات الصلاة التي تتردد من المآذن قبل الفجر. جلس عند نافذته بدفتره ورسم ما لا يراه، وأذناه تقودان يده. كانت الخطوط مرتجفة. تركها كذلك.

في صباح اليوم التالي خرج مع جومار إلى المدينة. كان الأخير يحمل مزواته ويأخذ القياسات عند كل مفترق. وكان دونون يخطط الواجهات، والوجوه في الأسواق، وجملًا باركًا في الغبار، ومجموعة أطفال يراقبون الجنود الفرنسيين يمرون بمزيج من الفضول والريبة. لم يكن أي منهما يتكلم العربية. فكانا يتواصلان مع الأهالي بالإشارات وبالنقود.

— انظر إلى هذا الباب، قال دونون دون أن يرفع قلمه عن الزخارف الهندسية في الخشب المنحوت. ليس هنا شيء من عصر واحد. طبقات، آلاف السنين من الطبقات، ولم تمحُ أيٌّ منها السابقة تمامًا.

— وهذا ما يعقّد المسوحات، قال جومار. كتلة غرانيت قديمة في جدار بيت من القرن الثامن عشر... كيف أؤرّخها؟ بحسب الكتلة، أم بحسب الجدار؟

— بحسب الاثنين يا عزيزي. هذه هي المشكلة، وهذا هو السحر.

كشف سوق السمك لإتيان جوفروا سانت هيلير، وهو عالم طبيعة شاب عضو في لجنة العلوم، عن نحو عشرة أنواع من البحر المتوسط لم يرها قط في أي عيّنة. فاشترى عددًا منها لا يعرف أسماءها، ولفّها بعناية في الملح وأمر بحملها إلى مسكنه ليشرّحها في المساء. احتج رفاقه في الغرفة على الرائحة. فأجاب، والمبضع في يده، بأن رائحة الجهل أسوأ.

أما برتوليه فقد اهتم بأصباغ السوق. كانت الأقمشة التي يعرضها التجار تحمل ألوانًا لا يعرفها. أزرق نيلي عميق جدًّا، وحمرة لا تشبه لون الفوّة، وصفرة تميل إلى الزعفران. اقتطع برتوليه عيّنات من الألياف المصبوغة، ولفّها في الورق، وألصق عليها بطاقات بعناية.

أما بونابرت فلم يكن لديه وقت للتنزّه.

كان عليه أن ينظّم الحامية، ويقيم العلاقات مع السلطات المحلية، ويسوّي مسائل التموين، ويُعدّ للزحف نحو القاهرة. استقبل الأعيان جالسًا على مقعد أمر بإحضاره من سفينته، وحوله مساعدوه. فمثلوا أمامه بحذر من لا يزالون يجهلون إن كان الوافدون الجدد سيبقون.

وكان الجيش يستعد أيضًا. كان الجنود يملؤون قِرَبهم، ويحمّلون البغال، ويتحققون من ذخيرتهم. وقد استُؤجر أدلاء مصريون. رجال يعرفون طريق الصحراء ومواضع الماء. كانوا ينظرون إلى هذا الاستعداد بقدرية. فقد رأوا جيوشًا كثيرة تمرّ في هذا الممر بين البحر والصحراء.

كان بونابرت يراقب الصحراء. ومن شرفة القصر حيث كان العلماء يقيمون، كان يُرى في الجنوب الخط الواضح الذي تنتهي عنده المدينة ويبدأ الرمل. خط مستقيم. في جانب، البيوت والبساتين والنخيل، حضور بشري منظم منذ زمن بعيد. وفي الجانب الآخر، لا شيء. امتداد متجانس حتى الأفق بلا ظل، بلا تغيّر في اللون.

في 6 يوليو أصدر بونابرت أمر المسير. مئتان وعشرون كيلومترًا تفصل الساحل عن القاهرة. وبينهما كانت الصحراء، ولم يقل أحد ذلك بوضوح للعلماء.

أربعون درجة في الظل منذ الساعة الأولى. لا ماء بين الآبار. كان جنود يموتون وهم يسيرون، دون أن يروا العدو. لم يكن أحد يموت دفعة واحدة. كان المرء يتوقف. ويسقط على ركبتيه. ولا ينهض. وكانت الأرتال تواصل سيرها. لم يكسر أحد خطوته ليبقى مع رجل ملقى على الأرض.

كان بونابرت يسير على قدميه مثل جنوده، في أرتال متوازية عبر الصحراء. وكان العلماء، غير المهيَّئين، يتبعونه كما استطاعوا. أُغمي على عدد منهم. وكان دونون يرسم المناظر وهو يمشي.

كان مونج يترنح متكئًا على عصا مشي ارتجلها. فلما رآه بونابرت على تلك الحال، أمر بأن يُعطى ماءً من مخزونه الخاص.

— اشرب يا مونج، قال بونابرت وهو يناوله قربته. اشرب. يجب أن تنجو من هذه المسيرة.

شرب مونج بضع جرعات من ماء فاتر بطعم معدني. كاد يقول شكرًا لكنه كبح نفسه. فالمرء لا يشكر جنرالًا على جرعة ماء كما يشكر صديقًا. أعاد القربة. وكان بونابرت قد نظر إلى جهة أخرى.

ـــ لكل المشاريع الكبرى محنها، تابع بونابرت. الإسكندر سار حتى الهند ثماني سنوات. ماركو بولو أربعًا وعشرين سنة خارج البندقية. أما نحن فسنصمد.

كانت الأرتال تتقدم عبر منظر لا ينبت فيه شيء تقريبًا. بعض الشجيرات الشائكة. وبين الحين والآخر قرية من الطوب النيء. وفلاحون يراقبون مرور الجيش من أبوابهم. كانت الحرارة مختلفة عن كل ما عرفه الجنود. كانت تصعد من الأرض بقدر ما تنزل من السماء. وكانت القرب تفرغ. فيملؤونها من الآبار حين يجدونها. وكان للماء طعم التراب والملح لكن أحدًا لم يشتكِ.

في اليوم الرابع، نحو الظهر، سرى همس في الأرتال. رفع الجنود رؤوسهم. أمامهم، وراء خط الحرارة المرتجف، كان شريط أخضر يتشكّل عند الأفق. النيل. بعضهم شرع يركض. ولم يمنعهم الضباط. بل ركضوا هم أيضًا.

حين بلغت الصفوف الأولى الضفة، سقط الرجال على ركبهم في الماء دون أن ينزعوا حتى حقائبهم. شربوا وغسلوا وجوههم وبقوا ساكنين في التيار كأنهم يرفضون الخروج منه. وخلفهم كانت الأرتال تواصل الوصول، مثيرة غيوم غبار تتساقط على الماء.

جلس دونون على الضفة مع أقلام الفحم. أمامه سطح الماء الواسع يتلألأ تحت شمس يوليو، والشريط الخصيب من بضعة كيلومترات من الخضرة الكثيفة، ثم الصحراء تبدأ تمامًا حيث يتوقف الري.

ـــ آه يا جومار، قال دونون للمهندس الجغرافي الشاب الذي ارتمى بجانبه. ها هي أخيرًا مصر الحقيقية.

ـــ الخط قبل كل شيء، قال جومار وقد وضع يده على جبينه ظلًّا لعينيه. النخيل والمزروعات، ثم الصحراء. على بعد بضعة كيلومترات من الضفة. يمكن رسمه بالخيط المشدود.

كان كل شيء معلقًا بالنهر. لم تكن مصر سوى ممر من الماء في قارة من الرمال.

صار الماء الصالح للشرب متوافرًا الآن. واستعاد الجيش قواه، وعاد العلماء إلى أدواتهم. نشر جومار مسطرته المدرّجة، وراح مونج يخطّ معادلاته على أوراقه المتناثرة، وفتح دونون دفتر رسومه. ودرس المهندسون نظم الريّ. السواقي والشواديف وقنوات التوزيع. ماء النيل يُرفع بقوة الثيران أو الأذرع إلى حقول تقع على علو بضعة أمتار، بتقنيات لم تتغير منذ الفراعنة وما زالت قيد الاستعمال. وجمع علماء النبات نخيل التمر والجميز واللوتس والبردي ونباتات عطرية لا

تعرفها أوروبا. وحشا جوفروا الطيور — أبو منجل والبلشون — وملأ الصناديق. وكانت حيوانات النيل تتكشف له، بتماسيحها على الضفاف، وأفراس نهرها التي صارت نادرة، وطيورها المهاجرة بالآلاف.

— طيور أبي منجل، قال جوفروا لبرتوليه وهو يشير إليها بذقنه. كان المصريون يحنّطونها. وقد جعلوا منها الإله تحوت. الحكمة والكتابة. طائر نراه كل صباح على ضفة النيل.

— عبادة طائر يا عزيزي جوفروا... قمة الخرافة. لقد صحّح عصر الأنوار هذا، فيما يبدو لي.

لم يجب جوفروا. كان يرى أن تقديس طائر أبي منجل لم يكن على الأرجح خرافة محضة، بل الشكل الذي اتخذته، في حضارة بعينها، الملاحظة الدقيقة للطبيعة. فقد لاحظ المصريون أن أبا منجل يظهر مع فيضان النيل، فجعلوا منه إلهًا. وكان علماء الطبيعة في القرن الثامن عشر يلاحظون الشيء نفسه ويصوغون منه معادلات، لغة أخرى للانتباه نفسه. واحتفظ بالمقارنة لنفسه وعاد إلى طيوره.

كان دونون قد بدأ الشراء منذ الشهر الأول. ولم يكن يحدّث زملاءه بذلك. فلم يحسم فوريبه ولا مونج ولا برتوليه الأمر — جمع علمي أم استئثار شخصي — ولم يكن أحد منهم يطرح السؤال بصوت عالٍ.

في وقت لاحق، في الأشهر التي تلت دخول الجيش القاهرة في 24 يوليو، كان سوق قد قام في سقارة منذ أن بيّن الجنود الفرنسيون أنهم يشترون. كان فلاحون من القرى المجاورة يحملون إليه ما يجدونه في الحقول والمقابر. عشرات من *الأوشابتي* ومئات من الجعارين، وقطع من البردي، وتمائم، وعملات بطلمية خضراء من أثر الصدأ. وكان دونون يأتي في الصباح، قبل أن تجعل الحرارة المسير مُنهِكًا. يمشي ببطء بين المعروضات المرتجلة، حُصُر من السمار مبسوطة على الأرض، والقطع مصفوفة فوقها. يجثو. يزن القطعة بيده. ينظر. وما كان يستوقفه لم يكن دائمًا الأقدم ولا الأروع. *أوشابتي* من الخشب المطلي، تمثال جنائزي طوله خمسة عشر سنتيمترًا، ذراعاه معقودتان على الصدر في هيئة أوزيريس، ووجهه مهيب، وشعره المستعار أزرق مخطط بخطوط ذهبية دقيقة الرسم. كان للوجه دقة هادئة كدقة صور البلاط. نظر إليه أحدهم، وأراد أحدهم أن يُعرَف في العالم الآخر. لقد رافق هذا *الأوشابتي* ميتًا ثلاثين قرنًا في حجرة جنائزية مختومة. وها هو الآن هناك، على حصيرة من السمار، في سقارة، تحت الشمس. ولُفّ *الأوشابتي* في خرقة ووضعه دونون في حقيبته.

قال الفلاح الذي وضعه هناك جملة. لم يفهمها دونون. فالتفت إلى حسن، المترجم الذي عيّنته له اللجنة. أصغى حسن، ونظر إلى قدميه، ثم ترجم بصوت خافت.

— يقول إنها مقبرة جدّه الأعلى.

عاد حسن وحده إلى المعسكر في تلك الليلة. مرّ بالسوق وهو يخلو، والباعة قد اختفوا في غبار المساء ومعهم قروشهم. وتوقف في الموضع الذي عرض فيه الفلاح بضاعته. كانت الحصيرة ما تزال هناك. وأثر انخفاض في الرمل يدل على المكان الذي استقر فيه *الأوشابتي*. كان مترجمًا منذ أربع سنوات، ترجم للتجار والكتّاب العدول والضباط العثمانيين، وها هو الآن يترجم للعلماء الفرنسيين. وقد تعلّم أن الترجمة هي الاختيار بين كلمات لا تتطابق أبدًا تطابقًا تامًا. أما جملة الفلاح — مقبرة جدّه الأعلى — فقد ترجمها بدقة. وما لم يترجمه كان النبرة.

وفي الأيام التالية، اقتنى دونون أشياء أخرى.

جعارين. أحدها من الفيانس الأزرق يحمل خرطوش تحتمس الثالث، سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، محفور على سطحه المسطح بدقة تحقق منها بالعدسة. الرقعة، والجعران، وقرص الشمس. ثلاثة آلاف ومئتا عام والخط سليم. وثانٍ من الحجر الصابوني الأسود يمثل خنفساء بأغماد أجنحة مفصلة بدقة. فقد راقب المصريون الجعران وهو يدحرج كرته من الروث نحو الشمس، ورأوا فيه الإله خبري يدفع الشمس عند الفجر. ووضعوه في القبور، على قلوب الموتى، لضمان البعث.

تمائم. عين الوجات من الفيانس الفيروزي، عين حورس، التي اقتلعها ست في القتال ثم أُعيد تكوينها. ثلاثة سنتيمترات، بؤبؤ مرسوم، وخطوط على طريقة فن التجميل تحاكي ريش الصقر. وتحوت برأس أبي منجل من اللازورد كان الكتبة يتحلّون به ليبقى قلمهم سديدًا. وسخمت من العقيق الأحمر الداكن. كانت تُحمل لكي لا تصيبك الحرب والأوبئة.

واشترى دونون أيضًا إناءين كانوبيين من المرمر — غطاء برأس ابن آوى وآخر برأس قرد البابون — حارسين لأحشاء الميت. ارتفاعهما ستة عشر سنتيمترًا، والمرمر شفاف يدع الضوء ينفذ بلون العسل. وقطع من البردي مغطاة بالكتابة الهيراطيقية، اقتناها دون أن يعرف ما تقوله.

ما كانت تقوله، سيتعلمه المستشرقون بعد سنوات. صيغ من *كتاب الموتى*، وأدعية حامية للعبور إلى العالم الآخر. فبردية مشابهة، اشتراها المهندس سيمونيل في طيبة وعُرفت لاحقًا باسم بردية كاديه، تحتوي على مقاطع من ثمانية وثلاثين فصلًا أو صيغة من *كتاب الموتى*.

ستنضم بردية كاديه إلى قسم المخطوطات في المكتبة الوطنية، تحت الرقم *مصري 1 إلى 19*.

لكن في ذلك الصباح بسقارة، لم يكن يعرف شيئًا من هذا بعد. ما كان يستوقفه كان يشتريه. السوق يخلو. الحرارة ترتفع. وغدًا ستكون هناك حصُر أخرى، وأشياء أخرى، وصفقات أخرى لن يدوّن كل عباراتها.

ذات صباح، عند الفجر، كان لدى جوفروا اثنتا عشرة صفحة من الملاحظات وقناعة واحدة. فتمساح النيل وكايمان أمريكا الجنوبية يتشاركان بنية عظمية قريبة إلى حد يستحيل معه أن تكون مصادفة. وهذا التقارب التشريحي عبر آلاف الكيلومترات ومحيط كامل طرح سؤالًا لم يكن لدى علم الأحياء في عصره جواب عنه.

لم يحدّث جوفروا بذلك أحدًا بعد. فقد كانت الفكرة تصطدم اصطدامًا شديدًا بما يُدرَّس في باريس.

في نوفمبر، في سقارة، سيطلب جوفروا من دونون أن يُريه صور الحيوانات في النقوش البارزة. وسيقضيان نصف يوم في مقارنة طيور أبي منجل المرسومة بالطيور الحية. وستتشابه اللوحات والطيور تمام التشابه، كأن ثلاثة آلاف عام لم تغيّر شيئًا. وسيرسم دونون الاثنين جنبًا إلى جنب — الحي والميت المرسوم — دون أن يعرف أيهما أشبه بالأصل.

3 - معركة الأهرام

في 21 يوليو، لمح الجيش الأهرام.

كانت الأشكال المثلثة ترتسم في الأفق على بعد نحو عشرة كيلومترات. توقف الجنود من تلقاء أنفسهم. لم يصدر أحد أمرًا. ونظر إليها بونابرت طويلًا، وهو على ظهر جواده.

ثم التفت إلى رجاله.

— أيها الجنود، من علياء هذه الأهرام، أربعون قرنًا تتأملكم.

وأشار إلى جنرالاته دون أن يخفض صوته.

— الجنرال بون، الفرقة اليسرى. الجنرال ديزيه، الفرقة اليمنى. لا نتحرك. نترك العدو يأتي.

ثم، بصوت أخفض، لنفسه وحده، في مواجهة الأهرام.

— فليكن ذلك على الأقل بالانتصار.

أُرسل العلماء إلى داخل مربعات المشاة مع الأمتعة والجرحى. فوجدوا أنفسهم محشورين بين البغال وصناديق الذخيرة، بمستوى كتف جنود الصفوف الأخيرة. كان مونج لا يكاد يرى شيئًا.

من حيث كان، كان كل شيء يجري بمستوى قامة الرجل. الأقدام التي تتقارب، والبنادق التي تُمسَك بكلتا اليدين، والعرق على الأعناق. الغبار المتصاعد من الجنوب. وفرسان المماليك يقتربون، غير مرئيين بعد. وجندي عن يساره يتمتم باللهجة الألزاسية. لم يفهم مونج. كانت النبرة كافية. وتساءل، للمرة الأولى منذ طولون، ما الذي يفعله عالم هندسة هناك، بين بغلين، فيما يهجم الفرسان.

سبق الهدير صوت الحوافر، اهتزاز للأرض تحت النعال. ثم أطلقت الصفوف الأولى نيرانها وحجب الدخان الأسود كل شيء. وتوالت الرشقات بإيقاع منتظم. وفي الفواصل كانت تُسمع صرخات، صرخات الرجال الساقطين عن خيولهم.

ما لم يستطع مونج رؤيته من داخل المربع، كان الضباط الراكبون يرونه. فقد نشر مراد بك قواته إلى الجنوب، في السهل الممتد بين قرية إمبابة المحصّنة على ضفة النيل والأهرام. ستة آلاف فارس مملوكي، وربما سبعة آلاف، محتشدين في تشكيلات متموجة. لا خطوط. لا صفوف ثابتة. خيالة تنتشر كالماء على سطح غير مستوٍ. وكانت الخيول العربية، وهي أصغر حجمًا من الخيول الفرنسية، تعدو في مجموعات من خمسين أو مئة، وتغيّر اتجاهها بإشارة من قائد لا يُرى. ومن ورائها كان غبار بلون المغرة يرتفع حتى حجب السماء.

كان بونابرت قد صفّ فرقه في خمسة مربعات كبرى. خمسة وعشرون ألف رجل، من أصل الثمانية والثلاثين ألفًا الذين أبحروا من طولون، موزعين على ستة صفوف عمقًا، والحراب مشرعة، والضباط في الداخل مع الأمتعة. كانت تلك هي التشكيلة النظرية التي تُدرَّس في المدرسة العسكرية، التي ما كان ينبغي أن تنكسر أبدًا أمام هجوم الفرسان. وما من أحد في الجيش رأى قط ستة آلاف فارس يهجمون في وقت واحد.

جاء الهجوم الأول من الجنوب الشرقي. نحو ألف فارس، انفصلوا عن معظم الجيش المملوكي، انطلقوا مباشرة نحو مربع ديزيه. أرستقراطية محاربة ممتطية الجياد أكثر منها جيشًا، كل فارس يقاتل لمجده الخاص، بلا نظام جماعي. سيوف معقوفة، ومسدسات في الأحزمة، وبنادق قصيرة على الأكتاف. وبعضهم يرتدي دروعًا من الزرد تلمع تحت الشمس. وآخرون أثوابًا من الحرير المطرّز.

هجموا بأقصى سرعة على مدى ثلاثمئة متر. وانتظر مربع ديزيه. مئتان وخمسون مترًا. كان الضباط يصرخون بالثبات في الصفوف. مئتا متر. ارتفعت البنادق. مئة وخمسون مترًا. وكان بونابرت، من موقعه في الوسط، ينظر دون أن يتحرك. مئة

متر. المسافة التي يستطيع عندها جندي المشاة أن يميّز وجه الفارس المهاجم. خمسة وسبعون مترًا. أمر الرمي.

أصابت الرشقة الأولى الهجوم في مقدمته. كانت الرصاصات تضرب الخيول أولًا، وهي أعرض من الرجال، ثم الفرسان الذين يهوون إلى الأمام أو إلى الجانب. وعلى مسافة خمسين مترًا، تباطأ الهجوم. لم يتوقف، بل تفتّت. فقد أبت الخيول التقدم نحو الحراب. ووصل بعض الفرسان المنفردين إلى المربع. كانوا يضربون بسيوفهم المعقوفة البنادق المتصالبة، لكنهم لم يقدروا على اختراق الصفوف الستة عمقًا. وأسقطتهم الرشقة الثانية من مسافة قريبة جدًا.

تراجع الناجون. لكن هجمات أخرى تلت. فقد كان مراد بك يدفع أسرابه في موجات متتالية، آملًا أن يجد ثغرة في التشكيلات الفرنسية. وكانت كل موجة تتحطم على البنادق. وبعد ساعة، كانت المربعات ما تزال صامدة. وكانت الأرض أمام المواقع الفرنسية مغطاة بالخيول النافقة والفرسان الجرحى. وكان دخان البارود راكدًا في الهواء الساكن، يشكّل ضبابًا رماديًا حجب الأهرام في الخلفية.

واصل دونون الرسم دون أن يرى. ظهورًا، وبنادق، ودخانًا، وركن هرم فوق الرؤوس. عنق الجندي الألزاسي أمامه، والبنادق التي ترتفع وتهبط، والدخان اللاذع الذي يحجب كل شيء. وما جرى في الخارج للتو — الهجمات، والرشقات التي حطمت الأسراب المملوكية، والهجوم المضاد للفرسان الفرنسيين — لن يراه. لن يحتفظ إلا بالدخان والحرارة والعرق والضجيج.

كان القتال قد دام أكثر من ساعة حين دفع بونابرت بفرقتي بون وفيال إلى الهجوم على المعسكر المحصّن في إمبابة، على ضفة النيل. وتقدمت أعمدة المشاة بالحراب، لا لمطاردة العدو بقدر ما كان لتوجيه ضربة عنيفة إليه تهدف إلى كسر تماسكه. وتراجع المماليك، المحصورون بين الأعمدة والنهر. وغرق بعضهم وهو يحاول عبور النهر على ظهور الخيل. وسقط آخرون على الضفاف برصاص المشاة الفرنسيين الذين طاردوهم.

أدرك مراد بك أن المعركة خاسرة. ففرسانه، المتفوقون فرديًا، لم يقدروا على شيء أمام مشاة منضبطة تثبت في مواقعها. فأصدر أمر الانسحاب العام. وقبل أن تمضي ساعتان على بدء القتال، كان المماليك الناجون يعدون نحو الجنوب، تاركين ساحة المعركة للفرنسيين. وخلّفوا وراءهم عدة آلاف من القتلى. أما الفرنسيون فأحصوا أقل من ثلاثمئة بين قتيل وجريح.

رسم دونون الأهرام والقتلى في المقدمة. أما لوحات النصر، فستُطلب لاحقًا.

واستأنف الجيش مسيره. وعندئذ عادت الأهرام. لا كما بدت في الصباح، خيالات بعيدة في الغبار، بل كأشياء من طبيعة أخرى. كانت تكبر كلما اقتُرب منها على

نحو لا صلة له بالمنظور المألوف، وتكفّ عن أن تُقارن بأي شيء معروف. وعلى بعد مئتي متر، أدرك دونون أنه أمضى حياته كلها يتخيل آثارًا على مقياس إنسان. وهذه الأهرام شُيّدت على مقياس فكرة كانت لدى بُناتها عمّا ينبغي أن يدوم. كانت هائلة، وقحة في حجمها. لا صرح أوروبي يضاهيها.

أخرج جومار، خريج البوليتكنيك الشاب، أدوات القياس وشرع في أولى مسوحاته. والأرقام التي دوّنها تلك الليلة — طول القاعدة، وزاوية ميل الأوجه، والارتفاع المقدَّر — لن تكون سوى مسودة، سيعود إليها بمنهجية في عام 1799 عند مسح أهرام الجيزة.

تفحّص دونون الأهرام، ثم الجيش المعسكر عند أقدامها. كانت هذه الصروح تزن ملايين الأطنان. ولن تذهب إلى أي مكان. أما الأشياء التي تحويها فمسألة أخرى. التماثيل الصغيرة التي كانت تُوجد في المقابر، والبردي، والجعارين من الفيانس، كل ذلك كان يتسع له صندوق من صناديق الحملة.

هبط الليل سريعًا على هضبة الجيزة. أشعل الجنود نيران معسكرهم. وكان الضوء البرتقالي للهب يحمّر قاعدة الحجارة. وظل دونون واقفًا طويلًا بعد أن تمدد جومار على غطائه، وعيناه مفتوحتان نحو السماء.

بعد منتصف الليل، أخذ أقلام الفحم واقترب من الهرم الأكبر. لم يوقفه الحراس. فقد أُبلغوا بأن هذا المدني ذا الدفتر يتجول في كل مكان ولا يسبب مشكلة. سار بمحاذاة القاعدة حتى وجد زاوية يضيء فيها القمر الوجه الغربي مباشرة. كانت الكتل أعلى من قامة رجل. تسلّق كتلتين، ثلاثًا، وجلس على الرابعة.

كان الحجر ما يزال دافئًا. لا الحرارة المنتشرة للهواء، بل حرارة خاصة، داخلية، كأن كتلة الحجر الجيري امتصت شمس النهار وراحت تردّها ببطء في الليل. الكف مبسوطة على الحجر. أكثر من مئة وثلاثين مترًا من الحجر فوقه، غير مرئية في العتمة. لم يكن يرى إلا الصفوف الأولى من الكتل ترتفع نحو السواد.

حاول دونون أن يرسم. كان القمر يعطي من الضوء ما يكفي لتمييز الفواصل بين المداميك، وعدم الانتظام الطفيف في الأسطح المنحوتة باليد، والظل العميق للفُرَج. وخط الأفق حيث يقطع الهرم السماء، والصفوف المتتالية من الكتل التي ترتفع في درجات. أبسط من رسم النهار، بلا دخان أمام الدفتر.

وجده جومار هناك نحو الواحدة صباحًا. تسلّق إلى الكتلة المجاورة، وتفحّص الرسم في الدفتر، ثم نظر إلى الهرم، ثم عاد إلى الدفتر. وتكلم دونون أخيرًا.

— معركة ربحناها، وبعد ألف عام... مراد بك الذي يفرّ نحو الجنوب، من سيعلم بذلك؟ انظر إلى الهرم. لقد رأى مئة معركة مثل معركتنا. وهو لا يُحصيها.

— دفاترنا ستكتبها، قال جومار. وهذا، بدقة، ليس هو نفسه أن نتذكرها.

ـــ دفاتر. وأهرامات. هذا ما يبقى من الانتصارات يا عزيزي.

لم يجب جومار على الفور. كان يبحث بعينيه عن القمة، التي لا تُرى.

ـــ حسبتُ هذا المساء أن الهرم الأكبر يضم نحو مليونين وثلاثمئة ألف كتلة. ولو أن العمال اشتغلوا عشر ساعات في اليوم، وثلاثمئة وخمسة وستين يومًا في السنة، طوال عشرين عامًا، لكان لزم وضع كتلة كل دقيقتين تقريبًا، دون انقطاع. دون استراحة. دون خطأ. مليونَي مرة. ما يُقلقني أن الحساب يستقيم. لقد فعلوا بالضبط ما كانوا قد عزموا على فعله.

وعلى البعد، كانت نيران معسكر الجنود تومض في السهل. وفي مكان ما نحو الشمال الشرقي، كانت القاهرة نائمة.

تفحّص دونون الرسم مرة أخيرة. خط الهرم على السماء الليلية، بسيط ومطلق. لم يرسم قط شيئًا يصعب إفساده إلى هذا الحد.

نهض جومار، ونفض الغبار عن بنطاله، وصعد عائدًا إلى المعسكر.

في صباح اليوم التالي، دخل جومار الهرم الأكبر مع مونج ودونون. دخلوا من الممر الذي شقّه الخليفة المأمون في القرن التاسع. نفق في البناء، ضيق إلى حد أنهم اضطروا إلى التقدم منحنين، والمشاعل المدخّنة في أيديهم. كانت حرارة الأمس قد غادرت الهضبة. وكان الحجر باردًا.

في الممر الصاعد صادفوا جنديًا كان ينزل. فتى في الثامنة عشرة ربما، المشعل في يده اليسرى، ويده اليمنى مضمومة. انسحب إلى جانب الجدار ليفسح لهم الطريق. لمح جومار ما كانت اليد اليمنى تقبض عليه. جعران من الفيانس الأزرق، في حجم الجوزة، وجده في كوّة جانبية. نظر إليه الجندي. ونظر إليه جومار. لم ينبس أي منهما بشيء. أما التماثيل الصغيرة، فسيحمل دونون منها لاحقًا في أمتعته الخاصة. وكان جومار يستشعر منذ الآن أنه لن يكون بين جيب الجندي وصناديق العلماء سوى فارق في الدرجة. ومضى الجندي نحو المخرج، ويده اليمنى ما زالت مضمومة.

أوقفهم الرواق الكبير في مكانهم. سبعة وأربعون مترًا طولًا، وثمانية أمتار ونصف علوًّا، وجدرانه من الحجر الجيري المصقول تصعد متدرجة نحو القمة. كان الممر يمتد بميل ست وعشرين درجة نحو حجرة الملك. ومع رفع المشعل، لم يكن الضوء يبلغ القمة، ولم يكن يُرى إلا الجداران يتقاربان في العتمة.

ـــ انظروا إلى هذا، قال مونج وقد رفع أنفه نحو الجدران. الرومان يبنون الأقبية، والمصريون الأسقف المتدرجة ـــ المشكلة نفسها يا أصدقائي، نفسها! وهم لم يكونوا يعرفون بعضهم بعضًا.

ـــ مع فارق بضعة آلاف من السنين، أجاب دونون. هذا الممر أقدم من البانثيون في روما بألفين وسبعمئة عام.

تقدّم مونج وهو يعدّ خطواته. كان قد حمل معه حبلًا مدرّجًا يفرده خلفه، ويدوّن الطول بالضبط عند كل تغيّر في الاتجاه. وكان دونون يمسك ميزان التسوية.

في حجرة الملك توقفوا قليلًا. كان التابوت الفارغ يشغل النصف الغربي من الحجرة. حوض من كتلة واحدة، بلا غطاء ولا نقش ولا زخرفة. كان أحدهم قد كسر زاويته الشمالية الشرقية في زمن مجهول. ولم يترك اللصوص شيئًا آخر.

قاس جومار الحجرة في أبعادها الثلاثة. الطول، عشرة أمتار وخمسون سنتيمترًا. العرض، خمسة أمتار وعشرون سنتيمترًا. الارتفاع، خمسة أمتار وثمانون سنتيمترًا. دوّن الأرقام، ثم راجعها، ثم دوّنها ثانية. ثم حسب النسبة بين الطول والعرض. قريبة من اثنين إلى واحد. قريبة من المربع المزدوج.

ـــ انظروا. اثنان إلى واحد، أو ما يقارب ذلك. لا أكاد أؤمن بالمصادفة. هندسة للتناسبات نعيد اكتشافها... لم يكتبوها. بل بنوها.

جلس مونج على حافة التابوت الفارغ يرسم الحجرة على ضوء مشعله. كان هذا التابوت قد احتوى شيئًا. أو ربما لا شيء. ربما كان فارغًا منذ الأزل. ولعل الحجرة نفسها كانت هي القبر، لا الصندوق الحجري. لم يكن أحد يعلم. لم يكن هناك أي نقش هيروغليفي يزيّن الجدران ليقول ذلك. ولو وُجد، لما عرفوا قراءته.

صعدوا إلى السطح بعد ساعتين. كانت شمس الصباح تضرب هضبة الجيزة. جلس مونج على كتلة من الحجر الجيري وأغمض عينيه لحظة. فكّر في الحجرة في الأسفل. صمتها المطلق، وظلمتها التامة، والتابوت الفارغ الذي انتظر هناك قرونًا أن يأتي من يضع يديه عليه. وحين فتح عينيه، جعله الضوء يقطّب وجهه.

فتح جومار دفتره. وتحت أرقام حجرة الملك، بخط أقل انضغاطًا، أضاف ثلاث جمل. «يدخل المرء هرمًا كما يدخل جملة لا يفهم لا بدايتها ولا نهايتها. المعنى هناك، منظَّم ودقيق. لكن اللغة تعوزنا.»

بعد الظهر، بينما كان دونون ينهي مسوحاته للوجه الشرقي، ابتعد جومار نحو جنوب الهضبة. كان يريد أن يرى أبا الهول من بعيد قبل أن يقترب منه. توقف على بعد ثلاثمئة متر ونظر.

كان الرأس يبزغ من الرمال عند الأفق، مرتسمًا على السماء البيضاء من الحر. وكانت النسبة مُقلقة. أكبر من أن تكون لإنسان، وأصغر من أن تكون لصرح، شيء بين الاثنين لا يطابق أي فئة يعرفها. رسم صورته الظلية بدقة. أربعة خطوط. انكسار الأنف المشوَّه. حافة النمس. التسريحة المخططة التي تؤطر الوجه. الظل الساقط على الرمل.

وعند الاقتراب، أخذت التفاصيل تتوالى. الحجر الجيري الأصفر الباهت، الذي أبلته آلاف السنين من الرياح المحمّلة بالرمل. وكانت الطبقات الجيولوجية ظاهرة في الصخر. فقد نُحت أبو الهول في الجرف الطبيعي. وتتبّع العمال طبقات الحجر كما يتتبّع النحات عروق الخشب. وكانت الأذنان، وقد انمحتا نصف انمحاء، تحتفظان بشكلهما. وصارت العينان تجويفين الآن، لكن الحاجبين البارزين يدلان على أنهما حُفرتا عمدًا.

جلس جومار في الرمل، عند أسفل الرأس، في الظل الضيق الذي يلقيه في أواخر العصر. كان المكان البارد الوحيد في الهضبة في تلك الساعة. ورسم الوجه من الأسفل، من الزاوية التي لم يصوّرها أي رسام بعد، زاوية من يجلس عند قدم الصرح ويرفع عينيه.

— لا بد من العودة إلى المعسكر يا مواطن، جاء جندي من فرقة الحماية ليقول له. رفع جومار يده دون أن يلتفت ولم يتحرك. ابتعد الجندي وهو يهز كتفيه. وكان قد بقي من الضوء ما يكفي لنحو عشرين دقيقة.

فكّر فيما يحرسه أبو الهول. أو فيما يُفترض أنه يحرسه. والمصريون القدماء، كما سيُعرف لاحقًا، سمّوه حور-إم-أخت، حورس في الأفق. الإله الصقر الذي كان أيضًا الشمس المشرقة. كان هذا الوجه ينظر نحو الشرق، نحو الشرق تمامًا، نحو الشمس عند شروقها — حساب فلكي، أُنجز بدقة لن تفعل أدوات جومار سوى تأكيدها.

كل شيء هنا كان مقصودًا. لا شيء كان للزينة وحدها. كل نسبة، وكل اتجاه، وكل مادة اختيرت، كانت تستجيب لمنطق كان في رؤوس البنّائين ولم يروا فائدة في شرحه لأن خلفاءهم كانوا يعرفونه أيضًا. ثم اختفى الخلفاء، واختفى المنطق معهم، ولم يبقَ إلا الحجر، دقيقًا وأخرس، تحت قلم مهندس في العشرين من عمره.

وحين لم يعد الضوء كافيًا، نهض ونظر إلى الوجه مرة أخرى. لم يكن الأنف الغائب ينتقص من التعبير — إن كان ذلك تعبيرًا أصلًا. أما السكينة فما كان ليقسم بها. نفض الرمل عن ذيل سترته واستأنف طريقه إلى المعسكر.

كان سقوط القاهرة في 24 يوليو سريعًا على نحو مدهش. فُتحت أبواب المدينة دون قتال جدي، إذ آثرت السلطات المحلية التفاوض على مواجهة جيش رأت للتو قوة ناره. ودخل بونابرت عاصمة مصر على رأس جنوده، عابرًا أزقة ظل سكانها محتمين بالبيوت في حذر.

لم يصدّق الجنود ما رأوه. فبعد أيام من الصحراء ثم من السير على امتداد النيل، اكتشفوا مدينة يسكنها ثلاثمئة ألف نسمة. أسواقها المكتظة، ومساجدها التي لا

تحصى، وبساتينها من النخيل والبرتقال، ونوافيرها. وكانت في نظر معظمهم أكبر مدينة وأغربها رأوها في حياتهم.

طاف جوفروا سانت هيلير بحي خان الخليلي مساء يوم الدخول نفسه. يرسم وهو يمشي، ويدوّن وهو يمرّ. بدت له المدينة عالمًا كاملًا متماسكًا، منظَّمًا وفق منطق لم يكن ليملك مفاتيحه قبل أشهر.

كان خان الخليلي قلب القاهرة التجاري منذ القرن الرابع عشر. متاهة من الأزقة المسقوفة تتكدس فيها محال الصاغة والنساجين وباعة التوابل والوراقين وصانعي النحاس والشبه. كان يهيم فيه منذ ساعة، ودفتره مفتوح، عاجزًا عن تثبيت رسومه لأن الحركة لا تتوقف أبدًا. الوجوه، والأقمشة، والبضائع. كل شيء يتوالى بسرعة فائقة.

لمحه تاجر عجوز للخط العربي، فأومأ إليه بالدخول إلى دكانه. قبل جوفروا. نشر الرجل أمامه أوراقًا مغطاة بإشارات لا يستطيع قراءتها لكنه أدرك على الفور قيمتها الجمالية. الخطوط المنحنية، ونقاط الإعجام الموزعة بدقة تجمع بين الرسم والكتابة. اشترى منها ثلاث ورقات بمبلغ زهيد. وأهداه التاجر ورقة رابعة ترحيبًا.

أدهشه هذا التصرف، بعد إطلاق النار في الإسكندرية والريبة الملموسة في الشوارع. لم يكن في ذلك أي تعاطف مع فرنسا. بل كان الكرم، بالأحرى، كما وُجد في هذه البلاد قبل الفرنسيين، وقبل العثمانيين، وقبل العرب أنفسهم. وكان الرجل العجوز قد عاد إلى أقلام القصب.

أما جومار، وكان أكثر واقعية، فاهتم على الفور بأبعاد المدينة. ثلاثمئة ألف نسمة، أي أكثر من نصف سكان باريس. لكنهم موزعون على مساحة أضيق بكثير، في أزقة ضيقة لا تتسع لأكثر من حمارين متجاورين. دوّن عروض الشوارع، والارتفاعات التقريبية للواجهات، والنسبة بين المساحات المبنية والأفنية الداخلية. وستفيده هذه المعطيات لاحقًا في تقديراته السكانية.

وأما بونابرت فقد رأى القاهرة مشكلة إدارية. ثلاثمئة ألف نسمة يجب حكمها بجيش من خمسة وعشرين ألف جندي منهَكين. لم تكن النسبة في صالحه. كان يلزمه حلفاء محليون، وإدارة بالوكالة، وشرعية مستعارة. بدأ العمل مساء يوم دخول المدينة نفسه، بينما كان جنوده ينهارون من التعب.

التقى مونج وبرتوليه في فناء قصر مهجور يحتسيان القهوة المصرية التي قدّمها خادم استأجرته الإدارة العسكرية في الصباح نفسه.

— حسنًا، ها نحن هنا! قال مونج وهو يرفع فنجانه. ستة أسابيع من البحر، ومالطا، والصحراء، ومعركة... وهذه القهوة، ذوقوا لي هذه القهوة، سميكة كالصلصة. في قصر مملوكي!

— يبقى الأهم، قال برتوليه دون أن يمس فنجانه.

— وما هو؟

— أن نفهم ما أمامنا. هذه البلاد... أما الباقي — الفتح — فكان الجزء السهل يا مونج.

وضع مونج فنجانه وتأمل الفناء. نخلة، وحوض من الحجر، ونجوم فوق الجدران. لقد أمضى اثنين وخمسين عامًا يعتقد أن العلم يفتح العالم. وقد كان يفتحه فعلًا، ولم يكن قد توقّع أن يكون ذلك مخيفًا. لم تكن القاهرة تنام بعد. وفي الشوارع المجاورة، كان الجيش يستقر لقضاء الليل. أوامر تُصاح، وخيول، والصوت المكتوم للصناديق وهي تُنزَل.

4 - معركة أبو قير

في الأول من أغسطس، هاجم نلسون السفن الفرنسية في خليج أبو قير. دامت المعركة ليلة كاملة. وفي الصباح كانت إحدى عشرة سفينة حربية من أصل ثلاث عشرة قد غرقت أو أُسرت. أما *الوريان*، السفينة الأميرالية، فقد انفجرت.

كان الأسطول الفرنسي راسيًا في صف واحد في خليج أبو قير الضحل منذ الأيام الأولى من يوليو، ينتظر أوامر الأميرال برويس. ثلاث عشرة سفينة راسية جنبًا إلى جنب، جانبها الأيمن نحو البحر وجانبها الأيسر نحو اليابسة. كان ذلك هو الترتيب الكلاسيكي لأسطول راسٍ، الذي يحمي أحد جانبيه بالاستناد إلى الشاطئ. وقد اختار برويس هذا الموضع لأن ميناء الإسكندرية كان أقل عمقًا مما يلزم. وظن أن نلسون لن يستطيع الهجوم إلا من الأمام.

لكن نلسون أدرك ضعف هذا الترتيب. فإذا كان الخليج عميقًا بما يكفي لثلاث عشرة سفينة، فهو عميق بما يكفي للإبحار بين هذه السفن والساحل. لقد احتمى الفرنسيون من جهة البحر المفتوح. وتركوا جانبهم الأيسر مكشوفًا، ظانين أن أحدًا لن يجرؤ على التوغل في المياه الضحلة. فجرؤ نلسون.

بدأ الهجوم في السادسة والنصف مساءً، بينما كانت الشمس تهبط نحو الأفق. دخلت الخليج ثلاث عشرة سفينة من فئة أربعة وسبعين مدفعًا والسفينة *لينذر* ذات الخمسين مدفعًا، لكن *كولودن* جنحت على المياه الضحلة ولم تشارك في القتال. وخمس منها، بمبادرة من القبطان فولي، مرّت بين الخط الفرنسي والساحل. وهاجمت البقية من جهة البحر المفتوح. وجد الفرنسيون أنفسهم بين نارين، ومدافع جانبهم الأيسر لا فائدة منها لأنهم لم يتوقعوا القتال من هذا الجانب.

دارت المعركة في ظلمة متزايدة. فالسفن الفرنسية الأولى في الخط، وقد باغتتها الهجوم، اجتُيحت قبل أن تتمكن من استدعاء أطقمها المتفرقة على اليابسة. ودُكّت

غيريي و*كونكيران* و*سبارتيات* بالمدافع البريطانية من مسافة قريبة جدًا. وفي الثامنة مساءً كان الليل حالكًا. ولم يعد القتال يجري إلا على ضوء طلقات المدافع، واللهب المتصاعد من السطوح المتضررة، والقمر الذي كان يطلع على البحر المتوسط.

كانت *لوريان*، السفينة الأميرالية ذات المئة والعشرين مدفعًا، في وسط الخط الفرنسي. وكانت أكبر سفينة في العالم، بُنيت في طولون عام 1791. وكان برويس يقودها من هناك، جريحًا لكنه رفض مغادرة موقعه، حتى قتلته قذيفة مدفع. وفي التاسعة مساءً اندلع حريق في المؤخرة، حيث كانت أوعية الطلاء والزيت مبعثرة، وامتد إلى السطوح السفلى. وانتشرت النار حتى مخازن البارود. حاول البحارة إخمادها، لكن المضخات كانت قد دُمّرت بالطلقات السابقة.

وفي العاشرة مساءً انفجرت *لوريان*. كان الانفجار مرئيًا من الإسكندرية، على بعد أكثر من عشرين كيلومترًا. ارتفع عمود من اللهب مئة متر في السماء الليلية. وتردد دوي الانفجار على امتداد الساحل كله. وطوال عشر دقائق، لم يعد البريطانيون ولا الفرنسيون يطلقون النار. وراحت شظايا ملتهبة تتساقط على البحر. وقُذفت جثث البحارة في الهواء وسقطت في الماء على بعد مئات الأمتار من السفينة. ولم يبقَ من *لوريان* شيء. ومن أصل ألف رجل من الطاقم، لم يُنتشل إلا حفنة من الناجين.

استؤنف القتال بعد الصمت. حاولت السفن الفرنسية الناجية الدفاع عن نفسها، لكنها كانت محاصرة وقد فتك الموت بأطقمها. وعند فجر الثاني من أغسطس، كانت إحدى عشرة سفينة فرنسية قد دُمّرت أو أُسرت. ولم تنجح في الهرب نحو البحر المفتوح إلا سفينتان، *غيوم تل* و*جينيرو*. وكانتا ستغران نحو مالطا. أما البقية فقد غرقت، أو جنحت على الساحل، أو وقعت في أيدي البريطانيين.

كانت معركة أبو قير أعظم انتصار بحري لنلسون، وعاد البحر المتوسط بحرًا بريطانيًا. وبلغت الخسائر الفرنسية عدة آلاف من القتلى والجرحى والأسرى. ولم يفقد البريطانيون أي سفينة.

بلا أسطول، كان الجيش الفرنسي سجين مصر، بلا تعزيزات ولا مؤن ولا وسيلة للعودة. ثمانية وثلاثون ألف جندي ومئة وسبعة وستون عالمًا مقطوعون عن العالم.

بلغ النبأ بونابرت في 14 أغسطس، وهو على طريق القاهرة عائدًا من الصالحية، على يد ضابط من هيئة الأركان أوفده إليه كليبر من الإسكندرية. وما إن وصل إلى العاصمة حتى دعا إلى عقد مجلس حرب.

— لقد أرسى برويس الأسطول في خليج أبو قير بدل أن يضعه في مأمن بالإسكندرية. وهاجم نلسون ليلًا. فدُمّر الأسطول. تلك هي حالنا.

كافاريلي — في الثانية والأربعين، جنرال المهندسين، بساق خشبية منذ حصار مانهايم، والصراحة عنده عيب مهني — طرح السؤال الذي كان الجميع يمتنعون عن طرحه.

— أيها الجنرال بونابرت، ما الاستراتيجية بعيدة المدى؟ إلى متى نبقى هنا؟

تردد بونابرت.

— نحن نسيطر على النيل يا كافاريلي. ومصر ستطعم الجيش. ومالطا منحتنا ما يكفينا للصمود. أما الديركتوار فلسنا نتبعه. فلنواصل. جيش الشرق مقطوع عن فرنسا — حسنًا، ها نحن مضطرون إلى القيام بأمور عظيمة. بحرًا؟ لا. إذن برًّا. سوريا، وتركيا. أو نبقى هنا، حتى تتبدل الظروف.

— أسرى إذن، قال مونج بضحكة صغيرة لم تلقَ صدى. إلى متى؟

أما برتوليه، وكان أكثر رواقية، فذهب يبحث عن سابقة.

— بقي الإسكندر إحدى عشرة سنة بعيدًا عن مقدونيا يا مونج. ولا يرثي له أحد. عملنا هنا سيدوم بعدنا... تمسّك بهذا.

وبعد المجلس، وجد كافاريلي فورييه في ممر القصر فأوقفه بيد على ذراعه. كان كافاريلي الجنرال الوحيد في الجيش الذي لا يتصنع أمام المدنيين. والوحيد أيضًا الذي لا يستأذن في طرح سؤال مزعج.

— لقد سمعتَ بونابرت. أعطى الأمر بالمواصلة. فما رأيك أنت؟

— أرى أنه لا خيار له. وأنه يعلم ذلك.

— ونحن؟

— نحن كذلك.

لم يجب كافاريلي بشيء. ترك فورييه وعاد إلى ضباطه، وساقه الخشبية ترنّ على البلاط.

قام المشروع كله، من الآن فصاعدًا، على أن أميرالًا أرسى سفنه في المكان الخطأ.

بلغ نبأ تدمير الأسطول العلماء بطرق شتى بحسب مواقعهم في تراتبية المعسكر. فبعضهم علم به من ضابط في هيئة الأركان كان يعبر الفناء. وآخرون من خادم مصري سمع الجنود يتحدثون.

في ذلك المساء، وقبل أن يعود إلى مسكنه، مرّ جومار بالملحقات الشمالية لقصر حسن كاشف حيث كانت المجموعات مخزّنة. وفي يده فانوس ودفتر جرد مخطوط.

كانت الصناديق هناك، الصناديق المعنونة بخط يده ومجموعات مونج وبرتوليه الرسمية. وفي الزاوية الشمالية الغربية، إلى جانب الجدار الخلفي، ثلاثة وعشرون

صندوقًا بلا بطاقات. بلا رقم تسلسلي. بلا اسم مفوّض. خشب عادي، أُغلق على عجل بمسامير دُقّت بشكل مائل. حاول أن يرفع أحدها. أثقل من أن يحمله رجل وحده. مرّت أصابعه في فرجة بين الألواح. قماش. وشيء صلب خلفه. لم يحاول فتحه عنوة. كان قد رآها ثلاث مرات قبل هذه الليلة، منذ بداية الحملة. أولاها في الإسكندرية، دون أن ينتبه إليها، بين صناديق أخرى. والثانية قبل أيام قليلة، حين جاء يتفقد المجموعات على ضوء الفانوس. والثالثة في الليلة السابقة. لم تتحرك من مكانها، ولم يطالب بها أحد. كانت موجودة خارج المنظومة، خارج الاستمارات والتفويضات ودفاتر الجرد. كانت ذلك الجزء من الحملة الذي لا اسم له.

دوّن وجود هذه الصناديق الثلاثة والعشرين في يومياته الخاصة، أسفل صفحة، مع التاريخ وهذه العبارة : «المصدر مجهول. المحتوى لم يُتحقق منه.» ولم يحدّث أحدًا عنها. فهذه الصناديق ستكون لشخص ما. سيطالب بها أحدهم، أو لا يطالب.

في عصر اليوم التالي، ذهب جومار إلى سوق التوابل في خان الخليلي ليرى إن كان الخبر قد شاع في المدينة. لا شيء، للوهلة الأولى، كان يدل على ذلك. كان التجار يبيعون. والمشترون يشترون. وأسعار الفلفل والقرفة لم تتغير عما كانت عليه في الأسبوع السابق.

أشار إليه تاجر أقمشة يعرفه بالنظر أن يقترب. نطق الرجل بكلمات قليلة بالعربية، مشيرًا إلى السماء، ثم إلى البحر في الشمال، ثم ضمّ يديه وفرّجهما فجأة. وأبقاهما مفتوحتين لحظة، براحتين فارغتين، فوق لفائف القطن.

— إنهم يعلمون، قال جومار لمترجمه.

— يعلمون منذ مساء أمس. الأخبار في الأسواق أسرع من البريد. يقولون إن الأسطول الفرنسي دُمّر وإنكم الآن أسرى هنا.

— وماذا يظنون في ذلك؟

تبادل المترجم بضع جمل مع التاجر. ثم التفت إلى جومار.

— يقول إن الفرنسيين ليسوا أول من وقع في الفخ في مصر، وإن المماليك أيضًا ظنوا أنهم باقون، وإن النيل سيظل جاريًا حين ترحلون، وأيضًا إنكم إن أردتم شراء قماش فهو يعرض صفقة جيدة اليوم.

اشترى جومار قطعة من قماش النيلة. لا لسبب نافع، بل لأن لونها كان جميلًا ولأنه أراد أن يكون قد فعل شيئًا ملموسًا في هذا اليوم.

في الساعات التالية شغله سؤال آخر أكثر. كيف ستعود دفاتره هو، ورسوم دونون، ومجموعات جوفروا إلى فرنسا؟

مع حلول المساء، وقد أتمّ النبأ انتشاره في المدينة، التقى العلماء في الفناء الداخلي للقصر. لم يقترح أحد أن يجتمعوا هناك. كانوا هناك، الواحد تلو الآخر، تجذبهم الحاجة نفسها إلى ألا يبقوا وحدهم مع النبأ.

وصل برتوليه بعد دقائق قليلة وفي يده ورقة حسابات. جلس ووضع الورقة على ركبتيه، وقال لمونج دون مقدمة :

ـــ لقد قدّرت المؤن المتاحة. دقيق وزيت وأرز ولحم مجفف. وبتقنين سليم يستطيع الجيش أن يصمد ستة عشر شهرًا دون إمداد خارجي. لن نموت جوعًا. وهذا شيء على الأقل.

ـــ ليس الجوع ما يشغلني، قال مونج. بل بالأحرى...

ـــ أعلم. لكن الجوع، أستطيع أن أحسبه.

كان فوريبه جالسًا بعيدًا، تحت الرواق، ولم ينطق بكلمة. وما لم تستطع الكلمات أن تحتويه ائتمن عليه الرياضيات. كان فقدان الأسطول مسألة متعددة المتغيرات ـــ المؤن، والتعزيزات، وطرق الانسحاب الممكنة ـــ تستعصي معادلاتها. ومع ذلك كان يبحث عنها. كانت تلك طريقته في الخوف.

ـــ وماذا عن مجموعاتنا؟ قال جوفروا. كيف ستعود هي؟

لم يجب أحد على الفور. كان ذلك هو السؤال الذي طرحه الجميع على أنفسهم ولم يشأ أحد أن يصوغه أولًا.

ـــ الدفاتر تعود في جيوبنا، قال جومار. القياسات والملاحظات والرسوم التخطيطية. ما يُحمل في بضعة كيلوغرامات لكل رجل يمكنه أن يعبر أي شيء.

ـــ والصناديق؟ قال جوفروا. عيّناتي. عيّنات برتوليه. الفخاريات والبرديات والتماثيل الصغيرة. كل ما هو ثقيل.

طوى برتوليه ورقة حساباته.

ـــ كل ما هو ثقيل معرّض للخطر. لا بد من الإقرار بذلك. إن سيطر الإنجليز على شرق المتوسط، فكل ما نريد شحنه قد يقع في أيديهم.

عبر قطّ البلاط واختفى تحت الرواق. وفي مكان ما من المدينة بدأ المؤذن أذان الليل. صوت طويل متعرج يرتفع وينخفض على لحن كان قد سمعه كل ليلة منذ الأول من يوليو، ولم يكفّ عن أن يبدو له غريبًا.

ـــ قال بونابرت إنه إن كان البحر... حسنًا، إننا سنعود عبر سوريا إن لم نستطع العودة عبر البحر، قال مونج.

ـــ بونابرت يقول أشياء كثيرة، أجاب برتوليه. وهو الليلة محق في قولها. فالجيش بحاجة إلى أن يصدّق.

بقوا ساعة في الفناء دون أن يقرروا شيئًا.

نهضوا كلٌّ على حدة وعاد كل منهم إلى غرفته. لم يكن لديهم ما يفعلونه غير ذلك.

جلس جوفروا إلى طاولة عمله وكتب.

«لقد فقدنا الأسطول قبل أربع عشرة ليلة، دون أن نعلم. أقول "نحن" لأنها الكلمة الصحيحة. هذه الخسارة جماعية حتى وإن لم أكن في أبو قير، وحتى وإن لم أكن بحّارًا. إن ما فقدته مع الأسطول هو اليقين بأن ما رأيته هنا لن يعود إلى فرنسا، أو على الأقل ليس في صورة أكون قد اخترتها. دفاتري ولوحاتي، والأنواع السبعون من الأسماك والطيور والزواحف التي جمعتها منذ الإسكندرية، من الأسواق ومن الصيادين. كل ذلك رهينة الآن لوضع عسكري لا سلطان لي عليه.»

توقف. أعاد القراءة. كانت الجملة الأخيرة شاكية أكثر مما ينبغي. فشطبها بخط واحد وبدأ من جديد.

«ما يشغلني هذه الليلة ليس الخوف. لا أظن أننا سنموت هنا. سيجد بونابرت شيئًا، فهو يجد دائمًا شيئًا. ما يشغلني مسألة أكثر تجريدًا، هي معرفة ما جدوى الشهادة إن لم يستطع الشاهد أن يعود. اللوحات التي رسمتها للتمساح وأبي منجل وأسماك النيل، لها قيمة إن رآها أحد. أما وهي محبوسة في صندوق بالقاهرة فلا قيمة لها أكثر من الحيوانات التي تصوّرها.»

ترك الحبر يجف.

كانت دفاتر ملاحظاته ولوحاته كلها معًا تزن نحو عشرة كيلوغرامات. أما العيّنات في برطماناتها وصناديقها الخشبية فنحو أربعين كيلوغرامًا. يستطيع رجل أن يحمل اثني عشر كيلوغرامًا على ظهره في مسيرة طويلة. أما الأربعون كيلوغرامًا فتتطلب حصانًا أو بغلًا. وخيول الجيش وبغاله لم تكن متاحة للمجموعات الشخصية لعالم طبيعيات مدني.

وضع قائمة بما يمكنه أن يحمله بنفسه إن اقتضى الوضع ذلك. الدفاتر، في الأولوية المطلقة. وأدوات تشريحه — مباضع ومقصات وملاقط — بضعة كيلوغرامات. ومن بين العيّنات، كان أصغرها وأثمنها جلود الطيور، وجماجم الزواحف، والأسماك المجففة، وأبو منجل محنَّط. ما يتسع له جراب جلدي.

أما الباقي — الأسماك الكبيرة في البرطمانات، والتماسيح، وجماجم الثدييات — فسيبقى. فإن رحلوا سيرًا على الأقدام عبر سوريا، كما كان بونابرت يذكر، لم يكن بالإمكان تحميل برطمانات على ظهر رجل يسير في الصحراء.

علمه هذا الانتقاء القسري ما لم يكن قد توقعه. منذ الرحيل كان يعتقد أنه يوثّق مصر ليعيدها إلى فرنسا. أما ما سيعود به فسيتوقف على ما يمكن أن ينتقل فعليًا أكثر مما

يتوقف على ما اختاره. إن الحكاية التي تُروى عن بلد ما هي حكاية ما استطاع أن يعود.

كتب سطرًا أخيرًا.

«إن وصلتك هذه الدفاتر ولم أصل أنا، فذلك لأنها سافرت وحدها. ولعل ذلك أفضل طريقة للسفر. فالأشياء أخف من الرجال.»

طوى الورقة ودسّها في الدفتر الأول، بين صفحات طولون. ثم أطفأ المصباح وانتظر النهار.

5 - المجمع العلمي المصري

بعد ثلاثة أسابيع من أبو قير، في 22 أغسطس 1798، وبعد تسعة وعشرين يومًا من الاستيلاء على القاهرة، أسس بونابرت بمرسوم المجمع العلمي المصري.

كانت مهمة المجمع الرسمية دراسة البلاد في جميع أبعادها — الطبيعية والتاريخية والاقتصادية — والإجابة عن الأسئلة التي لم تكن الإدارة العسكرية قادرة على حلها وحدها. وكان المجمع ينعقد في قصر حسن كاشف. وكان بونابرت نائبًا لرئيسه، ومونج رئيسًا له. وفي كل خمسة أيام كان العلماء يجلسون في القاعة الكبرى ويستأنفون أعمالهم.

ترأس مونج الجلسة الأولى.

كان قد درّس الهندسة الوصفية لأبناء حرفيين كانوا يتعلمون القراءة في الوقت نفسه الذي يتعلمون فيه المقاطع المخروطية. وقد أُسست مدرسة البوليتكنيك لكي تحل الجدارة محل النسب. وبالنسبة إليه كانت مصر أقل من فتح، وأقرب إلى برهان على قدرة فرنسا الثورية على أن تنتج ما لن تنتجه الملكيات أبدًا، بعثة علمية في قلب حملة عسكرية.

افتتح النقاش بكلمات قليلة.

— نحن هنا لنفهم يا أصدقائي. لا لنغزو — فغيرنا يتولى ذلك على خير وجه. أطلب منكم ألا تنسوا ذلك أبدًا.

جالسًا في الصف الأخير، دوّن جوفروا العبارة.

كان بونابرت يأتي كثيرًا. وكان العلماء يقدّرون أن يصغي إليهم من يمسك بالسلطة.

— أيها السادة، كانت مصر أكثر بلاد العالم تحضرًا. ثلاثة آلاف سنة من التاريخ مدفونة. استخرجوها. قيسوا وارسموا واجمعوا. وادرسوا مصر اليوم أيضًا — فالعلم يخدم الأحياء، وإلا فلا يخدم شيئًا.

في مطلع أكتوبر، عاد دونون، الذي تبع الجيش منذ الإسكندرية ورأى الأهرامات مساء المعركة، ليقضي عدة أيام في رسمها من كل الزوايا. وتسلق جومار معه إلى قمة الهرم الأكبر. نصف ساعة من الصعود على كتل حجرية تبلغ صدريهما، وراحتاهما مسلوختان. ومن الأعلى، كانت الصحراء في الغرب، ووادي النيل في الشرق، والقاهرة في الشمال الشرقي.

— مصر كلها بنظرة واحدة، همس جومار.

— نعم... انظر إلى الضوء على الوجه الشرقي. من هنا سأتمكن من تثبيت رسومي المنظورية على الأوجه الأربعة.

قاسوا بقايا معبد بتاح، إله منف الخالق. وفي التراب كانت ترقد شظايا تمثال ضخم من الغرانيت الوردي، معصم عريض كجذع شجرة، وقطع من الساقين، ورأس، سيُنسب لاحقًا إلى عهد رمسيس الثاني.

كان العمل شاقًا لا شكر عليه. فقد كان التمثال محطمًا إلى قطع عدة متناثرة بين الأعشاب. وكانت استعادة القياسات تقتضي الجمع، وتعويض الثغرات، وتقدير الأجزاء المفقودة.

قرابة الظهر، لجأ جومار إلى ظل الرأس، التي يبلغ ارتفاعها نحو مترين، والغرانيت الفاتر إلى ظهره.

تأمل الوجه. كان الفم يبتسم قليلًا. تلك الابتسامة التي كانت تُنحت لعمالقة الدولة الحديثة قبل ثلاثة عشر قرنًا من ميلادنا، لا حانية ولا مهددة. وكان الأنف مكسورًا، ربما على أيدي جنود من القرون الوسطى ظنوا أنهم يهدمون سلطانًا بهدم الوجه. وكان الصلّ — الكوبرا الملكية على الجبهة، علامة السيادة الإلهية — قد اقتُلع ولم يبق منه إلا الأثر. أما النمس فكان سليمًا، وخطوطه المتوازية مقروءة تحت الغبار.

على الحزام — عند مستوى الوركين، حيث ذهبت الساقان المحطمتان ببقية التمثال — لمح جومار خرطوشًا. بيضاويان مستطيلان محاطان بخط متصل، هي الأسماء الملكية التي لم يكن أحد يعرف قراءتها بعد.

لم يكن ممكنًا حمل الرأس. كان يزن عدة أطنان. وقد نُحت من كتلة واحدة من الغرانيت الوردي، استُخرجت من محاجر أسوان.

كان رجل عجوز يجلس القرفصاء في ظل الرأس الضخم ويراقب جومار منذ لحظة. حارس ربما، أو مجرد شخص جلس هناك قبله ولم يتحرك. أراه جومار دفتره، ومخطط الحسابات. تكلم الرجل، لكن جومار لم يفهم. ثم التقط غصنًا صغيرًا ورسم في التراب، بجانب قدم التمثال، خطين متوازيين وثلاثة خطوط مائلة تعبرهما. مخطط. يختلف عن مخططه، لكنه مألوف، هو مخطط حمل يتحرك على مستوى

مائل. بقيا على هذه الحال لحظة، رجلان ومخططان في التراب. كان أحدهما يملك الأدوات، وكان الآخر يملك الذاكرة. حسب جومار في ذهنه. كان التمثال كله، قبل سقوطه، يزن ثمانين طنًا. على قارب. قوارب النيل معروفة. مراكب مسطحة خفيفة، لا تقوى على حمل أكثر من ثمانية أطنان. فكيف تُنقل ثمانون طنًا على الماء؟

بالطبع ليس على قارب واحد. بل على عدة قوارب مجمّعة في طوف عائم، مربوطة معًا، والتمثال موضوع على عوارض خشبية تصله بجميع المراكب. وأشار الحساب إلى أنه يلزم عشرة قوارب على الأقل من الحجم المعتاد مشدودة في تشكيل محكم.

عشرة قوارب. مئات الأمتار من الحبال. مئات الرجال. لنقل تمثال إلى معبد.

لم يكن الإنجاز التقني، وهو صعب لكنه ممكن، ما أدهشه بقدر القرار بالإقدام عليه. فأن يُقرَّر نقل ثمانين طنًا عبر تسعمئة كيلومتر من الماء يفترض يقينًا. اليقين بأن النتيجة تستحق العناء، وبأن التمثال سيظل قائمًا بعد ألف عام، وبأن الإمبراطورية التي أراد الفرعون تمجيدها ستدوم.

لم تدم الإمبراطورية. وكان التمثال ملقى في التراب، محطمًا لكنه حاضر، قابل للقياس.

تساءل جومار إن لم تكن عظمة مصر القديمة تعود إلى ما أنجزته بقدر ما تعود إلى ما أعدّته لتتركه لمن سيأتون بعدها بزمن طويل. وبرى قلمه على ركبة الغرانيت.

مرّ دونون ودفتر رسومه تحت إبطه، وتوقف أمامه.

— أتتأمل؟

— أنا أقيس. والأمر سيّان.

في مطلع نوفمبر، أحصى برتوليه ما أُنجز منذ يوليو. مئات الدفاتر المملوءة، وآلاف العيّنات، ومذكرات في الجيولوجيا والري والتحنيط والزراعة واللغات. أكثر من ثلاثة أشهر من العمل، اتسع لها سجل واحد.

كان ديزيه يطارد مراد بك في صعيد مصر منذ نهاية أغسطس. وقرر بونابرت أن يرسل إليه رسامًا لدراسة آثار طيبة؛ على ألا تلحق به لجنة أكبر إلا في خريف 1799. وتطوع دونون، وكان عليه أن يغادر مطلع ديسمبر.

كانت مسألة المجموعات تطرح أصلًا مشكلات لا يريد أحد حسمها بوضوح. فقد كان العلماء يجمعون عيّنات طبيعية — معادن وحيوانات محنطة ونباتات مجففة

ـــ بموافقة ضمنية من بونابرت، الذي رأى فيها أسس متحف مصري مقبل في باريس. أما القطع الأثرية فأمر آخر. وكان الاتفاق فيها يزداد حرجًا عند الاعتراف به.

عاد جوفروا سانت هيلير من سوق السمك في إمبابة ومعه ثمانية أنواع لم يسبق له أن رآها.

كان تشريح سمكة مجهولة بالنسبة إليه حوارًا. شقوق وملاحظات وتدوينات ومقارنة بما يحفظه من تشريح أنواع أوروبية. كان التنظيم الداخلي للأسماك ثابتًا على نحو لافت من نوع إلى آخر. الأعضاء نفسها في المواضع نفسها، مع اختلافات تعكس أنماط عيش متباينة. فسمكة القاع تختلف مواضع عينيها عن السمكة السطحية. لكن المخطط الكامن كان متشابهًا.

ثبات المخطط التشريحي هذا عبر تنوع الأنواع هو ما بدأ يلمحه دون أن يعرف بعد كيف يصوغه. فلو كانت الأنواع قد خُلقت منفصلة، كما يقول المذهب السائد، فلماذا تشترك في مخطط بهذه الدقة؟ أما الجواب ـــ أنها تنحدر من سلف مشترك ـــ فكان فكرة خطيرة. وكان كوفييه، الأستاذ في متحف التاريخ الطبيعي، سيرفضها. وكانت الأكاديمية ستنظر إليها بعين الريبة.

كانت السمكة الرابعة مفتوحة على اللوح حين دخل دونون ومنديل على أنفه.

ـــ ما زلت مع أسماكك؟ قاعتك تفوح منها رائحة سوق السمك.

ـــ أسماك فيلية. النيل وأنهار أفريقيا الكبرى. هنا، تحت الذيل ـــ أعضاء كهربائية. وأسماك الأمازون لديها أعضاء مماثلة، تطورت على بُعد ثمانية آلاف كيلومتر دون أي اتصال. مصادفة؟ كلا. قيد تشريحي، على ما أظن.

ومن بين الأنواع الثمانية التي جُلبت ذلك الصباح، استوقفته إحداها. كان قد اشتراها من صياد لم يفهم لماذا يهتم الفرنسي بسمكة عادية كهذه.

وُضعت السمكة في حوض الملاحظة الخاص به، وهو طست من الفخار مملوء بماء النيل. كان طولها نحو ستين سنتيمترًا، بنية ذهبية، مكسوّة بحراشف سميكة كأنها دروع مفصلية. سباحتها بطيئة، بوقار زاحف.

وما استوقف جوفروا كان الزعانف الصدرية.

لم تكن زعانف مسطحة شعاعية، كتلك التي في جميع الأسماك التي شرّحها منذ بلغ العشرين. بل كانت زوائد لحمية فصّية، يحملها بناء داخلي يشبه طرفًا.

قضى الليل في مراقبة السمكة وهي حيّة، ثم في تشريحها. كانت الزعنفة تخفي عظمة طويلة مركزية تتفرع منها أشعة، وكان فيها كل ما في عظم العضد. وهذه السمكة، التي سيسميها *بوليبتيروس بيشير*، لا صلة لها بأسماك الأمازون. ومع ذلك

فإن زعانفها تشترك معها في المخطط التشريحي الأساسي نفسه. وعند الفجر كان ماء الطست قد اكتسب لونًا ورديًا.

كتب جوفروا إلى كوفييه مساء اليوم التالي. كان كوفييه قد بقي في باريس، إذ بدت له الحملة محفوفة بالمخاطر وغير مؤكدة أكثر مما ينبغي. وكانت رسائلهما تتقاطع في البحار متأخرة أشهرًا.

« صديقي العزيز، كتب جوفروا، وجدتُ هنا ما يبرر وحده رحلتنا. سمكة تبدو كأن لها ذراعين. ليست ذراعين بالطبع، بل زعنفتين. لكن لها مخططًا داخليًا يشبه مخطط طرف، وهو نفسه، تمامًا هو نفسه، في أنواع لم يكن بوسعها أن تلتقي قط. ما زلت لا أعرف ماذا أظن في ذلك. لكن لا يمكن أن يكون هذا محض صدفة. »

لم يرد كوفييه على هذه النقطة طوال أشهر عدة. وحين ردّ، قال إن أوجه الشبه لا تعني أصلًا مشتركًا. وإن الله قد يكون استعمل المخطط نفسه في ظروف مختلفة.

6 - ثورة القاهرة

منذ الأيام الأولى من أكتوبر 1798، كان جومار قد بدأ يدوّن يوميات للمدينة. لا شيء حميم فيها، فلم يكن له هذا النوع من الطبع. كان الجرد يسجّل السكان المقدّرين في كل حي، وكثافات البناء، وعروض الأزقة، وارتفاعات الواجهات، ومساحات الأسواق. وأُضيفت إليها ملاحظات عن حركة المرور، وساعات فتح الأسواق، وجغرافية الماء، والنوافير وأحواضها.

مساء 20 أكتوبر، عشية الثورة، كان قد خرج بفانوسه ليقيس ساحة الأزبكية. كانت الساحة قلب الوجود الفرنسي في المدينة. هناك أقام بونابرت مقر قيادته، وهناك كانت تقام الأسواق والاحتفالات الرسمية والتجمعات العسكرية. وكان أهل القاهرة في أغلبهم يعبرونها دون أن يتلبثوا، بنظرات مخفوضة وخطى سريعة.

كان يقيس زوايا الساحة، ويدوّن المسافات بحبل مُعاير، حين لاحظ مجموعة من الرجال جالسين قرب نافورة يراقبونه وهو يعمل.

نهض أحدهم واقترب. نطق بكلمات قليلة بالعربية لم يفهمها جومار. ثم أشار إلى حبل القياس وقال جملة أخرى. فسّرها جومار على أنها سؤال عمّا يفعله.

أراه المخطط الجزئي للساحة الذي رسمه. تفحصه الرجل بانتباه، وقلّب الدفتر، وأمسكه بعيدًا عنه بذراع ممدودة. ثم قال جملة لرفاقه. فضحكوا. ضحكة لم تكن ساخرة، بل مندهشة.

لم يعرف جومار قط ما قالوه. كانوا قد تعرفوا، في ظنه، إلى ساحتهم في الرسم. ولعل هذه كانت المرة الأولى التي يريهم فيها أحد مدينتهم كما تُرى من الأعلى. أو

ربما كانوا يضحكون لأن الفرنسي الشاب بحبله يحاول قياس شيء لا يحتاج إلى قياس.

في 21 أكتوبر 1798، انفجرت أخيرًا العداوة الكامنة لدى أهل القاهرة. وكانت الشرارة ضريبة جديدة على العقارات. وقتل الحشد الجنرال دوبوي، قائد المدينة.

منذ الفجر، اجتاح آلاف المنتفضين، المسلحين بالسيوف والرماح والعصي، شوارع القاهرة. وذُبح الجنود المعزولون وقُطعت رؤوسهم. وتحصنت بالمتاريس الأحياء المنتفضة، التي كان الغضب ينضج فيها منذ ثلاثة أسابيع.

علم بونابرت، الذي كان آنذاك في مصر القديمة، بالانتفاضة صباحًا. ولما كانت التجمعات تسد عليه أبواب المدينة، اضطر إلى الالتفاف ولم يدخلها إلا من باب بولاق. وأمر جميع القوات المتاحة باستعادة المدينة حيًّا حيًّا.

— يجب سحق هذا التمرد دون إبطاء، صاح في جنرالاته. إن أبدينا أدنى ضعف أُبيد جمعنا قبل المساء. أطلقوا النار على كل تجمع معادٍ، دون إنذار.

قصفت المدفعية الأحياء المنتفضة. وكانت البيوت المبنية من الطوب النيء تنهار في سحب من الغبار. وكان المشاة يمشطون الشوارع. واقتُحم الجامع الأزهر. تدنيس روّع المسلمين جميعًا في مصر.

دام القمع ثلاثة أيام. وأمر بونابرت بإعدام جميع زعماء الثورة الذين أُسروا أحياء. وعلى مدى عدة ليالٍ قُطعت رؤوسهم في القلعة، وأُلقيت الجثث في النيل.

لم ينتظر دونون نهاية القمع ليخرج. نصحه خادمه المصري، وقد استبد به الذعر، بالعودة. فلم يأبه.

في شوارع الحي الذي كان يسكنه، رأى مجموعات من الرجال المسلحين، ودكاكين تحترق. رائحة الدخان وشيء آخر تحتها، عرفه ولم يسمّه. جندي فرنسي ملقى ميتًا في زقاق. نساء يصرخن من النوافذ، وطفل يركض. والجيش الفرنسي، وقد باغته الأمر، يستغرق وقتًا في تنظيم رده.

— عُد إلى بيتك، بحق السماء، صاح ضابط حين رآه ومعه دفتر رسومه. ليس هذا وقت الرسم.

— بل على العكس يا عزيزي، هذه هي اللحظة المناسبة، الآن أو أبدًا. بعد خمسين عامًا، من سيعرف ما جرى هنا؟ لا أحد، إن لم يدوّنه أحد.

ثم عاد في النهاية بعد ساعة، وراقب ما تلا من نافذة طابقه الأول. جنود فرنسيون يطوقون مجموعة من المنتفضين في زقاق. وفتح مسجد أبوابه ليأوي الهاربين.

أغلق دونون النافذة. في الشوارع كانت الطلقات مستمرة. وفي المجمع، على بعد بضع مئات من الأمتار، كان اليوم نفسه يُعاش على نحو آخر.

لم يأمر أحد العلماء بالبقاء في المجمع. ففي عجلة المعارك، لم يكن بونابرت قد اهتم بتنقلاتهم. ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك. فجنود فرنسيون يُذبحون على بعد مئتي متر من هناك، ومنتفضون مسلحون في كل الأحياء، وطلقات نار متواصلة منذ الفجر، كل ذلك كان كافيًا لإبقائهم محبوسين.

استقر فوريبه في القاعة الكبرى للمجمع بدفاتره وعمل على معادلاته. كان يفكر، دون أن يكون قد صاغ من ذلك نظرية، في الكيفية التي تنتشر بها الحرارة في الأجسام. إنها تنتشر وفق قوانين دقيقة لا تتبدل. أما أعمال الشغب فلا تنتشر وفق هذه القواعد. وكان ذلك سببًا إضافيًا لتفضيل الفيزياء.

قرابة منتصف الليل، لحق به جومار بفانوس.

دخل برتوليه نحو الثالثة صباحًا، دون سابق إعلان. جلس، وراقب الآخرين وهما يعملان برهة.

— ماذا تحسب؟ قال لفوريبه.

— كيفية انتشار الحرارة في وسط غير متجانس. لم أصل بعدُ إلى المعادلات.

— مفيد. المبنى الذي على اليسار يحترق منذ الصباح. ومع شيء من الحظ ستتنبأ تأملاتك بما إذا كان مبنانا سيُصاب قبل الفجر.

— لا تتوقفوا، أضاف وهو يخرج. هذا ما زال الشيء الوحيد الذي يميز وجودنا هنا عن... حسنًا. عن احتلال عادي.

عملوا في صمت حتى الصباح الباكر، كل منهم في حساباته. في الخارج كانت المدينة تحترق. واضطر جومار إلى أن يقص فتيل فانوسه مرتين.

أما مونج فكتب رسالة إلى زوجته. لم يعد هناك بريد منتظم منذ أبو قير. كتبها مع ذلك. وما تضمنته لن يعرفه أحد أبدًا. ختمها بعناية وحملها في سترته حتى مغادرة مصر، بعد عشرة أشهر.

في 24 أكتوبر، خرج العلماء بحذر من المجمع. ثلاثة أيام وأغلبهم متحصنون يصغون إلى الطلقات. وعدة أحياء لم تعد سوى أطلال تتصاعد منها الأدخنة.

خرج دونون إلى الشوارع المدمرة ورسم.

أو على الأقل حاول. أمامه بيت منهار، واجهته نسفتها قذيفة، وعوارض الخشب المتفحمة مطروحة عرض الطريق، وفي الغبار حذاء طفل. رسم خط قمة ما بقي واقفًا. في الجيزة كان قد رسم الأهرامات من كل الزوايا. وفي مالطا كان قد رسم الأعمال التي تُحمل والتي تُترك. وكان دونون يرى دائمًا أن الرسم شهادة، وأن الشهادة محايدة. فالقلم لا معسكر له؛ ما كان موجودًا قد ثُبّت، لا أكثر.

لكن هذا البيت بالذات هدمه جنود فرنسيون. مدفعية الجيش الذي كان يسافر معه، والذي كان يعتمد عليه في طعامه وتنقله وعمله. وهذه الأطلال، متى رسمها، ستصبح وثيقة لقمع كان حضوره هنا، على نحو ما، يضفي عليه الشرعية.

رسم دونون مع ذلك، بدافع ردّ فعل آلي أكثر منه عن اقتناع. امتلأت الصفحة. وحين أغلق الدفتر، لم يكن ليعرف أن يقول هل كان الفعل ضروريًا أم مشينًا، أم الأمرين معًا. كان الرماد يغطي يديه حتى الرسغين.

وأبعد في الزقاق، باب خشبي منقوش ملقى منتزعًا من مفصلاته. ودكان من دكاكين السوق مبقور البطن، رفوفه مقلوبة، وصندوق نحاسي مفتوح فارغ. فكّر دونون في قصر حسن كاشف، وفي المفوضين الذين كانوا يملؤون قوائمهم. الحركة نفسها، مطروحًا منها المعايير والتمييز. هنا يقولون نهبًا، وهناك جمعًا. وأعاد بقدمه إغلاق غطاء الصندوق.

كان حسن يمشي أمامه ليفتح له الطريق. قرب جامع ابن طولون، وجدا جنديين فرنسيين منهمكين في إفراغ دكان حائكين. كانت الأقمشة تخرج من الباب في حزم، مكدسة على عربة يد خشبية. حريريات وقطنيات مصبوغة وكتان أبيض مدخر للمناسبات الكبرى. وكان أحد الجنديين ينزع نولًا من حامله المثبت في الجدار.

كانت صاحبة الدكان في إطار الباب الخلفي، امرأة تلبس السواد. تنظر دون كلام. لا توسل ولا صراخ. فقط عينان تتبعان كل حزمة. مرّ الجندي قربها بالعربة فتراجعت خطوة واحدة بالضبط، لا أقل ولا أكثر.

بقي حسن في الشارع. لا شيء يُترجم. نظر إليه دونون لحظة، إلى حسن الذي يراقب المرأة التي تراقب الجنود، وأدرك أن الوسيط يرى هو أيضًا، وأن الرؤية دون القدرة على الفعل تمنح الوجه لونًا خاصًا. لم يدوّن أي ملاحظة.

في مساء ذلك اليوم، عاد حسن إلى بيته، في الحي القبطي حيث كان الجيش يستأجر له غرفة. لا في صف الجنود ولا في صف المنتفضين. في صف اللغة. مترجم على جانبي خط لا يستطيع عبوره. أوامر فرنسية مترجمة. توسلات عربية مترجمة. وفي بعض الأيام لم يعد يعرف بأي لغة يفكر. أما هذا المساء فلم يفكر بأي لغة.

رسم دونون الدكان المفرغ. المسامير في الجدار حيث كانت الأقمشة معلقة، والأثر الأغمق على الأرض حيث استقر النول سنوات طويلة، وإطار الباب وفيه المرأة ذات الثياب السود تنظر. عمل سريع، بلا تعليق، بلا تاريخ. وحين انتهى كان الجنديان قد مضيا بالعربة. ودخلت المرأة إلى الدكان وأغلقت الباب الداخلي.

بعد انتهاء القمع، استدعى بونابرت الأعيان الناجين وعلماء الدين الذين لم يشاركوا فعليًا في الانتفاضة ليُفهمهم ما ستكلّفهم أي محاولة تمرد جديدة.

ـــ لقد رأيتم ما يحدث. أحياؤكم المدمرة. زعماؤكم المعدومون. الأزهر المقصوف. إن تمردتم من جديد فسأسوّي المدينة كلها بالأرض.

ـــ هذه الثورة، تعلم أيها الجنرال، هذه الثورة تبيّن ذلك جيدًا، موقفنا لا يمكن الاستمرار فيه، قال مونج لبونابرت في المجلس الذي أعقب القمع. لا يمكن أن نحكم هذا البلد بالقوة العسكرية وحدها. ليس إلى ما لا نهاية، على أي حال. فالسكان معادون لنا، وسيظلون كذلك ما دمنا هنا محتلين أجانب.

انتهى ذلك المجلس متأخرًا. واستدعى بونابرت مونج صباح اليوم التالي، بعيدًا عن الضباط، في الفناء الداخلي لبيت مصادَر قرب ساحة الأزبكية. كانت هناك قهوة ومقعدان صغيران. وكان بونابرت واقفًا.

ـــ قلتَ إننا لا نستطيع أن نحكم بالقوة وحدها. ليكن. ماذا تقترح؟

لم يكن مونج قد توقع أن يُستشار في هذه المسألة. قال ما يراه مع ذلك.

ـــ مؤسسات. لا بيانات، بل مؤسسات! محاكم تقضي وفق قواعد معروفة، ومدارس، ثم ـــ وهذا هو الأهم ـــ نظام للملكية العقارية يحمي الفلاحين من التعسف. ما فعلته الثورة في فرنسا، لكن هنا.

ـــ في كم من الوقت؟

ـــ جيل على الأقل.

ـــ ليس لدينا جيل. لدينا ربما عامان.

ـــ إذن لا يمكنكم أن تحكموا هذا البلد. ليس حقًا. يمكنكم أن تحتلوه. وهذا شيء آخر...

نظر إليه بونابرت طويلًا.

ـــ سيكفي الاحتلال. لما أريد أن أفعله.

لم يسأل مونج عما يريد بونابرت أن يفعله.

وفي مساء ذلك اليوم كتب مونج في مذكراته. «يعلم بونابرت أنه لا يحكم. الاحتلال يُدار. والتمييز بين الأمرين لا يعنيه كثيرًا. أما أنا فيعنيني كثيرًا. ولا أزال لا أعرف إن كان يعني المصريين».

وفي الأسابيع التي تلت القمع، عاد إلى المدينة ضرب من الحياة الطبيعية الهشّة. فتحت الأسواق أبوابها من جديد. واستقبلت المساجد مصلّيها، إلا الأزهر الذي ظل مغلقًا. واستأنف الجنود الفرنسيون دورياتهم. وعاد العلماء إلى جولاتهم في المدينة بدفاترهم وأدواتهم.

أما العلماء فلم يعودوا يعيشون حضورهم في القاهرة بالطريقة نفسها. فوهم التعايش السلمي مع السكان لم يصمد أمام تلك الأيام الثلاثة. وظلوا يعملون، ويتردّدون على

الأسواق، ويلتقون ببعض وجهاء القاهرة، لكن تحت تهديد عنف يمكن أن يطلّ من جديد في أي لحظة.

كان دونون في أعين أهل القاهرة ما كان عليه دائمًا. فرنسيًّا، أي محتلًّا، أي عدوًّا محتملًا.

في الأسواق، كانت معظم الدكاكين قد فتحت أبوابها من جديد، وكان الصنّاع يعملون.

وفي زقاق خلف الأزهر، عثر دونون على كتّاب يستأنف تلاميذه دروسهم. أطفال جلسوا في حلقة حول شيخ هرم يقرأ بصوت عالٍ ويجعلهم يرددون وراءه. رفع الشيخ عينيه حين مرّ، ونظر إليه، ثم عاد إلى قراءته دون أن يتغير وجهه.

كانت أصوات الأطفال تتلو نصًّا لا يفهمونه على الأرجح بعدُ، بلغة ربما لم يعد آباؤهم يقرؤونها. وكان فانتور دو باراديس، المستشرق الذي عمل زمنًا طويلًا في موانئ المشرق وبلاد المغرب، قد قال له إن النقل يسبق الفهم. فالكلمات تدخل الجسد أولًا، ثم يأتي المعنى. أما الفعل نفسه فكان مفهومًا. وكان الدرس يستأنف عند الآية التي توقف عندها.

ستندمل المدينة على طريقتها، بإيقاع لا يتحكم فيه الفرنسيون ولن يفهموا منه إلا نصفه. أما الأطفال فكانوا يتلون دروسهم دون أن ينتظروا أن ينتهي المحتلون من قتالهم.

7 - أبو الهول والمقابر

في نوفمبر، نظّم دونون بعثة إلى أبي الهول. انطلقوا قبل الفجر ليصلوا مع ضوء الصباح المائل، الضوء الوحيد القادر على إبراز تفاصيل الحجر.

بدا أبو الهول في البداية كتلة. أشدّ ظلمة من الرمل وأكثر تماسكًا من الليل. ثم جاء الضوء من الشرق فبرز الرأس، بلا أنف، بعينين غائرتين. وكان التمثال، البالغ طوله ثلاثة وسبعين مترًا وارتفاعه عشرين، لا يزال مدفونًا حتى الكتفين. وتجلّى سطح الحجر الجيري بدرجاته. رمادي مائل إلى البيج حيث صقلت الريح الصخر، وأشدّ سوادًا في التجاويف حيث تراكم الرمل طبقات رقيقة. وكانت شقوق تجتاز الجبهة، تنزل من أعلى الجمجمة نحو الصدغين، بعضها عرضه عدة أصابع وبعضها بالكاد يُرى. ولم يكن الحجر متجانسًا. فقد تناوبت طبقات من الحجر الجيري الألين مع طبقات أصلب، راسمةً خطوطًا أفقية تخطّ الوجه. وظلت آثار الأدوات مرئية على الخدين، ضربات إزميل متكررة شكّلت المنحنيات وتركت أوجهًا منتظمة لم تمحُها التعرية بعد. وكان الرمل يصعد على امتداد الجنبين، مشكّلًا منحدرًا لطيفًا تعيد الريح تشكيله باستمرار، حبّة بعد حبّة.

وشدّت العين اليمنى انتباه دونون طويلًا. فقد نُحت الحجر الجيري غائرًا، وجُوّفت المقلة لتعطي نظرة لم تعد موجودة، وبقي الجفن العلوي مقروءًا تحت التعرية. أراد أحدهم أن ينظر هذا الرأس، وأن ينظر إلى مكان ما.

رأس مدار نحو الشرق، نحو النقطة بالضبط التي كانت الشمس تشرق منها.

— ليس هذا تمثالًا، قال دونون بصوت خفيض. إنه... كيف أقول، أداة. ساعة شمسية بحجم تلّة، وجهها هو مؤشرها. انظروا إلى أين ينظر عند الاعتدال. هندسة، والحق يقال، أكثر منها تعبّدًا. كان فولني سيحدثنا عن الأنف العريض والشفتين الغليظتين... لا أحسم في ذلك. لكن من نحت هذا الوجه كان يعرف كيف يقيس.

وبعد أن أنهت البعثة توثيق الموقع، اتجهت نحو سقارة. كانت المقبرة تمتد على عدة كيلومترات في الصحراء، مدفنًا من الدولة القديمة يرتفع فيه الهرم المدرّج، الأقدم بين ما شُيّد من الأهرام، بدرجاته الست وبارتفاع اثنين وستين مترًا. أمضوا هناك يومين. رسم دونون. وقاس جومار. وكان جوفروا يتفحص النقوش البارزة ليقرأ فيها ما لا تقوله النصوص. وكانت جدران المصاطب تحتفظ بألوانها في مواضع. فالأزرق المصري، تلك الصبغة المصنوعة من النحاس والكالسيوم التي كان الصنّاع يحضّرونها بالصهر، ظل باقيًا في التجاويف المحمية من الضوء. ولون المغرة الأحمر لأجساد الرجال، والأصفر لأجساد النساء، أعراف تصويرية تكررت على كيلومترات من الجدران الجنائزية. وكانت الكتابات الهيروغليفية محفورة غائرة ثم مطلية، كل علامة منقورة عدة مليمترات في الحجر قبل أن تُلوَّن. وقد عمل الكتبة من اليمين إلى اليسار على هذه الأعمدة الرأسية، وأخطاؤهم ظاهرة أحيانًا حيث مُحيت علامة ثم أعيد نقشها منزاحة قليلًا. وكانت مشاهد الحياة اليومية تنبسط في سجلات متراكبة. في الأعلى الأنشطة النبيلة، من استقبالات واحتفالات وقرابين؛ وفي الأسفل عمل الحقول والجزارة والخبز. وكان جوفروا قد جثا أمام لوحة تمثل صيادين يسحبون شبكة. وكانت الأسماك قابلة للتمييز بأنواعها. القشر البياض، والبلطي، والبوري.

أما جوفروا فلم يكن يرى سوى الحيوانات.

— أبو منجل. تمساح. فرس نهر... وهناك، أسود. نعام. عدة أنواع لم نعد نجدها في مصر — في زمن الفراعنة كانت لا تزال تعيش فيها. تغيّر المناخ. أو الصيد.

نزلوا إلى الآبار بالمشاعل. عشرين مترًا، ثلاثين مترًا تحت الصحراء. وكان النزول عبر درجات منحوتة في الصخر، غير منتظمة، صقلتها آلاف السنين من العبور. وكانت جدران البئر تضيق كلما نزلوا، ودائرة ضوء النهار تصغر فوق رؤوسهم حتى لم تعد سوى نقطة بيضاء في العتمة. وكان الهواء يزداد كثافة. وكانت ألسنة المشاعل ترتجف في تيارات الهواء الضعيفة التي ما زالت تجري بين السطح وهذه الحجرات العميقة. وكانت الرائحة تمزج ملح البارود وغبارًا معدنيًا ونفحة

حيوانية. وكانت جدران البئر تحمل آثار الحفر، ضربات رأسية تنزل في أشرطة متوازية. وقد احتاج حفر هذه الآبار إلى شهور، وربما إلى سنوات. فرق من العمال تعمل في الظلام، تصعد بالأنقاض سلة بعد سلة. ولم تكن الحجرات الجنائزية كبيرة، ثلاثة أمتار في أربعة على أبعد تقدير، تكفي بالكاد للتابوت والقرابين. وكان السقف المنخفض يجبر المرء على حني رأسه، ودخان المشاعل يتجمع فيه. وكانت شظايا الفخار تغطي الأرض، حطام تركه اللصوص. وعلى الجدران كانت تجري النقوش الهيروغليفية والرسوم الجدارية، رحلة الميت مخطوطة على الصخر.

وبين إقامتين في سقارة، عاد دونون بضعة أيام إلى القاهرة. وكان يعرف في الحي القبطي ورشًا للنسّاجين يتردد عليها بانتظام.

كانت التقنية بسيطة وقديمة. نول يدوي، ومجموعتا خيوط رفع متناوبتان، والمكّوك يمر بين الخيوط. وكان صوت النول يملأ الورشة، فرقعة منتظمة للمشط الذي يرصّ خيوط اللحمة، وصرير أدوات الرفع حين يحرّك النسّاج الدواسات. وكان الصوف يحتفظ بدهنه رغم الغسل، وتمتزج رائحته برائحة الأصباغ النباتية التي تجفّ في جرار مصفوفة على الجدار. وكانت الشلل معلقة في عوارض السقف، مصنفة بحسب اللون. الأزرق العميق للنيلة، والأحمر القرمزي للفوّة، والأصفر المخضرّ للسنا. وفي ركن، كان صبي يحضّر حمّام تثبيت، يذيب الشبّ في الماء الساخن لتثبيت الألوان على الألياف. ولم تتغير العملية. نقع في المثبّت، وعصر، ونقع في الصبغة، وشطف في النيل. الحركات نفسها كما في العصر الفرعوني. صوف وكتان منسوجان بزخارف هندسية، معينات وزخارف مُسنَّنة وصلبان متفرعة، وزخارف زهرية مجرَّدة.

وكان دونون قد قارن نسيجًا قبطيًّا معاصرًا برسوم جداريات سقارة، مقابر كبار الشخصيات في الدولة القديمة. وكانت زخرفة المعين المنقوش داخل دائرة متطابقة، وكذلك الجمع بين الصوف والكتان وعرض النسيج، نحو ستين سنتيمترًا.

أربعة آلاف عام تفصل الجدارية عن النسيج، ولم يتغير العرض بمقدار إصبع.

اشترى عدة قطع. شظايا من نسيج قبطي، بعضها لا يزال يحمل في حاشيته رسوم الصيد البري أو صيد السمك. هيئات جامدة، وملامح جانبية واضحة، الأسلوب الكهنوتي للفن الشعبي المصري الذي عبر المسيحية والفتح العربي دون أن يتحول جوهريًّا. ولفّها النسّاج في قطعة كتان.

وفخارًا أيضًا. أمفورات بعروتين، وجرارًا ضيقة العنق، وكؤوسًا ذات قاعدة، مصنوعة من طين النيل نفسه ومخبوزة في الأفران نفسها. وحين سُئل الفخّاري هزّ كتفيه. كان أبوه يدور بها هكذا، وأبو أبيه من قبله.

وكان برتوليه قد حصل على أربع مومياوات بشرية من سقارة.

لم تكن الأجساد ما يهمه، فالطب سيدرسها. كانت تهمه كيمياء راتنجات التحنيط. تلك المواد السوداء اللامعة التي تتخلل لفائف الكتان كانت مزيجًا من مواد عضوية أراد تحديد مكوناتها.

وعند عودته إلى القاهرة، أذاب عينات مكشوطة، وحلّ أخرى في الكحول، وحلّل الأبخرة، ودوّن درجات الانصهار. وكانت الأدوات مصفوفة على طاولة عمله. إنبيق من زجاج البندقية، وموازين حرارة زئبقية، وموازين دقيقة محمية تحت ناقوس. وكان يعمل على ضوء أربع شمعات مرتبة في مربع، لا ترتجف ألسنتها حين يأخذ قياساته. وكانت عينات الراتنج مصنفة بحسب المومياء، موسومة باللاتينية، محفوظة في قوارير مسدودة بالشمع. بعضها أسود عميق، وبعضها بني محمرّ، وبعضها الآخر شبه شفاف. وكان يأخذ قطعة بملعقة صغيرة، ويضعها في بوتقة، ويسخنها ببطء مدوّنًا درجة الحرارة التي تغيّر عندها المادة حالتها. كان الراتنج يلين أولًا، ثم يذوب، ثم يدخن فتنبعث منه رائحة لاذعة لخشب محترق وزفت. وكانت الأبخرة تُجمع في أنبوب مبرّد تتكثف فيه قطيرات زيتية. راتنج البطم، وشحم حيواني، وشمع النحل، والنطرون، وقار اليهودية. كان المزيج يختلف من مومياء إلى أخرى. أما المنطق فلا، أبدًا. لم يكن شيء مما يسبب العفن ليبقى فيها.

في الثالثة صباحًا، رفع عينيه من سجله نحو الأجساد الأربعة الممددة على طاولاته.

كان هؤلاء الناس قد ماتوا منذ آلاف السنين. وربما كانت أسماؤهم على نقوش توابيتهم. وما بقي منهم هو أجسادهم المحفوظة.

كان في هذا الدوام شيء يزعجه. لا شيء ميتافيزيقيًّا، فبرتوليه كان ماديًّا، بل قلق عالِم. فقد حلّ هؤلاء المحنّطون مسألة في الكيمياء العضوية بالملاحظة، وبالتجربة، وبنقل التقنيات من جيل إلى جيل، قبل أكثر من أربعة آلاف عام من أي نظرية. وبرى قلمه.

ودوّن في تقريره. «تشكّل تقنيات التحنيط المصرية مجموعة من المعارف الكيميائية التجريبية بلغت درجة رفيعة من الإتقان، وقد يتيح درسها المنهجي معلومات عن خصائص حافظة لا تزال غير معروفة بما يكفي».

وفي سقارة، كان جوفروا سانت هيلير قد استكشف مع دونون محيط مقبرة الحيوانات المقدسة، حيث قيل إن ثيران أبيس المكرَّسة لبتاح ترقد. وكانت شظايا من الغرانيت ظاهرة في الأنقاض. وتوقفوا أمام شظية من الغرانيت الأسود.

كتب دونون هذه الأسطر. «لقد ترك اللصوص القدامى هذه الكتل. وهنا نشبههم. هم أخذوا ما ظنوه كنوزًا. ونحن نأخذ ما نظنه معرفة. وبعد ألفي عام، إن نزل أحد

إلى هنا بفانوس، فسيرى الأغطية مكسورة كما هي. وسيتساءل، كما أتساءل أنا الآن، ما الفرق بين لصّ وعالِم في دهليز مظلم».

وعند قدميه، بين الشظايا المتناثرة في الغبار، كانت قطعة لا تزال تحمل علامتين هيروغليفيتين محفورتين غائرتين، طائر وخط منكسر. فالتقط القطعة ودسّها في جيبه.

في تلك الليلة، فيما كان دونون يعود إلى المصطبة التي ينامون فيها، كان سوق سقارة لا يزال يعمل في العتمة. فانوسان فقط، موضوعان على الرمل بين المعروضات. وكان فلاحون من القرى المجاورة ينتظرون جاثمين خلف حُصُرهم. وكان الجنود يأتون جماعات من اثنين أو ثلاثة، بلا سلاح. يزنون بأيديهم، ويساومون، وينصرفون ومعهم شيء ملفوف في سترتهم. كان هواء الليل باردًا بعد حرارة النهار. وكان الرمل لا يزال يحتفظ بشيء من الدفء، لكن ريح الصحراء كانت تحمل برد ساعات الليل العميقة. وكانت الأحاديث تدور بصوت خافت، مساومات تُجرى بعربية مكسّرة أو بالإشارات. وكان جندي يقرّب جُعَلًا من الفانوس ليفحص العلامات الهيروغليفية المنقوشة في أسفله. وكان آخر يساوم على ثمن تميمة من الفيانس، تمثال صغير فيروزي لأنوبيس برأس ابن آوى.

وكان برتوليه هناك أيضًا، جالسًا على مقعد مطوي كان يأمر بحمله من الإسكندرية. وأمامه طاولة ميدانية صغيرة مغطاة باستمارات اللجنة. وكان حسن يقدم له القطع واحدة واحدة بالمصباح. وكان برتوليه يفحص ويدوّن في سجله الرقم والوصف باللاتينية وموضع القطعة في الأثر وحالة حفظها. ست قطع هذه الليلة، منها ثلاثة جعلان ملكية، ولوحة كاتب من خشب الجميز، وتمثال صغير من الغرانيت، وإناء كانوبي من المرمر بغطائه على هيئة رأس ابن آوى. كتب «آثار راتنج أسود على العنق.» ثم توقف، ورفع رأسه نحو حسن.

ـــ ماذا تحوي هذه الجرّة، تلك ذات الغطاء على هيئة ابن آوى؟

ـــ المعدة، قال حسن.

ـــ آه. سأدوّن هذا أيضًا.

وكان برتوليه قد طلب مومياوات حيوانات من سقارة. وفي القاهرة، في مطلع فبراير 1799، جاءه الفلاحون بست منها. طائرا أبي منجل مقدسان، وقطتان، وتمساح فتيّ، وزبابة. ووضعها في القاعة الكبيرة التي خصّصها له المجمع مختبرًا. حلّل لفائف الكتان، المشرَّبة بمادة بنية عرفها قارًا ممزوجًا براتنجات نباتية. وكانت عينات قد أُخذت من حشو التجويف، نطرون وملح صخري ومساحيق معدنية. وكان النطرون هو ما شغله خاصة. كربونات الصوديوم المميّهة، الموجودة طبيعيًّا في بحيرات الصحراء غرب القاهرة. وكان قد قام فيها في يناير برحلة استغرقت

خمسة أيام مع الجنرال أندريوسي. بحيرات وادي النطرون. امتدادات بيضاء يتبلور على ضفافها هذا المسحوق القلوي الذي كان المصريون يجمعونه لتحنيط موتاهم.

وأثناء تحليله ذوبان النطرون في المياه الأجاجة للبحيرة، لاحظ ظاهرة غير متوقعة. فالتفاعل بين ملح البحر وكربونات الكالسيوم يمكن أن ينعكس بحسب الحرارة والتركيز. وكان كيميائيو عصره يظنون أن التفاعلات تسير دائمًا في اتجاه واحد، إذ يطرد الحمض الأقوى الحمض الأضعف. وبدأ برتوليه يدرك أن ذلك خطأ. وأن الأمر يتعلق بتوازنات.

وستتلقى باريس هذه الملاحظات. وسيلزم بعد ذلك أربع سنوات أخرى، وبحث *في الستاتيكا الكيميائية* الصادر عام 1803، لاستخلاص النظرية الكاملة.

أما مومياوات الحيوانات، فكانت تطرح على برتوليه سؤالًا آخر.

— طيور أبي منجل المحنّطة هذه هي طيورنا، ألقى جوفروا. أتذكرون ما كنا نقوله على ضفة النيل — أنهم كانوا يوقّرونها لأنهم يراقبون الطبيعة؟ ها هو ذا. لم تتغير في ثلاثة آلاف عام.

— متطابقة، صحّح برتوليه.

— هذا ما يقوله كوفييه. أنواع ثابتة منذ الخلق، والمومياوات تثبت ذلك. ولا تغيّر واحد.

— وماذا عن لامارك؟

— يقول لامارك إن ثلاثة آلاف سنة مدة أقصر من أن يظهر فيها تحوّل. وإن الأمر يتطلب زمنًا... هائلًا.

تناول برتوليه إحدى مومياوات أبي منجل بين يديه. كان الطائر متيبسًا، محفوظًا حفظًا تامًا، وريشه لا يزال ظاهرًا من خلال اللفائف.

— لن يستطيع أيٌّ منهما أن يثبت ذلك يومًا، قال برتوليه وهو يعيد المومياء إلى موضعها. سيلزم أن نعيش مدة أطول مما نستطيع.

وخلال إقامة نوفمبر، قضوا ليلتين كاملتين في سقارة، ينامون في أطلال مصطبة ليكونوا في المكان منذ الفجر. وكان الهرم المدرّج يقوم في وسط هذا المشهد الجنائزي.

— أقدم من أهرام الجيزة بقرن، قال جومار الذي قاطع بما استطاع شذرات التسلسل الزمني الملكي المتاحة للعلماء. تقريبًا. هنا كانوا لا يزالون يبحثون عن الشكل. وفي الجيزة وجدوه.

وكان للدرجات المتراكبة شيء من زقورة بلاد الرافدين، كأن شعبين، دون أن يعرف أحدهما الآخر، خطرت لهما الفكرة نفسها، أن يكدّسا ليصعدا نحو السماء.

قضى دونون الليلة الثانية في نسخ مشاهد مصطبة أحد كبار الموظفين. كانت هذه النقوش البارزة تصوّر أنشطة الحياة اليومية — صيد السمك والقنص والأعمال الزراعية والجزارة وصناعة الجعة — بدقة كانت تخدم علماء الطبيعة في اللجنة بقدر ما تخدم الفنانين.

وفي عودته من سقارة إلى القاهرة، عرّج دونون على ضفاف النيل عند الغروب. كان الضوء مختلفًا في تلك الساعة. برتقاليًّا كثيفًا، يكاد يكون سميكًا فوق الحجر. جلس على كتلة من الحجر الجيري عند حافة الماء وحاول أن يرسم النهر في مواجهة الضوء. كان التمرين صعبًا. فالضوء يتحرك بسرعة كبيرة.

لحق به جومار وانتظر حتى ينتهي. فلا أحد كان يكلّم دونون حين يرسم.

— أفكر من جديد في ذلك القرن، قال جومار حين أعاد دونون قلمه إلى مكانه. محاولة من جهة، وكمال من الجهة الأخرى. مئة عام. كيف يتقدم المرء بهذه السرعة؟

— السرعة... لستُ متأكدًا من أن المسألة مسألة سرعة. أظن أن المصريين كانت لهم طريقة مختلفة في تصوّر الزمن. القرن بالنسبة إلينا طويل. أما بالنسبة إليهم فلعله لم يكن سوى الوقت اللازم للتعلّم.

عادوا إلى القاهرة في الظلام، تهديهم أضواء المآذن. وكانت كلاب الصحراء تنبح من بعيد. وفي مكان ما من أزقة الحي القبطي، دقّ ناقوس كنيسة معلنًا الساعة.

8 - المناقشات العلمية

شهدت جلسة 16 نوفمبر مواجهة بين مونج وفوريه. أراد مونج أحجامًا وزوايا، وأراد فوريه سياقات ودلالات. وكان بونابرت، نائب رئيس المجمع، يحضر الجلسة، فحسم الأمر بأن أنصف كليهما، وهذا يعني ألا يحسم شيئًا.

— العلم الحقيقي، يا أصدقائي، هو القياس، قال مونج وهو يفتتح النقاش، ويداه مبسوطتان على الطاولة. أبعاد الهرم وحجمه ونسبه، هذا هو الجميل! أما الأساطير التي تحيط به... فلندعها للشعراء. الوصف والدلالة علمان مختلفان. ونحن هنا من أجل الأول.

— الأهرام ليست مجرد أحجام تُحسب يا مونج، أجاب فوريه دون أن يرفع عينيه عن أوراقه. إنها مقابر ملكية، وأفعال إيمان بالخلود. وإذا لم تحتفظ منها إلا بالأبعاد، فأنت تصف الصندوق لا ما يحتويه. وأنت تخاطر... بأن تظن أنك فهمت لأنك عددت.

رفع بونابرت يده.

— أنتما محقّان كلاكما، قال وهو ينظر إلى أحدهما ثم إلى الآخر. سيحتوي المؤلَّف على الأمرين. قياسات مونج. أما المعنى، فسيجده فوربيه.

وشهدت الجلسة نفسها تقديم برتوليه بحثًا أول عن كيمياء النطرون في الصحراء المصرية. فقد حلّل عينات اشتراها من تجار القاهرة وحدّد تركيبها الدقيق.

— النطرون؟ خليط من الأملاح، لا أكثر. كربونات وبيكربونات وكلوريد الصوديوم. سبعون يومًا في هذا المسحوق، فتُمتصّ الرطوبة، ويجفّ الجسد دون أن يتعفن. بسيط جدًّا، وفعّال جدًّا. لا شيء معجزًا في ذلك، أخشى.

ثم عرض جوفروا سانت هيلير ملاحظاته عن طيور أبي منجل، الحية والمحنّطة، وقد عُثر على هذه الأخيرة بالآلاف في مقابر الحيوانات المقدسة قرب سقارة.

— نوع واحد من أبي منجل. قارنت المومياوات بالطيور الحية. إنه أبو منجل المقدس نفسه، الأبيض والأسود، الذي لا نزال نراه على ضفاف النيل. ثلاثة آلاف عام، ولم تتغير سمة واحدة. إن كانت الأنواع تتحول، فليس على هذا المقياس سنراه.

ثم جاء عرض لجان جوزيف مارسيل، المستشرق ومدير المطبعة الوطنية القائمة في القاهرة، عن تقدم الطباعة بالحروف العربية. فقد صارت طباعة *بريد مصر* تتم الآن بالفرنسية، ولا تُطبع بالعربية سوى البيانات.

— نستطيع أن نطبع بالعربية الفصحى، وبإتقان، أعلن. بيانات، ومراسيم، وإعلانات... بإمكان السكان أن يقرؤونا بلغتهم.

ثم تناول فوربيه الكلمة لدراسة عن توزيع درجات الحرارة في الصحراء المصرية، وهو موضوع أوحت به إليه ملاحظاته خلال المسيرات العسكرية. وكان تحليله لتدفقات الحرارة في وسط غير متجانس إرهاصًا بالأبحاث عن الحرارة التي سيجريها لاحقًا في فرنسا. وأُصغي إليه بانتباه أكبر لأن جميع من في القاعة كانوا قد عانوا الظاهرة في أجسادهم.

— حرارة الصحراء... ليست مجرد درجة حرارة الهواء، شرح فوربيه. إنها تدفقات. تبادلات بين الأرض والهواء والأجسام المعرّضة. أعتقد — بل آمل — أنه سيمكن يومًا ما التنبؤ بكيفية انتشارها في الزمان والمكان.

أما بونابرت فكان يهتم بالحرارة أقل مما يهتم بمشهد هؤلاء الرجال من تكوينات مختلفة اختلافًا جذريًّا — رياضيين وكيميائيين وعلماء طبيعة وفنانين ومهندسين — الذين ينجحون في الحديث معًا حول موضوع واحد، هو مصر.

— وماذا عن المصريين القدماء في كل هذا؟ سأل.

— لا شيء، بصورة مباشرة، أقرّ فوربيه. بحث لحظة عما يتبع. لكن بيئتهم، نعم. كيف كانت تعمل. ولكي نفهم لماذا كانوا يبنون بيوتهم على نحو معين، ويوجّهون

معابدهم وفق محاور معينة، ويحفرون قبورهم إلى أعماق معينة، لا بد من فهم القيود الحرارية التي كانوا يخضعون لها.

هنّأ بونابرت المتحدثين وحثّهم على المضي أبعد.

ـــ ممتاز، ألقى إلى الجمع. قريبًا صعيد مصر. طيبة، المعابد. وسيفتح دونون الطريق.

استوقف فوريبه دونون في رواق قصر حسن كاشف. وتحت ذراعه رزمة من المخططات التي أنتجتها اللجنة منذ الوصول إلى القاهرة. قياس الهرم الأكبر، ومخططات أبي الهول، ومقاطع مقابر سقارة. ثلاثة وثمانون لوحًا.

ـــ هذه المخططات، لاحظ فوريبه. هل ستحملها معك؟

ـــ هذا هو موضوع الحملة، قال دونون. *وصف مصر* لن يُنجز هنا.

ـــ أتحدث عن القطع. عن التماثيل الصغيرة التي تشتريها من سوق سقارة. عن التمائم في أمتعتك. نحن هنا لنفهم مصر، لا لنفرغها من بقاياها.

نظر دونون إلى رزمة المخططات بين يدي فوريبه. قياسات. مخططات. زوايا. كل هذا سيبقى هنا، في الحجارة، متاحًا لكل من يأتي ليقيس بعدهم. أما التمثال الصغير من الخشب الملوّن الذي اشتراه في سوق سقارة، ذاك الذي تقاطعت ذراعاه على صدره في هيئة أوزيريس، فلن يعثر عليه أحد هناك بعد ثلاثين عامًا. سيكون في باريس، أو ضائعًا.

ـــ الفرق بيننا نحن الاثنين، يا فوريبه، هو أنك تعتقد أن الفهم يكفي. أما أنا فأرى أن بعض الأشياء يجب أن تُرى لكي تُفهم. ولكي تُرى، يجب أن تسافر.

استعاد فوريبه رزمته وعاد إلى غرفته، على بعد بابين في رواق الطابق الأول. وبقي دونون في ذلك الرواق الخالي. نام متأخرًا في الغرفة التي يشغلها في القصر منذ الثورة. وفي صباح اليوم التالي، وجد على طاولة عمله *الأوشابتي* الخشبي الملوّن الذي كان يظنه محفوظًا في أمتعته، منصوبًا في مكان بارز، ووجهه مدار نحوه. لا بد أن فوريبه دخل أثناء الليل. فقد كانت عادته أن يتجول في القصر في ساعات غير معقولة حين لا تأتيه معادلاته. لكن على الأرض، أمام الطاولة مباشرة، كانت هناك حبة رمل. واحدة فقط، بارزة للعيان على البلاط اللامع. كأن فوريبه أراد أن يقول له إن هذا الرمل يأتي من مكان ما.

أو كأنه مجرد حبة رمل. ومع فوريبه لم يكن المرء يعرف قط أهي النية تسبق الحركة أم العكس. وبقي *الأوشابتي* على طاولته طوال اليوم.

وكانت جلسة نوفمبر 1798 نفسها قد شهدت أيضًا، على هامش البرنامج الرسمي، عرضًا غير رسمي لفانتور دو باراديس، المترجم الرئيسي للحملة، الذي كان يتكلم

العربية والتركية والفارسية والعبرية بطلاقة أهلها، ويقضي نهاره في الترجمة لبونابرت وليله في كتابة قاموس عربي-فرنسي لن ينهيه أبدًا. وسيموت بالزحار في سوريا، في عكا، في مايو 1799.

تناول الكلمة في آخر الجلسة.

— أودّ أن أعرض على المجمع ملاحظة. أو تعليقًا بالأحرى. منذ قرابة خمسة أشهر ونحن في مصر، تبدّى لي أمر شيئًا فشيئًا. إن العربية التي يتكلمها المصريون اليوم والعربية الفصحى التي نزل بها القرآن لغتان مختلفتان. لا أتحدث عن لهجات. إنهما نظامان متباعدان كتباعد لاتينية شيشرون عن فرنسية موليير. فالفلاح في الدلتا لا يفهم النص القرآني الذي يتلوه. إنه يتلوه صوتيًّا، دون أن يدرك معناه.

— ماذا يعني ذلك؟ سأل مونج.

— أن الإسلام في مصر هو، جزئيًّا... كيف أقول... دين لا يفهم أتباعه نصوصه المقدسة في صيغتها الأصلية. فالإيمان ينتقل بسلطة العلماء، وبالتقليد الشفهي، وبالطقس. لا بالقراءة المباشرة للنص. وهذا أشبه بما كانت عليه اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية قبل لوثر.

طرح بونابرت، الذي كان قد أصغى دون أن يتدخل، سؤالًا.

— والعلماء أنفسهم؟ هل يفهمون النص الفصيح؟

— أكثرهم علمًا، نعم. أما الباقون فيتلون كذلك. إنها سلسلة نقل، كل حلقة فيها تنقل ما تلقّته، لا ما فهمته بالضرورة.

دوّن دونون هذه الملاحظة في دفتره. كانت تلتقي مع مشهد رآه في زقاق الكتّاب القرآني بعد الثورة. أطفال يتلون عبارات ما زالوا على الأرجح يجهلون معناها، لكن صوتها وإيقاعها كانا قد صارا فيهم شكلًا من أشكال المعرفة. وفكّر في رسومه هو، في الأهرام التي نسخها قبل أن يفهمها، وفي أبي الهول الذي رسمه عند الفجر قبل أن يقيس معناه. هو أيضًا كان يبدأ بالخط. وخطّ تحت عبارة فانتور مرتين.

— بعبارة أخرى، لاحظ فوربيه كأنه يحدّث نفسه، ننقل أولًا، عن ظهر قلب. ويأتي المعنى بعد ذلك. أو لا يأتي. وهذا ليس بعيدًا جدًّا عمّا نفعله مع الهيروغليفية، أليس كذلك؟ إننا ننسخ علامات لا نفهمها... وربما قرأها آخرون بعدنا.

— مع فارق واحد، قال فانتور دو باراديس. الهيروغليفية لم يعد لها متكلمون أحياء. أما العربية الفصحى فلها. بين العلماء والفلاحين، بين النص والطقس، تبقى اللغة حيّة، على نحو مختلف عما خُلقت عليه. وجمع أوراقه.

في تلك الليلة، انتهت الجلسة متأخرة. كانت المصابيح قد خفت. وخرج العلماء إلى فناء المجمع حيث كان هواء نوفمبر منعشًا أخيرًا، وهو أول برد حقيقي منذ

وصولهم إلى مصر. توقف دونون لحظة في الفناء ورفع عينيه. النجوم فوق القاهرة. هي نفسها التي كانت فوق طولون قبل ستة أشهر، لكن النجم القطبي كان قد انخفض نحو الأفق.

غادر بونابرت المجمع بعد الجلسة برفقة برتوليه. وساروا بعض الوقت في حديقة القصر، والحصى يصرّ تحت أحذيتهم. تكلم بونابرت أولًا.

— قال لي مونج ذات يوم إن العلم يبحث عمّا هو حق بمعزل عمّا هو نافع. هل تعتقد ذلك؟

أخذ برتوليه وقته. أما السؤال فقد طرحه على نفسه طوال حياته، دون أن يحسمه أبدًا.

— أعتقد أن الفارق أقل وضوحًا مما يزعم. عملنا هنا حق. قياسات جومار، والتحاليل الكيميائية للمومياوات، ورسوم دونون. لكن ما نفعله هنا نافع أيضًا، لفرنسا، ولمعرفة أوروبا بمصر، ولك أنت سياسيًّا. الحقيقة والمنفعة لا تتنافيان. إنهما تسيران معًا، نادرًا في الاتجاه نفسه، لكن معًا. تردد، ثم أضاف :

— الشيء الوحيد الذي أرفض قوله هو أن ما نفعله غير مؤذٍ. هذا ليس صحيحًا. ومونج يعرف ذلك كما أعرفه.

لم يجب بونابرت على الفور.

— قال لي فوربيه هذا المساء إن أبحاثه في المعادلات لا تنطوي على أي تطبيق عسكري مباشر. ويبدو فخورًا بذلك.

— معه حق. بعد عشرين عامًا ستكون لأبحاثه تطبيقات لا يتصورها حتى الآن. العلم يسير في المقدمة. أما بكم... فلا يُعرف ذلك سلفًا أبدًا.

— طليعة إذن، لا تعرف لأي جيش تستطلع الأرض.

— تمامًا.

توقفا عند حافة الحوض في الفناء. لم يكن الماء يتحرك.

— واصلوا العمل، قال بونابرت. كل ما تنتجونه هنا سيبقى بعد الحملة، مهما حدث. وهذا هو اليقين الوحيد الذي أملكه في هذه اللحظة.

عاد برتوليه إلى مختبره واستأنف تحاليله.

كان قد قال لبونابرت جملة في تلك الليلة، قبل أن ينصرف. جملة تكاد تخلو من النبرة، كملاحظة كيميائي عن لون راسب.

— في إيطاليا، سنة 1796، كنا نختار ما يذهب إلى اللوفر. مونج يختار وأنا أصادق. كان لدينا وقت وقوائم ومفوضون. أما هنا فليس لدينا شيء من ذلك. حين

نرحل، سيكون ذلك على عجل. ما سيكون في الصناديق لحظة الرحيل هو ما سيرحل. والباقي سيبقى. لا ينبغي أن نوهم أنفسنا بغير ذلك.

في سنة 1796، في إيطاليا، كانت فرنسا هي التي تحمل. أما هنا فلا شيء يضمن أن تكون هي من يحمل بعد الآن. شطف برتوليه أنبوبة اختبار، ثم أخرى.

في الثالثة صباحًا، أشعل دونون مصباحه من جديد وتناول دفتره.

كان يقلّب الصفحات ببطء، دون أن يعيد قراءتها حقًّا. والرسوم تتوالى. أشرعة الأسطول في مرفأ طولون، وميناء فاليتا من على سطح *الجونون*، وعمود بومبي في الإسكندرية، وظهور الجنود في الصحراء، والأهرام عند الغسق، تُرى من بعيد.

كانت لديه أيضًا قائمة أخرى لم يكتبها. أشياء فعلها دون أن يدوّنها. رسم آثارًا لا يمكن حملها، ورأى جنودًا يدسّون جعارين في جيوبهم دون أن ينبسوا، ورأى فلاحًا يشاهد *أوشابتي*ه يرحل، وفضّل ألا يدوّن ما قاله حينها. كانت تلك القائمة أطول من الرسوم الثلاثة والأربعين بعد المئتين. ولم يكن لها نهاية.

توقف عند أول بورتريه في الرحلة.

كانت صورة بونابرت. جانبه الأيمن، يضيئه نور الصباح على رصيف طولون، قبل دقائق من الإبحار. رسمه بسرعة من دون أن ينتبه الجنرال. نحو عشر ضربات من الفحم. القسمات النحيلة، والجبهة العالية، والذقن الممتد إلى الأمام في وقفة من ينظر إلى ما لم يوجد بعد.

تناول ورقة بيضاء ورسم بونابرت من الذاكرة. كما رآه في القاهرة في منتصف أغسطس، غداة نبأ أبو قير. الجانب نفسه، والملامح الأساسية نفسها. لكنه لم يعد الرجل نفسه. بحث عن الفرق بالفحم، ومحا بإبهامه، وأعاد من جديد.

ليست التجاعيد. فثلاثة أشهر لا تشيّب رجلًا في التاسعة والعشرين. وليس الهزال. فبونابرت كان نحيلًا دائمًا. ربما كان ذلك في توتر العنق. أو في طريقة انطباق الفك. كان رجل طولون ينظر إلى شيء لم يوجد بعد. أما رجل ما بعد أبو قير فكان ينظر إلى شيء فقده.

وضع دونون الورقتين جنبًا إلى جنب على مكتبه.

كان الرسمان متشابهين. ولم يكن مراقب متعجّل ليلحظ الفرق. الجانب نفسه، والوقفة نفسها، ويد الرسام نفسها. لكن الواحد بعد الآخر، لم يعودا يقولان الشيء نفسه.

كانت أول مرة منذ طولون يرسم فيها بونابرت في غيابه. فحتى ذلك الحين كانت رسومه للجنرال وثائق. وقفة القيادة، وإيماءة السلطة، والمشهد التاريخي الذي

ينبغي تثبيته قبل أن يمضي. أما هذا الرسم الليلي فكان شيئًا آخر. صورة بلا موافقة صاحبها، بلا شاهد، مستخرجة من الذاكرة لا من الواقع.

دسّ الورقتين معًا في الدفتر نفسه، إحداهما بعد الأخرى. طولون، ثم أبو قير.

هل كان لما تحويه هذه الدفاتر قيمة؟ بدا له السؤال الآن أقل بداهة مما كان عند الانطلاق. ففي طولون، حين صعد على متن *الجونون*، كان يعرف يقينًا لماذا هو هناك. ليوثّق حملة تاريخية، وليرى مصر قبل أن يراها سائر الأوروبيين، وليحمل إلى فرنسا صور عالم لا يزال مجهولًا. كان البرنامج كله يتّسع في سطر واحد.

وبعد ستة أشهر لم يعد متأكدًا. فقد رأى بؤس الجنود في الصحراء، وأهل الإسكندرية ينظرون إلى الجيش الفرنسي يمرّ باستسلام أناس رأوا أكثر مما يلزم فلم يعد يحرّكهم شيء، وثورة القاهرة وقمعها. رسم ذلك كله بالانتباه نفسه الذي أولاه للأهرامات والنقوش البارزة. ألم تكن رسومه، على غير إرادته، قطعًا من احتلال بقدر ما هي أرشيف اكتشاف؟

لم يحسم هذا السؤال في تلك الليلة. ولن يحسمه كتابه *رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر* هو الآخر.

أطفأ المصباح واستلقى في الظلام. من النافذة كانت النجوم فوق القاهرة هي نفسها التي رآها هيرودوت من ضفاف النيل، ونفسها التي استخدمها فلكيو الفراعنة لتوجيه منشآتهم، ونفسها التي رصدها البحارة الفرنسيون أثناء العبور من طولون. كان ذلك يواسيه قليلًا. كانت السماء المصرية تضيء الأهرامات ومعسكرات المبيت بلامبالاة واحدة. أغمض دونون عينيه. غدًا سيرسم من جديد.

الفصل الثاني : الصعود في النيل

1 - دندرة

مساء 16 ديسمبر 1798، غادرت فرقة ديزيه بني سويف متجهة نحو الجنوب. ثلاثة آلاف من المشاة، ومئتا فارس، وصعيد مصر كله ينتظر الفتح. وكان دونون، الذي غادر القاهرة في مطلع ديسمبر ليلحق بها، في الرحلة ومعه دفتره.

في مطلع ديسمبر، كان ديزيه قد مرّ بالعاصمة قبل أن يعود إلى بني سويف، واستقبله بونابرت.

— مهمتان. القضاء على مراد بك. وفتح صعيد مصر أمام العلماء. عاملهم كمتعاونين. ما سيأتون به يعادل انتصاراتك.

كان ديزيه في الثلاثين، عملي الذهن، لا ميل خاصًا لديه إلى الآثار. كان يفهم الأوامر، وهذا يكفي.

— سأحمي هؤلاء الرجال كما أحمي جنودي. لكن مراد بك لن يمنحنا هدنة، نبّههم. شهور، وربما حتى أسوان. وعلى علمائكم أن يتحمّلوا ذلك.

قبل أن يغادر دونون القاهرة ليلحق بالفرقة، بعد أيام قليلة من جلسة المجمع، كان بونابرت قد استبقاه لحظة. فتح درج مكتبه الميداني وأخرج منه وثيقة مطوية. القائمة ذات الصفحات الأربع التي كان قد عرضها على دونون قبل طولون، وقد استُكملت منذ ذلك الحين.

— هذا ما يجب أن يعود. ما تستحق فرنسا أن تحمله من هذه الحملة.

تصفّح دونون السطور الأولى. فئات وأوصاف. مسلات يمكن نقلها، وشظايا نقوش بارزة ذات جودة استثنائية، وبرديات موثقة، وجعارين ملكية، وبرونزيات من العصر المتأخر، ومومياوات لوجهاء يمكن تحديد هويتهم. وكانت كل فئة مشفوعة بملاحظة عن قيمتها المقدَّرة ووجهتها، اللوفر أو المكتبة الوطنية أو معهد فرنسا.

— فعلنا الشيء نفسه في إيطاليا، تابع بونابرت. مونج وبرتوليه يعرفان الطريقة. ما يعودان به مع استماراتهما يذهب إلى اللوفر. وما يأخذه الجنود في حقائبهم لا أستطيع منعه. وما توثّقه أنت بدفاترك يبقى في فرنسا بصورة أخرى. ثلاثة مستويات. ولكلٍّ منها شرعيته.

— وإن اختلطت المستويات؟

— هي تختلط دائمًا. لهذا ينبغي أن يكون المستوى الأول فوق الشبهات. فإن أدت اللجنة عملها بصرامة، صار الباقي محتملًا بالمقارنة. هذا هو منطق كل عمليات

الاقتناء التي قامت بها الدول منذ عصر النهضة. فرنسا لا تنهب. إنها تنتقي وتوثّق وتحفظ. الجنود هم الذين ينهبون. التمييز حقيقي وإن كان مزعجًا.

— وإن نازع فيه أحد؟

— لن ينازع فيه أحد ما دمنا نربح الحرب. وإن خسرناها، فلن يُطرح النقاش بالطريقة نفسها.

وضع دونون القائمة في حقيبته. أمر انتقاء، لا أمر نهب. كان يودّ لو أن الفارق يكفي. أما بونابرت، الذي كان وقته ضيقًا، فقد فتح باب مكتبه بالفعل، وخرج دونون دون أن يصوغ ما كان يريد قوله.

مساء الرحيل، سلك الرتل، وطوله فرسخ، الطريق جنوبًا على الضفة الغربية للنيل. كان الهواء باردًا في تلك الساعة، برد جاف بلا ضباب. وكان الغبار الذي تثيره الجنود يُرى من بعيد. وتقدّمت المدفعية محاذية الحقول المزروعة. وصهلت خيول الفرسان إذ أحسّت بالرحيل. وكان فلاحون واقفون على أسطح البيوت المستوية يراقبون مرورها دون حراك.

كان دونون يمتطي جواده إلى جانب ديزيه.

— بوكوك، نوردن... هل قرأتهما يا سيدي الجنرال؟ أوصاف تقريبية، ورسوم غير دقيقة. هذه المرة سنقيس.

— حماستك تعجبني. لكن أخبرني حين ترغب في الابتعاد عن الرتل. فمراد بك لم يتخلَّ بعد.

تنهد دونون.

— مفهوم يا سيدي الجنرال. سأرسم بسرعة. فهذا خير من لا شيء.

في الأيام التالية، كانت الحرارة ترتفع منذ الساعة الثانية من المسير رغم الشتاء. كان الشريط الأخضر على طول النهر لا يتجاوز عرضه بضع مئات من الأمتار، ثم تبدأ الصحراء، مباشرة ومطلقة. وكان الجنود يسيرون صامتين، والقربة في أيديهم. وكان دونون يرسم وهو يسير — رسومًا سريعة، وخيالات القرى، ونخلة، ومنظرًا جانبيًا لجرف كلسي — من دون أن يتوقف، ومن دون أن يضيّع الخطوة. وكان المماليك يضايقون ثم يختفون من دون أن يخوضوا معركة حاسمة. وإلى الجنوب أكثر، في أسيوط، ليكوبوليس القديمة، استكشف مقابر محفورة في الجرف الذي يشرف على المدينة، جدرانها مغطاة بالهيروغليفية وبزخارف على قدر من الدقة لم يرَ مثله في أي مكان.

كانت الألوان صامدة. أحمر المغرة، وأزرق الفريت المصري، وأخضر الملاكيت، وأصفر الزرنيخ. وقد جففت الصحراء الهواء من حولها. فتذكّر لوحات باريس، التي سوّدتها الورنيشات وأطفأتها قرون من الرطوبة.

رسم عددًا من هذه المشاهد خلال الساعات القليلة التي منحه إياها ديزيه قبل استئناف المسير. كانت رسومه سريعة. فقد تعلّم أن يلتقط الجوهر في عشر دقائق، تصلّب الأجساد، وحيوية ما كانوا يفعلونه.

وهكذا انتقل من مقبرة إلى أخرى بينما كان الرتل ينصب معسكر مبيته.

كان يرسم أثناء فترات التوقف، ومساءً تحت الخيام على ضوء المشاعل، والدفتر على ركبته. وكان الضباط قد اعتبروه في البداية عبئًا.

— عالِمك يصمد أفضل من مجنّديّ، قال ديزيه يومًا لأحد مساعديه وهو يشير إلى دونون جالسًا على صخرة أثناء استراحة الجيش.

— لأن لديه ما يفعله، أجاب المساعد.

في 25 يناير 1799، كان دونون من أوائل العلماء الذين رأوا دندرة، التي كان يكتبها تنتيرا. كان المعبد، الذي سيعدّه معبد إيزيس، قائمًا على حافة الصحراء، عند سفح السلسلة الليبية، وكتلته ظاهرة من بعيد في هواء صعيد مصر الجاف.

— انظر، قال دونون لبيليار، الذي كان قد أوقف جواده بجوار جواده. وخلف بوابة ضخمة نصف مدفونة تحت الأنقاض، ظهر المعبد.

ديزيه، الذي كان قبل ساعة قد ردّ بضيق على طلب التوقف، لم يقل شيئًا. لم يأمر أحد بالتوقف. فقد غادر الضباط والجنود الطريق من تلقاء أنفسهم. وبقوا حتى المساء. وأُقيم المعسكر في القرية المجاورة، دندرة، على بُعد ثلاثة أرباع الفرسخ من المعبد. وكان الفلاحون يراقبون من عتبات بيوتهم دون أن يقتربوا. كانوا قد رأوا أرتالًا أخرى تمر. وهذا الرتل كان يحمل رجالًا بأدوات قياس ودفاتر. ولم يكن ذلك أدعى إلى الطمأنينة.

دخل دونون أولًا. وعند العتبة عدّ أربعًا وعشرين عمودًا يبلغ ارتفاع كل منها نحو خمسة عشر مترًا، وتيجانها ذات رؤوس إيزيس — وهذا هو الاسم الذي سيطلقه عليها — تنظر في الاتجاهات الأربعة. أخرج دفتره، ثم أغلقه. من أين يبدأ؟ في مدن أوروبا كان يعرف ذلك دائمًا. أمام هرم، أو أمام عمود منفرد، لم يكن السؤال يُطرح أصلًا. أما هنا فكانت القاعة كلها تقوم على منطق واحد، وأي نقطة دخول ستكون اعتباطية. وانتهى به الأمر إلى مهاجمة أقرب عمود.

— رائع، همس بيليار خلفه. هذه الثنيات...

رسم دونون حتى آخر شعاع للنهار. أما جومار، المهندس الجغرافي في هيئة الأركان، فكان يقيس ما تسمح به الساعات. كان يدوّن الأبعاد والزوايا والاتجاهات. خمسة عشر مترًا لكل عمود، ووصلات دقيقة حتى إن شفرة سكين بالكاد تنفذ بينها.

والسقف قائم عليها. والجدران مكسوّة بالنقوش البارزة. وفي الطرف الآخر من القاعة، كانت يدا دونون سوداوين من الفحم.

— كيف فعلوا ذلك من دون أدواتنا؟ سأل جومار بصوت خافت.

— بالوقت. وباليد العاملة. وبتنظيم قادر على احتمال الجهد عقودًا متواصلة، أجاب بيليار. استغرق بناء هذا المعبد أجيالًا. كان المشروع ينتقل من الأب إلى الابن، كإرث مقدس.

— وكانوا يعرفون النجوم أفضل مما نعرفها نحن حتى الآن، تابع جومار مشيرًا إلى السقف الأسود من الدخان، حيث تُلمح أشكال سماوية. انظروا. هذه القبة خريطة لسماء الليل في مصر القديمة.

وفي وقت سابق من ذلك العصر، لاحظ جومار تفصيلًا لم يدوّنه في قياساته. فسجّله في يومياته الشخصية مساءً، تحت الخيمة.

كان ثلاثة جنود من كتيبة الطليعة قد قضوا بعد الظهر في القاعات الجانبية للمعبد. لم يكونوا في الخدمة. وعند عودتهم كان أحدهم يحمل في يده تمثالًا صغيرًا من الفخار المزجّج الأزرق. قطة جالسة، أذناها مدببتان، وعيناها مرصّعتان بزجاج أسود. كان يريه لرفاقه. وكانوا يضحكون.

راقبهم جومار وهم يمرون. كان عمر القطة الفخارية ألفين أو ثلاثة آلاف سنة. وكانت قد وُضعت في المعبد قربانًا نذريًا على يد حرفي لم يبقَ اسمه، لصلاة نُسي حتى مضمونها. وفي أقل من ثلاث سنوات ستكون في مرسيليا. كانت السلسلة قصيرة. ولم تترك أثرًا. فكّر جومار في الجاذبية، التي تُسقط الأشياء الخفيفة دائمًا نحو الأسفل. وهنا كان الأسفل هو الشمال.

وفي اليوم نفسه، في فناء المعبد، كان المواطن فاسور، عالم الرياضيات في لجنة العلوم والفنون الملحق بالفرقة، منهمكًا في عمله.

كان قد انتقى بعد الظهر ست قطع وفق فئات قائمة بونابرت. جعران، وتميمة من ذهب، وتمثال صغير لسخمت، كلها مطابقة لمعايير القائمة. لكن قطعتين خرجتا عن المألوف. لوح كاتب من خشب الجميز مع أقلامه القصبية لا تزال في أغمادها المصنوعة من القصب. ولأن الخشب قلّما ينجو، فقد كانت قطعة بالغة الندرة. وإناء كانوبي من المرمر بغطائه ذي رأس الصقر سليمًا، يمثل قبحسنوف، حارس الأمعاء. والقطع الست مصفوفة على الحجر، مرقّمة، ملصقة عليها بطاقاتها.

اقترب جومار من مدخل الفناء. كان فاسور يملأ استمارته في ضوء النهار، من دون عجلة، ومن دون أن يختبئ. وكان كل الفرق بينه وبين الجنود في تلك الورقة.

— أيها المواطن فاسور، قال جومار. هذه القطع... من الطراز الأول.

— بالفعل. لوح الكاتب لا نظير معروف له. والأقلام سليمة. وقد صمد خشب الجميز لأنه كان ملفوفًا في كتان وجدته في حجرة جانبية من الكوّة. ألفان وخمسمئة عام من الحفظ في ظروف مثالية.

واصل الكتابة، وأنفه على ورقته. كتابة عالِم، دقيقة، مختصرة، بلا زخرف.

— الإناء الكانوبي سيهم الكيميائيين لتحليل راتنجات التحنيط، تابع. أخذت شظية من طبقة الراتنج الداخلية. ستجد رقم هذه العيّنة تحت المرجع مئة وأربعة عشر ب في سجل اللجنة.

دوّن الرقم السادس على استمارته، ووقّع، ومزّق القسيمة وناولها لجومار.

— سجل اللجنة، قسم المقتنيات الرسمية. إن شئت نسخة لملف قسمك.

تناول جومار الورقة. كان الشكل لا غبار عليه. طواها شطرين ودسّها في حقيبته الخاصة.

جاء رجل من القرية ليراقب جومار أثناء قياساته. وظل حسن، المترجم الذي استقدمته اللجنة من القاهرة، بعيدًا. وبعد لحظات مضى الرجل.

عاد قبل غروب الشمس، وجلس مستندًا إلى عمود، وراقب جومار وهو يعمل ساعة. ثم انصرف، وظهر بعد قليل ومعه إناء صغير من الفخار المحروق مملوء بماء عذب. وضعه إلى جانب أدوات جومار.

شرب جومار. كان الماء باردًا، فيه معدنية خفيفة. وقال شكرًا بالعربية. إحدى الكلمات القليلة التي تعلّمها. وتبادلا بوساطة حسن بضع جمل.

كان الرجل يعرف أسماء الأعمدة. لا الأسماء التي كان العلماء ينسبونها إلى آلهة المكان — إيزيس وأوزيريس وحورس — بل أسماء عربية متوارثة من الآباء إلى الأبناء منذ أجيال. فعمود الزاوية الشمالية الشرقية كان يُسمّى في القرية «العمود الذي ينزف عند الفيضان»، لأن شقًّا في الحجر الكلسي كان يسيل منه أحيانًا ماء مائل إلى الحمرة محمّل بالحديد أثناء فيضانات النيل. وكان العمود الأوسط يُسمّى «عمود الصوت»، لأنه إذا ضُرب بالكف المفتوحة عند ارتفاع معين أصدر صوتًا غليظًا ينتشر في القاعة كلها.

دوّن جومار الاسمين. كان يعلم أنهما لن يردا في *وصف مصر*. لم تكن لهما قيمة قابلة للقياس. لكنهما كانا يقولان ما لا تقوله قياساته، أي أن هذا المعبد يسكن منذ زمن بعيد ذاكرة القرية. لم يكن طللًا. كان جارًا.

بعد أربعة أشهر، في مايو، كان على دونون أن يعود إلى دندرة. كان سيغادر آنذاك قنا، حيث أقامت الفرقة مقارّها، مع حرس من ثلاثين رجلًا، وشمعة، ودفاتره. كان يريد أخيرًا أن يرسم زودياك المقصورة العلوية، الذي لم يفعل سوى أن لمحه عند غسق يناير.

كانت مقصورة أوزيريس، وهي قاعة صغيرة يُصعد إليها بدرج مبني في سُمك الجدران، تشغل سطح المعبد. كان السقف منخفضًا، ولم يكن ضوء الشمعة البرتقالي يكفي. تمدّد على الحجر البارد. وفوقه، منحوتةً في الحجر الرملي، كانت تمتد خريطة السماء، قرص منقوش في كتلة طول ضلعها مترانِ ونصف المتر. في وسطه الكوكبات القطبية، الدب الأكبر على هيئة ساق أمامية لثور، وإلهة فرس نهر تشهر حربة. وعلى المحيط البروج الاثنا عشر الإغريقية ممتزجةً بالأيقونوغرافيا المصرية، مع الحمل والثور، وكذلك الدلو مصوَّرًا في هيئة حابي، الإله الذي يغمر الأرض بالفيضان، وهو يحمل إناءين يتدفق منهما النيل.

لم يكن بالإمكان نقل هذا السقف كما هو. عدة أطنان من الحجر الرملي مدمجة في العقد. وقبل الرحيل، في قنا، كان دونون قد عرض المشكلة على جومار، أكثر عقول هيئة الأركان ابتكارًا. وكان جومار قد رأى الزودياك في يناير بعين التقني لا بعين الفنان.

— إنه ممكن، كان قد قال وهو يبسط رسم دونون. لكن ليس بما نملكه. نحتاج إلى مناشير بأسنان من الفولاذ المقسّى، ورافعات لولبية، وجيرٍ حيّ، وهيكل رفع ارتفاعه عشرون مترًا. ستة أسابيع من العمل على الأقل، بعشرين رجلًا. وسفينة مجهزة خصيصًا لنقل الكتلة. عدة أطنان، ولا تكفي العنابر العادية.

— وهل تستحق النتيجة هذا الجهد؟

نظر جومار إلى الرسم مرة أخرى، وعيناه تجوبان القرص من كوكبة إلى كوكبة.

— إنه أكمل تمثيل للسماء القديمة رأيته في حياتي. نعم، يستحق الجهد. لكن ليس الآن. ربما بعد ثلاثين عامًا، إن عاد أحد ومعه العتاد والوقت.

دوّن دونون الحديث في مذكرة موجهة إلى هيئة الأركان العلمية. كانت أول وثيقة رسمية تذكر إمكانية انتزاع زودياك دندرة. وستسافر هذه المذكرة إلى القاهرة، وتنام في صندوق، تنتظر وسائل لم يكن الجيش يملكها.

رسم ساعتين وهو مستلقٍ على ظهره. انطفأت شمعته، فأشعل أخرى. وحين نزل كان الليل قد أقبل، وكان الجنود ينفد صبرهم منذ ساعة.

— هل حصلتم على ما أردتم؟ سأله ملازم ثانٍ.

— رسم أولي. غير دقيق في بعض المواضع، أخشى ذلك. أما المسح الحقيقي فسيلزمه أيدٍ أخرى.

أشار دونون إلى هيئة الأركان العلمية بضرورة إرسال مهندسين لإتمام عمله. وسينجز المسح شابان من خريجي البوليتكنيك، جوليوا وديفيليه، من بعثة كبير المهندسين جيرار، وكان أولهما موجودًا أصلًا في صعيد مصر، بأدواتهما الدقيقة.

لكن الأمر لم يكن سوى المساء الأول. في ذلك اليوم، 25 يناير، احتاج جومار إلى تسوية مشكلة تتعلق بمصادرة حصص التموين. فبحث عن الرقيب الأول أوبير، الرجل الذي يدير مؤن كتيبة الطليعة. ووجده في خيمة بعيدة عن المعسكر الرئيسي، جالسًا إلى طاولة صغيرة أمامه فانوس ودفتر.

كان أوبير يمسك قائمة مقسمة إلى ثلاثة أعمدة عناوينها الغرض والسرية والجندي. وكانت السطور متراصة. قرأ جومار من موضعه دون أن يبدو عليه ذلك، وحفظ هذه السطور. «تمثال صغير من حجر أزرق، السرية الثانية، راسين. شظية من نقش بارز، السرية الثالثة، دوبليسي. جعران من الفخار المطلي، السرية الأولى، مارين. إناء فخاري ملوَّن، السرية الرابعة، لوفيفر.» كان فيها أكثر من ثمانين سطرًا.

لم يبدُ على أوبير أنه فوجئ بأن أحدًا يراقبه.

— أيها المواطن العالم. هل أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلكم؟

— كنت أبحث عن حصص إضافية لأعمال القياس. الأمر ليس عاجلًا.

لم يسأل جومار عن القائمة. كان يعرف ما هي، جردًا غير رسمي، لم يأمر به أحد ولم يمنعه أحد، يحتفظ به ضابط صف أدرك أن شيئًا ما يتداول في كتيبته، وقرر أن يعرفه، احتياطًا. فلو سأل أحدٌ لاحقًا، عرف أوبير كيف يجيب. وإن لم يسأل أحد — وهو الأرجح — بقيت القائمة في دفتره.

سوّى مسألة الحصص في ثلاث جمل ومضى.

في تلك الليلة، لم يُخرج جومار قياساته في صيغتها النهائية. انصرف إلى شيء آخر.

بدأ بما يعرفه على وجه اليقين. كانت قائمة الرقيب الأول أوبير تحوي، للسرية الثانية وحدها، ثلاثة وعشرين غرضًا في يوم واحد. أربع سرايا في الكتيبة، وأكثر من ثمانين سطرًا في القائمة للكتيبة الطليعية وحدها. وكتيبتا مشاة تتناوبان على المعبد. يضاف إليهم الضباط، الذين يأخذون بطريقة مختلفة، بانتقاء أكبر وكمية أقل، لكن بقطع أعلى قيمة. ويضاف إليهم ما حصّله فاسور رسميًا. ست قطع موثقة، وربما غيرها دون توثيق رسمي.

وضع تقديرًا. افترض افتراضًا متحفظًا قدره عشرون غرضًا لكل سرية في عصر التوقف. أربع سرايا. كتيبتان. فكانت النتيجة مئة وستين غرضًا على الأقل لهذا المعبد وحده. وإذا أضيفت المشتريات من الأهالي وما كان الضباط يجمعونه خفية، اقترب العدد من المئتين.

مئتا غرض تغادر دندرة. تأمل الرقم. ثم نظر إلى المعبد، الظاهر في الليلة الصافية على بعد ثلاثة أرباع الساعة سيرًا من المعسكر. كان المعبد هائلًا. ومئتا غرض ليست سوى جزء مما لا يزال يحويه. لكن الحساب الصحيح هو عدد التوقفات في عدد المعابد، مضروبًا في مئتين.

كان هناك اثنا عشر موقعًا كبيرًا على الأقل بين دندرة وأسوان. كتب هذه السطور أسفل الصفحة. «المجموع التقديري، الحملة بأكملها، ما يقارب ألفين وخمسمئة غرض. حدّ أدنى. غير قابل للتحقق.»

ثم توقف عند ما كتبه للتو. ألفان وخمسمئة. لم يكن الرقم على الصفحة يزن شيئًا. ومع ذلك كان يشير إلى ألفين وخمسمئة غرض ظلت في معبد أو مقبرة مصرية منذ قرون، ولن تكون هناك بعد ستة أشهر.

وبينما كان يحمّل البغال، بحث بعينيه عن الجندي الذي كان يحمل القط الفخاري المطلي في يده. لم يجده بين آلاف الوجوه. الرجل موجود. والقط موجود. في مكان ما داخل رقم الألفين والخمسمئة هذا.

قبل مغادرة دندرة، ذهب جومار للقاء فاسور.

كان فاسور يشرف على دقّ مسامير صناديقه. توقف، ومسمار بين أصابعه.

— أيها المواطن فاسور. أجريت تقديرًا. حجم ما أُخذ، من هذا المعبد ومن الحملة التي تليه.

مدّ إليه الدفتر مفتوحًا على صفحة الحساب. قرأه فاسور. وأخذ وقته في التحقق من الفرضيات، وأعاد العمليات الحسابية في ذهنه.

— حدّكم الأدنى معقول، قال أخيرًا. مع تقدير ناقص قليلًا لما يخص الضباط.

— ألا ترون هذا الرقم إشكاليًا؟

أعاد فاسور إليه الدفتر.

— أراه رقمًا دقيقًا، أو قريبًا من الواقع. إشكاليًا بالنسبة إلى من؟ إلى اللجنة؟ لا. فمقتنياتنا موثقة. إلى الجيش؟ هذا أمر يحكم فيه ديزيه. إلى هذا المعبد؟ بلا شك. لكن الإغريق أخذوا منه، والرومان كذلك. لسنا الأوائل، ومصر ما زالت هنا.

— هذا ليس مبررًا.

— لا. إنه سياق. وفي هذا السياق، السؤال الوحيد هو معرفة ما إذا كان ما نفعله نحن — اللجنة — يمكن الدفاع عنه. أظن ذلك. أما ما عدا هذا فلست شرطيًا ولا قاضيًا.

— أنتم عالم رياضيات. وعالم الرياضيات لا يقول إن الحساب يمكن الدفاع عنه. بل يقول هل هو صحيح.

— وحساباتنا صحيحة، أجاب فاسور، وقد عاد إلى صناديقه. أرشيفات، وأوصاف، وقطع للّوفر.

— هذا ما طلبه بونابرت. وليس ما كنت لأطلبه أنا.

في اليوم التالي، عند الفجر، أشار ديزيه بالرحيل. جمع جومار أدواته. والتفت دونون طويلاً نحو المعبد.

— إن عدنا يومًا في سلام... قال جومار. ستة أشهر. هذا المعبد يستحق ستة أشهر وحده.

لن يعود جومار إلى هنا. أما دونون فلن يمرّ بها ثانية إلا في مايو، لأيام قليلة لا غير. وستبقى رسومهم.

كان الطريق إلى طيبة يسير بمحاذاة النيل يومين. وفي المساء، في المعسكر، بدأ الضباط يتحدثون عن المعابد التي سيرونها. الكرنك. الأقصر. كانت الأسماء تنتقل من موقد إلى موقد، أسماء سُمعت طوال العمر.

2 - طيبة

في مساء 27 يناير، في آخر النهار، خرجت فرقة ديزيه إلى أطلال طيبة. توقف الجيش من تلقاء نفسه. ولم يتسنَّ لدونون في تلك الليلة إلا أن يرسم وهو على صهوة حصانه. أما الباقي فسينتظر النهار.

نزل جومار إلى الضفة ولم يبرحها، وعيناه على الصروح السوداء في ضوء الغروب، على الجانب الآخر من النيل.

في اليوم التالي، وبعد أن عبروا النهر في قوارب مصادَرة، اكتشفوا الكرنك، وكان يفوق كل ما تخيلوه. كانت قاعة الأعمدة في معبد آمون رع تضم مائة وأربعة وثلاثين عمودًا، اثنا عشر منها في الوسط يبلغ ارتفاع الواحد منها واحدًا وعشرين مترًا. عبر جومار العتبة وتسمّر في مكانه دقائق عدة. كانت مساحة هذه القاعة نحو خمسة آلاف ومائتي متر مربع، وهي من أكبر الفضاءات المسقوفة في العصور القديمة.

— لن أرسم هذا أبدًا، تمتم دونون. لن يستطيع أحد.

في الليلة التي تلت يومه الأول في الكرنك، جلس جومار في فناء المعبد ومعه فانوسه، وشرع يرتب الأرقام. لم تكن القاعة قد شُيّدت بهذا الاتساع لمجد فرعون وحده. كان لا بد أن تتسع لموكب وحشد وطقس. وكان كل بُعد فيها يستجيب لقيد صوتي أو ضوئي أو شعائري.

جاءت مذكرته في بضع جمل. «يوحي انتظام النسب في هذه القاعة بنظام قياس انتقل عبر أجيال عدة بدقة مطلقة. طول القاعة يساوي تقريبًا ضعف عرضها. والمسافة بين الأعمدة الوسطى تطابق قطرها. هذه النسب ليست عرضية.»

في الخارج، نبح ابن آوى في مكان ما من الصحراء. كانت النجوم فوق الأعمدة شديدة اللمعان.

ثم، وهو يدير جهاز الثيودوليت ليدوّن سمت نجم مرجعي، أدرك شيئًا لم يكن ينوي إدراكه. لم يأتِ الفهم في ختام برهان. جاء دفعة واحدة، يكاد يكون دوارًا، كما حين ينتهي حساب طويل إلى عدد مستدير فيعرف المرء، قبل أن يتحقق، أنه صحيح.

كان المحور الرئيسي للمعبد، المحور الواصل بين المدخل وأعمق مقصورة مقدسة فيه، موجهًا بزاوية ست وعشرين درجة إلى الجنوب من الشرق. تحقق من الحساب مرتين. ست وعشرون درجة. كان هذا الرقم في قياساته منذ الصباح، مدوَّنًا آليًا كمعطى بين معطيات أخرى. أما الآن، في العتمة، والنجوم ظاهرة فوقه، فقد عرف ما يعنيه هذا الرقم.

كان سمت شروق الشمس في الانقلاب الشتوي عند خط عرض طيبة.

لم يتحرك طوال ثوانٍ عدة. لم يكن أحد، على حد علمه، قد صاغ هذه النتيجة بعدُ، وأراد أن يتأكد من أنه لا يخطئ قبل أن يكتبها.

كان المعبد أيضًا آلة فلكية، موجهة بحيث يدخل ضوء الشمس الطالعة، صباح أقصر أيام السنة، إلى قدس الأقداس ويقطع المحور حتى قاعة الأعمدة الكبرى.

كتب في لهفة مذكرة من عدة صفحات في يومياته، يفصّل فيها الحساب والقياسات حتى الخلاصة. وسيرسلها إلى القاهرة، إلى فورييه، بأول بريد. فأكثر رياضيي اللجنة صرامة سيعرف كيف يتحقق. وسيصل الرد بعد شهر، في سطرين فقط. «حسابكم صحيح. دوّنوه من أجل النشر.»

في الثانية صباحًا، عاد جومار إلى المعسكر، بعد خمس ساعات من مغادرته خيمته. كانت يداه ترتجفان قليلًا وهو يلف أوراق الدفتر، ولم يكن ذلك من البرد. كان معتادًا على الاكتشافات التي تؤكد فرضية. أما في هذه الليلة، ولأول مرة، فقد خرجت الفرضية من القياس نفسه، دون أن يبحث عنها. أبقى حذاءه في قدميه لينام.

كرّس دونون اليوم للتجول في مجمع معابد الكرنك، عشر ساعات متواصلة، وهو يعلم أن الوقت يضيق عليه. كانت الصروح التي يبلغ ارتفاعها أربعين مترًا تحمل نقوشًا بارزة لمعارك فرعونية. وكانت المسلات من الجرانيت الوردي منتصبة مستقيمة، كتلًا واحدة نُقلت من أسوان، على بعد مائتي كيلومتر جنوبًا. وإحداها، التي أقامتها الملكة الفرعونة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة، ارتفاعها تسعة

وعشرون مترًا ونصف المتر. وكانت وجوهها مغطاة بأعمدة رأسية من الهيروغليفية المحفورة بدقة، لا سبيل إلى قراءتها.

كانت الكتابات في كل مكان، على الأعمدة وعلى الجدران وعلى التوابيت. كان دونون ينسخ منها صفوفًا كاملة، بقلم بطيء، دون أن يقرأ منها حرفًا واحدًا، فلم يكن أحد يقدر على ذلك.

في الفناء الكبير للكرنك، وقف دونون أمام سجل من النقوش البارزة تمثل حيوانات تُقدَّم جزية. أسد، وزرافة، وقرود، وظباء. كان ينسخ الأنواع بدقة الرسام، مدوّنًا تلك التي لم تعد موجودة في مصر.

— انظر إلى هذا الأسد، قال لجوليوا الذي كان يمرّ. ليست هذه جمجمة أسد أفريقيا جنوب الصحراء، فالوجه الجانبي أكثر استواءً، واللبدة أطول، وكأنها صورة شخصية. إما أن النحات أخطأ، وإما أن أسود مصر القديمة كانت تؤلف جماعة متميزة. أراهن على الثانية.

نظر جوليوا إلى النقش، ثم إلى دونون، ومضى في طريقه. لم يكن دونون ينتظر جوابًا. كان يضيف في الهامش، منذ الآن، لبدة ثانية.

في ليلة أخرى، بينما كان جومار يعمل على قياسات الكرنك، سمع ضجة.

ضربات مكتومة منتظمة، واحتكاك شيء ثقيل على البلاطات. صوت ورشة، لا صوت قتال. أخذ فانوسه.

في القاعة، كان ثلاثة جنود يعملون على ضوء مشعلين. كانوا قد أفرغوا كوّة تحوي شظايا تماثيل، رؤوس آلهة وأيدي وتماثيل نصفية، وكانوا يفرزونها على البلاطات في كومتين، ما يستحق الحمل في جانب، وما هو أثقل من اللازم في جانب آخر. كان أحدهم يمسك بيديه رأس صقر من الجرانيت الأسود، حورس على الأرجح، وعيناه مطعّمتان بمادة داكنة لا يسمح ضوء المشعل بتبيّنها. كان يقلّبه ويحاول تقدير وزنه.

لم يتجاوز جومار مدخل القاعة. كانت سلطة عضو في اللجنة تتيح له منع الأخذ غير المرخص. كان بإمكانه أن يتدخل. لكنه لم يفعل. كانوا ثلاثة، وفي كتائب ديزيه ثلاثة آلاف، ورجل وحده بفانوس لن يوقف شيئًا، ولم يكن يميل إلى المواقف المبدئية. خفّض الفتيل وتراجع إلى العتمة.

بعد الظهر، في الفناء شمال مجمع المعابد، قام جوليوا باكتشاف. شظايا نقوش بارزة من الأسرة الثانية عشرة، مبعثرة بين الأنقاض، تُظهر أسلوبًا مختلفًا جذريًا، أصغر وأكثر حميمية، وصورة الملك أقل جمودًا وأكثر إنسانية. وكان وجه أحد هؤلاء الملوك يحمل تعبير إرهاق لم يكن أي فرعون من الأسرات الكبرى ليتسامح معه على آثاره.

ـــ انظر إلى العينين، قال جوليوا لدونون الذي كان يرسم منذ ساعة. لم أرَ قط فرعونًا بهذا... التعب. ـــ سكت لحظة. ـــ إعياء السلطة.

توقف دونون عن الرسم. كان جوليوا محقًا. أعاد رسم الوجه من البداية، بجفنين أثقل.

في 29 يناير، استأنفت الفرقة طريقها نحو الجنوب وتوقفت في الأقصر، على بعد ثلاثة كيلومترات، لليلتين. وحصل دونون وجومار على إذن بالبقاء في الخلف عند رحيلها، مع حرس، ليلحقا بها بعد ذلك بمسير قسري. معبد أمنحتب الثالث ورمسيس الثاني. وكان طريق تماثيل أبي الهول الواصل بين المعبدين قد دُفن تحت الرمل وبيوت القرية المبنية فوقه.

رسم دونون الرواق الكبير الذي يقود من فناء المدخل إلى قدس الأقداس الداخلي. أربعة عشر عمودًا بردية الشكل، ارتفاع الواحد منها تسعة عشر مترًا، ذات أناقة شكلية تشهد على الرقي الجمالي للأسرة الثامنة عشرة. وكانت الجدران تحمل نقوشًا بارزة لموكب أوبت، حيث يُنقل تمثال آمون في قارب من الكرنك إلى الأقصر كل عام. ونسخ المشهد في صفحات عدة.

وصوّرت نقوشٌ بارزة أخرى على صرح المدخل معركة قادش بين رمسيس الثاني والحثيين. خمسة وستون مترًا عرضًا، تغطيها من الأرض حتى ارتفاع عشرة أمتار مشاهدُ منحوتة بحيوية لافتة. كانت نتيجة المعركة موضع نزاع. فقد كاد رمسيس أن يُحاصَر قبل أن ينجو. أما الصرح فلم يُظهر سوى النصر، منقوشًا على ارتفاع لن يأتي أحد ليصحّحه.

وأمام الصرح كانت تنتصب مسلّتان. هما المسلّتان نفسهما اللتان سيهدي محمد علي إحداهما إلى فرنسا عام 1830. وستبحر هذه الأخيرة إلى باريس عام 1833 على متن سفينة صُمّمت لها خصيصاً، وستُقام في ساحة الكونكورد عام 1836. كان دونون ينظر إليها عام 1799 دون أن يعلم أنها ستنتهي هناك. دوّن أبعادها ونقوشها والخراطيش التي تتكرر على أوجهها الأربعة.

كان ديزيه يمرّ على رأس الطليعة، فتوقف أمام المسلّتين. أمال رأسه إلى الوراء نحو قمة الأولى، على ارتفاع خمسة وعشرين مترًا فوقه، ثم نظر إلى دونون الذي كان يرسم إلى جانبه.

ـــ هذه الأعمدة القائمة، أيمكن أخذها؟

ـــ إنها مسلّات، يا جنرال. من الغرانيت. وزن كل منها نحو مئتين وثلاثين طناً.

ـــ بوجود النهر تحتها والروافع، فعل المصريون ذلك بلا شك.

ـــ قبل ثلاثة آلاف سنة. وقد أنزلوها من الجنوب إلى الشمال مع الفيضان. ولنقلها إلى فرنسا يلزم تحميلها على سفينة تُبنى لها خصيصاً. وليس لدينا في البحر المتوسط ما يقدر على ذلك.

نظر ديزيه إلى المسلّة مرة أخرى.

ـــ سيجد أحدهم وسيلة. لكن ليس الآن.

وامتطى جواده من جديد وانضم إلى أركانه.

وفي القاعات الجانبية لمعبد الأقصر، حيث سبقهم اللصوص إلى العمل، وجد دونون ما تركه المنقّبون المستعجلون. شظايا تماثيل صغيرة من البرونز، وأقدام، وأيدٍ، ووجه كامل لأوزيريس من البرونز المذهّب بطول خمسة عشر سنتيمتراً. كان للوجه الصفاء المميّز لبرونزيات العصر المتأخر. عينان لوزيتان مائلتان قليلاً، وفم رقيق، ولحية مستعارة مضفورة. صُبّ المعدن بطريقة الشمع المفقود ثم عُمل بالإزميل. وكانت الحواجب وحدود العينين مرصّعة بالذهب الدقيق، والحدقتان من زجاج أسود.

وقد أُنتجت برونزيات من هذا النوع بالجملة منذ القرن السابع قبل الميلاد. آلاف التماثيل النذرية التي كان المتعبّدون يودعونها في المعابد مقابل حماية الإله. ولم تكن هذه القطع ملكاً لفرد قط. كانت هبات للإله، وملكاً للمعبد. وحين أفرغ اللصوص المخازن، كان آمون هو من سلبوه، ولم يطالب آمون أحداً بشيء.

التقط دونون وجه أوزيريس وقلّبه. على ظهره سطر من الهيروغليفية منقوش بالإزميل، هو اسم المتبرّع على الأرجح. نسخ العلامات. ثم وضع القطعة في حقيبته. وفي أثناء ذلك فكّر في قائمة بونابرت. كان وجه أوزيريس من البرونز المذهّب يندرج دون جدال في الفئة الأولى. وكان عليه أن يصرّح به، لكي يذهب إلى القاهرة وينضم إلى المجموعات الرسمية التي يمسك فورييه سجلّها. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. فمنذ دندرة، زال الحدّ بين ما يأخذه لحساب اللجنة وما يحتفظ به لنفسه دون أن ينتبه. نحو ثلاثين بنداً في جرده الشخصي. وهي قطع لم تكن، قبل ستة أشهر، مدرجة بعدُ في أي سجل أوروبي.

لم يكن ذلك مثل السرقة. كان يكاد يقنع نفسه بذلك.

في تلك الليلة، بقي جومار ساعة أخرى أمام واجهة المعبد. كان الكرنك قد بُني على مدى ألفي عام، يضيف كل فرعون صرحاً أو ممشى أو قاعة، دون قطيعة في الأسلوب ودون مراجعة للمشروع. لقد أنجزت مصر ما لم تعرف أوروبا قط كيف تفعله، وهو نقل مشروع معماري عبر الأجيال دون أن يقرّر أحد نهايته.

والآن كان جنود يحملون قطعاً من هذا المشروع في حقائبهم، بين الصحن والقميص الاحتياطي، دون نية التخريب على الأرجح. فالشظايا المتجهة إلى باريس أو إلى

المجموعات الخاصة للضباط كانت تخرج من هذا المجموع لتصير أشياء غريبة وتذكارات.

دوّن جومار هذا قبل أن يعود. « الكرنك نظام. لكل عنصر مكانه في المجموع. نقل عنصر لا يهدم الكرنك، لكنه يهدم هذا العنصر بوصفه جزءاً من النظام. سيكون في مكان آخر شيئاً آخر، تحفة أو قطعة اقتناء، ولن يكون هنا شيئاً محدداً. »

وعند خروجه من الأقصر تلك الليلة، لمح دونون رجلاً مسنّاً جالساً عند مدخل المعبد. كان يرتدي جلباباً أبيض ويراقب الجنود الذين يحملون الكتل في الساحة. لم يكن يبدو غاضباً. كان وجه إنسان يشاهد أمراً سبق أن رآه.

توقف دونون. نادى حسن الرجل. وتبادلا بضع كلمات.

— يقول إن أباه كان حارس هذا المعبد. وجدّه. وجدّ جدّه. لا يعرف كم جيلاً. يقول إن العثمانيين جاؤوا. وإن المماليك جاؤوا. والآن الفرنسيون هنا. وفي كل مرة يأخذون حجارة.

طلب دونون من حسن أن يترجم جوابه. إن الفرنسيين جاؤوا للدراسة لا للتدمير. ترجم حسن. فردّ الرجل بأن العثمانيين أيضاً كانوا يقولون إنهم جاؤوا لأسباب أخرى. وكانوا يأخذون مع ذلك.

لم يجد دونون ما يردّ به. رسم الرجل من الخلف. الجلباب الأبيض، وكتلة الغرانيت، والجنود في الساحة خلفه.

أما ما لم يكن دونون يراه، خلف المشهد، فهو ما كان يفعله حسن بعد ساعات العمل الرسمية.

كان حسن المترجم الرسمي للجنة. مصري من القاهرة أدرك أن منصبه يمنحه نفاذاً مميزاً إلى العالمين. كان يترجم أسئلة العلماء إلى الفلاحين. أما ما لم يكن يترجمه بانتظام، فهو ما كان الفلاحون يقولونه فيما بينهم عمّا يريده العلماء حقاً.

وقد فهم جومار ذلك بعد الأسبوع الأول. كان حسن يسهّل مشتريات العلماء من التجار المحليين ويأخذ حصته في الطريق. وقدّرها جومار بخمسة عشر في المئة. ولم يكن البائعون ولا المشترون يعلمون أن الطرف الآخر من السوق يمرّ هو أيضاً بيده.

في ليلة بالكرنك، نهض جومار وتبع حسن عن بعد. عبر حسن المعسكر الرئيسي نحو القطاع الذي يقيم فيه كبار الضباط، وتوقف أمام خيمة، وتبادل بضع كلمات بصوت خافت مع خادم. دخل الخادم إلى الخيمة وخرج ومعه ضابطان، عقيد ونقيب من هيئة الأركان. فتح حسن كيساً من القماش. وعلى ضوء مصباح زيتي، رصّ على بساط مطويّ أربع قطع. أجمل مما كان يعرضه نهاراً على صف الضباط. جعران ملكي من اللازورد، نادر وثقيل. وكأس من المرمر الشفاف. وتمثال صغير

لبتاح من الفيانس الأزرق بطول عشرة سنتيمترات. وتميمة من الذهب الخالص تمثّل باستت جالسة.

فحص الضابطان القطع. ساوم العقيد. وتنازل حسن عن السعر بسهولة دلّت على أنه أدرج الهامش منذ البداية. وانتقلت القطع الأربع من يد إلى يد. وجمع حسن المال دون أن يعدّه.

عاد جومار إلى المعسكر دون أن يراه أحد. وفي الصباح استجوب حسن مباشرة، دون مواربة.

ـــ لقد رأيت، قال جومار. الليلة الماضية. الضابطين، والبساط، والقطع الأربع.

لم يبدُ على حسن أي حرج. انتظر ما سيأتي بعد ذلك.

ـــ من أين جاءت هذه القطع؟

ـــ من القرنة. رجل عبر النيل في الليل. يعرف مقابر لم يذهب إليها الفرنسيون بعد. وهو يبيع ما يجده منذ سنين.

ـــ وعمولتك أنت. كم تبلغ؟

ـــ عشرة في المئة. الضباط يدفعون أكثر من الجنود، وهيئة الأركان أكثر من ضباط الخطّ.

ـــ وعلى ما تبيعه للعلماء نهاراً؟ أحسبها خمسة عشر.

ـــ خمسة عشر، نعم. الكمّية تعوّض. هم يريدون أن يبيعوا، وأنتم تريدون أن تشتروا... أما المقابر فأنا لا أحفرها. أنا أترجم الأسعار.

ابتعد حسن. كان من القاهرة، ابن ناسخ في المحكمة الشرعية، متمكّناً من العربية ومن الفرنسية بما يكفي للعمل عند هؤلاء الرجال. وقد قبل هذا العمل لأنه مجزٍ، ولأن الفرنسيين، مثل الآخرين قبلهم، لن يبقوا.

أما ما لم يقله حسن لجومار، فهو أنه دخل القاعة الكبرى في معبد الكرنك قبل يومين، وحده، عند الفجر، قبل أن ينهض العلماء.

لم يكن قد رأى الكرنك قبل هذه الحملة. فأجداده لم يبنوا كل هذا. ولم يكن يملك مفتاحاً لهذه الهيروغليفية أكثر من دونون. لكن أحداً لم يطلب منه فكّ رموزها. كان المطلوب منه أن يترجم الأسعار.

3 - وادي الملوك

في 29 يناير، كان جومار أول من عبر النيل إلى الضفة الغربية. كان قد طلب الرحيل قبل الفجر، ليتفرد بالموقع قبل أن يتحرك الجيش.

امتدت المدينة الجنائزية الطيبية على عدة كيلومترات في الصحراء الجبلية. كان جومار يعرفها من روايات بوكوك ونوردن، لكن هذه الروايات لم تهيّئ عينه الخرائطية لحقيقة الأرض. كان وادياً كلسياً محفوراً في الجرف، على خمسة كيلومترات من النهر، وكل فتحة في الصخر فيه تدلّ على مدخل مقبرة. عشرات الفتحات المرئية. ولا ريب أن غيرها ما زال تحت الرمل.

تسلّق حافة صخرية تشرف على مدخل الوادي. ومن هناك كان يرى كل شيء. فتحات المقابر في الجرف، وطرق الحجّارين، وآثار الاستغلال القديم للصخر. كان الفراعنة قد تخلّوا عن الأهرامات إلى مقابر محفورة هنا، ظنّوها أكثر تكتماً. ومع ذلك وجدها اللصوص، وأُفرغت كلها تقريباً منذ العصور القديمة. بقيت الصخرة والزوايا، ولم يستطع أحد أن يسرقها. ثبّت جومار الحامل الثلاثي للثيودوليت بين حجرين.

كان يمارس ما يسميه « التثليث الأرضي ».

أن يصوّب انطلاقاً من نقطة مركزية على جميع المعالم المحددة تباعاً بالثيودوليت، ويدوّن الزوايا، ويحسب المسافات انطلاقاً من القاعدة المقيسة على الأرض. في ذلك الصباح، عمل منذ الفجر دون انقطاع. صعد إليه جندي نحو السابعة بحصّته من الطعام. شكره جومار دون أن يترك العدسة، وبقي الخبز على الحجر. كان جوليوا يعمل على نحو مختلف. فحيث كان جومار يطلب الزوايا والمسافات، كان جوليوا يطلب النِّسَب، ما يقوله بُعد عن آخر، وما تكشفه نسبة عن القصد. لم تكن في دفاتره أعمدة الأرقام التي في دفاتر جومار، بل رسوم مشروحة، وكسور، وإحالات من موقع إلى آخر. ومع ذلك خرجا من المدرسة نفسها.

في الأسفل، بعيداً عن نظر جومار، كان أدلاّء القرنة يقودون دونون وجوليوا من مقبرة إلى مقبرة.

كان فلاحو القرنة يعرفون كل مدخل من مداخل وادي الملوك منذ أجيال. كانت قريتهم مبنية فوق المقابر ذاتها. البيوت تقوم على المدافن الجوفية، والأطفال يكبرون فوق أموات الأسرات. وقد استغلوا المقابر في تكتم منذ قرون، يبيعون لتجار القاهرة وللمسافرين الأوروبيين النادرين الذين يجرؤون على المجيء إلى هناك. كانت التجارة متواضعة، متواصلة، يوازنها خطر لفت انتباه السلطات العثمانية.

وقد غيّر وصول الفرنسيين هذا التوازن.

أراد العلماء أن يروا كل شيء، وفوراً. طلبوا أدلاّء إلى مقابر ما كانوا ليهتدوا إليها وحدهم. وبقيادة دونون وجوليوا، كشف رجال القرنة مداخل كانوا قد امتنعوا عن إطلاع السلطات عليها. وبعد مرور الفرنسيين، صارت المقابر « مكتشَفة »

ومعروفة ومرسومة على الخرائط. وما حافظ عليه اللصوص من تكتم طوال قرون زال في بضعة أيام.

ـــ نحن نخلق سوقنا الخاصة، قال جوليوا. جيش ودفاتر... والنهب الذي نجده عند وصولنا يزداد سرعة.

ـــ هيا، لسنا نحن من ينهب على كل حال، قال دونون.

ـــ لم أقل ذلك. لكن بهذه الوتيرة... ما كان يستغرق منهم قرناً سيستغرق عشر سنوات.

نزل دونون وجوليوا إلى المقابر مع الأدلاّء. كان الممر ينحدر انحداراً شديداً، وهو من الضيق بحيث وجب الزحف في بعض المواضع، والمرافق غارقة في الغبار الكلسي. وكان الهواء يزداد برودة، ثم سكوناً. هواء لم يتحرك منذ قرون ويبدو أنه يقاوم الداخلين. ثم خرجا إلى قاعة أمامية جدرانها مغطاة برسوم ذات نضارة مذهلة.

كان جوليوا يخمّن المشاهد التي سيُطلق عليها لاحقاً *كتاب الأمدوات* و*كتاب البوابات*. كان قد قرأ كيرشر قبل الرحيل. فكل ساعة من ساعات الليل تقابل محنة، وكل محنة تقابل إلهاً حارساً. كان يرسم دون أن يفهم. ويدوّن التقابلات على هامش قياساته.

ـــ هذه الرسوم رائعة وأنا لا أفهمها، قال جوليوا وهو يضع مصباحه. أنوبيس برأس ابن آوى، هذا أعرفه. وإيزيس بجناحين مبسوطين. لكن الباقي، هذه الإيماءات الطقسية وهذه الرموز، موسوعة لا نملك مفتاحها.

زارا سبع مقابر في يوم واحد. وكان أكثرها إثارة للإعجاب مقبرة رمسيس الثالث، التي زارها بروس قبل ثلاثين عاماً. ممرات طويلة تنحدر عميقاً تحت الأرض، وكل قاعة تقابل ساعة من رحلة الشمس الليلية في العالم الآخر، تقويم جنائزي منحوت في الصخر.

أوقفت رسوم هذه المقبرة دونون في مكانه. كان قد رأى جداريات كنيسة السيستين، وأعمال رافائيل في إيطاليا. ولم تكن هذه الرسوم أدنى منها. كانت مختلفة. رشاقة خطية، وثقة في الخط، ولوحة من ستة ألوان تعطي الانطباع بأنها تضم كل شيء.

ـــ في باريس تُعلَّق أشياء خطها أقل ثباتاً، قال جوليوا.

كانت حجرة الدفن تحتفظ بعدُ بالتابوت من الغرانيت الأحمر، المنحوت بمشاهد دينية. أثقل من أن يحمله اللصوص القدماء.

ـــ انظر إلى الهيروغليفية، قال دونون دون أن يرفع عينيه عن التابوت. كل علامة منحوتة كأن صائغاً نحتها. إنها آخر ما كان على الميت أن يراه.

ـــ كانوا يتصورون الموت رحلة. محناً وأبواباً وحراساً... لم يبلغ لاهوتيونا يوماً هذا التعقيد، والله يعلم أنهم حاولوا.

— سيفهم آخرون، أجاب جوليوا. وسيحتاجون إلى نسخنا للتحقق.

في المقبرة الثالثة من ذلك اليوم، خارج الوادي، على سفح تلة القرنة حيث يرقد الأفراد العاديون، وهي حجرة متواضعة، ربما لموظف من رتبة متوسطة، وجد دونون على الأرض لفافة بردي منشورة جزئياً. كان اللصوص قد تركوها، إذ لا ذهب فيها ولا قيمة سوقية فورية. التقطها بحذر. كان البردي جافاً، هشّاً عند الحواف، لكنّ قلب اللفافة صمد. فردها على ركبته.

كانت الوثيقة تبلغ أربعين سنتيمتراً ارتفاعاً وأكثر من مترين طولاً. وكانت مغطاة بأعمدة من الهيروغليفية السوداء، وبرسوم توضيحية بالحبر الأحمر والمغرة، من بينها ميزان في إحدى كفتيه ريشة وفي الأخرى قلب إنسان؛ ورجل جاثٍ أمام اثنين وأربعين قاضياً؛ وأنوبيس برأس ابن آوى ممسكاً بصولجان واس. كان هذا ما سيُسمّى لاحقاً الفصل الخامس والعشرين بعد المئة من *كتاب الموتى*. وزن النفس، حكم الروح.

لم يكن دونون يعرف قراءة هذا النص، ولم يكن أحد يعرفها آنذاك، غير أنه عرف رسومه التوضيحية لأنه رآها على جدران أخرى. لفّ البردية بعناية وغلّفها بكتّان منديله. وفي باريس سيدرسها مارسيل، وهو ما لم تُصنع البردية من أجله. ودسّ دونون الرزمة في قاع حقيبته.

وفي المقبرة الرابعة من ذلك اليوم، وجد دونون بردية ثانية. كانت أكبر من الأولى. انحنى ليأخذها.

كان الجندي المرافق هناك قبله، أو يكاد. فقد رأيا البردية في اللحظة نفسها، لكنّ الجندي خطا خطوة بينما كان دونون لا يزال يحسب، وكانت يده قد استقرّت عليها. تبادلا النظر لحظة. ثم انتزع دونون البردية من يدي الجندي. لا بعنف، ولكن من غير تردد أيضاً. قال فقط : «لجنة العلوم والفنون». فأفلتها الجندي. لم تكن لديه في الحقيقة حجة يردّ بها.

كانت لجنة العلوم والفنون سلطة مشروعة. وكان من حقه أن يأخذ الوثائق العلمية.

كان الجندي قد غادر الحجرة. وبقي دونون وحيداً مع مشعله والكوة الفارغة. كان ما فعله قانونياً، سريعاً، حاسماً، من غير تشاور، وقد أعاد حركة الجندي نفسها. اليد الممدودة نحو شيء لا تملكه، والقيمة المقدَّرة في لحظة، ثم الاستيلاء. ولم يكن الفارق إلا في الاسم الذي يُطلق على هذه الحركة بحسب من يقوم بها. خرج من الحجرة دون أن يلتفت. ودوّن في يومياته الخاصة سطراً واحداً : «أخذتُ البردية قبل الجندي».

أما الجندي فلم يعد خالي اليدين. عاد إلى الحجرة والتقط ما تركه دونون. ثلاث تمائم من الفخار المزجّج مكسورة، وقطعة من الكرتوناج المذهّب، وشظية من

الحجر الجيري المطلي لا تزال تُرى عليها عين أوجات. أشياء من الدرجة الثانية لم يرَها دونون جديرة بحقيبته. دسّها الجندي في حقيبته ونزل وهو يصفّر.

عند الظهر، نزل جومار من حافته الصخرية وانضم إلى دونون.

ـــ مقبرتك تقع على بعد مئة واثنين وثلاثين مترًا إلى الشرق من النقطة التي قسنُّها قمةً للجرف.

ـــ وهل هذا مفيد؟ سأل دونون وهو يمسح يديه المغطاتين بغبار الحجر الجيري.

ـــ حين يريد أحدهم أن ينقّب في هذا الوادي، ستدلّه خريطتي على موضع البدء. أما الآن فلا أحد يعرف كم بقي منها تحت الرمال.

نظر إلى أعمدة الأرقام في دفتر جومار دون أن يفهم الحسابات.

ـــ أتفكّر منذ الآن فيمن سيأتون بعدنا؟

ـــ منذ اليوم الأول. لن نفعل كل شيء. ليتمكنوا على الأقل من استئناف العمل من حيث نكون قد توقفنا.

بعد العودة إلى المعسكر، لم تكن مقابر وادي الملوك هي ما شغل جومار، بل النهب.

كان قد رأى أربعة أنماط مختلفة من المنطق تعمل في آن واحد. أدلّاء القرنة يستغلون المقابر التي يجعلهم العلماء يكشفونها، وتجارة قديمة تنطلق بفعل الطلب الجديد. والجنود يلتقطون ما يستطيعون حمله، بلا تنظيم ولا معيار. والضباط يشترون بتكتّم ومن مالهم الخاص. والمفوضون يأخذون بسلطة ومنهج وتوثيق. وهو نفسه بقياساته. ودونون بدفاتره وحقائبه.

كانت الأنماط الأربعة تنتهي إلى النتيجة نفسها. أشياء كانت في مصر لم تعد فيها. وما أقلقه أكثر من الكمية هو غياب خط فاصل واضح بين المشروع وغير المشروع. كانت للّجنة مهمة جمع العيّنات العلمية، لكن أحداً لم يحدد هذه المهمة. لم تكن تقول ما يجوز أخذه. كانت تقول إننا هنا من أجل العلم، والعلم هو الذي يقرر.

كتب في يومياته : «التمييز بين الجمع والنهب تمييزٌ في الوجهة لا في الفعل. نحن نجمع لباريس. وهم ينهبون لأنفسهم. ووادي الملوك لا يفرّق بين الأمرين». ثم دسّ اليوميات تحت عتاده ولم يحدّث بها أحداً.

في السهل، عند سفح الجرف، توقف ديزيه أمام تمثال رمسيس الثاني الضخم المطروح أرضًا. كان الوجه الهادئ يتطلع إلى السماء. وحمل الصدر نقوشًا تعلن ألقابه : سيّد الكون، ربّ الأرضين.

ـــ كان رمسيس هذا يأمر عشرات الآلاف من الرجال، قال ديزيه. كان يشيّد آثارًا للأبد. وها هو الآن في الرمل، مكسور الأنف.

وضع جوليوا سلسلة المساحة جانبًا وفحص التمثال بعين مهندس.

— الغرانيت يأتي من أسوان، على بعد مئتي كيلومتر إلى الجنوب. استخرجوا الكتلة الخام، ونقلوها عائمة إلى طيبة مع الفيضان، ثم نحتوها هنا. الجبل هو الذي جاء إلى المعبد.

في 30 يناير، قبل الفجر، انتظر جومار ودونون أمام تمثالي ممنون أن تشرق الشمس. لامست الأشعة الأولى الحجر. ولم يحدث شيء. فقد كان التمثال قد كفّ عن الغناء منذ نحو ستة عشر قرنًا. نظر أحدهما إلى الآخر.

— لم يعد يغني، قال جومار. يقال إنه صمت حين أمر إمبراطور روماني بترميمه. ولعل الحجر، إذ يتمدد بالحرارة المفاجئة للصباح، كان يهتز في شقوقه. ظاهرة فيزيائية محضة.

— دون شك. لكن الحجاج الذين كانوا يسمعونه لم يكن لديهم تفسيركم الحراري. كان التمثال في نظرهم يتكلم. اذهبوا وانتزعوا ذلك منهم بمحرار.

مرّ ديزيه بالتمثالين في مطلع الصباح، وتأمل لحظةً الوجوه الجامدة.

— مثير للإعجاب، قال. المماليك يشغلونني أكثر. الرتل يرفع المعسكر هذا المساء. الحقوا بنا حين تنتهون. ثم مضى.

بقي جومار أمام تمثالي ممنون بعد رحيل ديزيه. ثمانية عشر مترًا من الكوارتزيت جالسة في السهل، بلا معبد حولها، بلا سياق معماري ظاهر، في وسط العدم، ومع ذلك تُرى من بُعد خمسة كيلومترات. هذا هو ما لم يكن في وسع الجنود ولا تجار القرنة أن يحملوه، وما لا معنى له إلا هناك، في ذلك المشهد بعينه.

كانت الأشياء المنقولة تقطع هذه الصلة منذ اللحظة التي تُؤخذ فيها. فـ*الأوشابتي* المصنوع من الفخار المزجّج في مقبرة من وادي الملوك كان في مكانه. لقد صُنع ليكون هناك، ليرافق ذلك الميت بعينه في تلك *الرحلة* بعينها.

ثم أعاد دفتره إلى مكانه، وحمل أدواته، ونزل عائدًا إلى المعسكر. وخلفه ظلّ التمثالان العملاقان يتطلعان نحو الشرق.

4 - أسوان

أما ديزيه فلم ينتظر. ففي مساء الثلاثين من يناير أمر برفع المعسكر، واضطر دونون، الذي بقي في الخلف مع جومار وجوليوا، إلى إغلاق حافظات رسومه عن طيبة ليلحق بالرتل بمسير مكثف، وهو ما فعلوه في الحادي والثلاثين. ولن يعود ديفيليه إلى هذا الطريق إلا لاحقًا.

صعد الرتل نحو أسوان، على بعد مئتي كيلومتر إلى الجنوب. وكان المشهد يضيق.

وكلما تقدموا جنوبًا تغيّر السكان. أخذ النوبيون ذوو البشرة الأكثر سمرة يحلّون شيئًا فشيئًا محلّ الفلاحين العرب. وتغيّرت المزروعات كذلك. فالدورا، وهي الذرة الرفيعة الأفريقية، حلّت محل القمح. وصارت البيوت أكثر انخفاضًا، مبنية بالطوب اللبن، وواجهاتها بلا نوافذ. كان الجيش الفرنسي يعبر منطقة لم يبلغها أي جيش أوروبي منذ الرومان.

كان سكان القرى يراقبون مرور الرتل من فوق الأسطح المستوية. لم يهربوا. كانوا يرقبون. فقد تعلّم فلاحو صعيد مصر منذ قرون أن ينتظروا مرور الجيوش. كانوا يعرفون ما تكلفه المقاومة وما يساويه التعاون، ولم يقدّموا هذه ولا ذاك. دوّن جوليوا هذا الفارق في دفتره، دون أن يترجل عن حصانه.

كان الرتل يحمل أشياء منذ البداية. أدرك جوليوا ذلك وهو يراقب دواب الحمل. عند الانطلاق من طيبة، كانت البغال تحمل المؤن ومعدات المعسكر وصناديق الذخيرة. وبعد يومين، صارت البغال نفسها تحمل أحمالًا إضافية. أكياسًا من القماش وصناديق خشبية مرتجلة رُبطت فوق الحمل. وكان الجنود قد صنعوها بأنفسهم في مبيت كل مساء.

توقف جوليوا ذات عصر قرب بغلة مثقلة بوجه خاص. كان كيس القماش سيئ الإغلاق. وبرزت منه زاوية من الحجر الجيري المنحوت، شظية من نقش بارز، ستون سنتيمترًا على أربعين تقريبًا، تمثّل الجزء الأسفل من شخصية في موكب. أسفل الثوب، والقدمين، وأسفل صولجان. عرف الطراز. العصر البطلمي، وربما كانت قطعة أُعيد استعمالها من الموقع.

لاحظ الجندي الذي يقود البغلة نظرته. فأحكم إغلاق الكيس دون عجلة، ثم واصل المسير.

— مصر تذهب نحو الشمال على ظهر بغل، قال جوليوا لدونون في المبيت.

— جزء من مصر. الأخفّ.

— والأسهل حملًا. هذا ما يقرر ما يرحل وما يبقى. لا القيمة. ولا الأهمية التاريخية. بل الوزن.

فكّر جومار، الذي كان يمتطي جواده إلى جانبهما، لحظة.

— وهذا يعني أن تاريخ مصر الذي ستراه باريس سيكون تاريخ ما كان وزنه أقل من عشرين كيلوغرامًا. وكل ما عداه سيبقى هنا.

في تلك الليلة، وهو جالس على ضفة النيل، قدّر جومار عرض المجرى آليًّا. ثلاثمئة متر بالعين. تيار معتدل.

كان النيل يجري نحو الشمال، وكذلك ما كانوا يحملونه. كان للجيش طرق تموينه، وقوافله النهرية، وزوارقه التي تنحدر نحو القاهرة حاملة التقارير والبريد. وعلى

متن هذه القوارب نفسها كانت تسافر صناديق اللجنة الرسمية وطرود الضباط غير الرسمية، فيما كانت الأكياس المربوطة بدواب الحمل تتبع الضفة.

كان النيل طريق النقل منذ أربعة آلاف سنة. فقد أنزل الفراعنة غرانيت أسوان نحو طيبة على مياهه، وأنزل الرومان المسلات نحو الإسكندرية مع التيار. أما الآن فصار الفرنسيون ينزلون نحو القاهرة ما خلّفته القرون في صعيد مصر، بالقوارب حين توجد، وعلى ظهور البغال في سائر الأحيان.

كان الجيش قد عسكر في نحو اثني عشر موقعًا منذ مغادرة القاهرة. وكانت كل محطة تنتج حصتها من الأشياء. وكل ما أمكن حمله انزلق نحو الشمال، منجذبًا إلى السوق الباريسية، والمجموعات الخاصة، والمتحف المركزي للفنون. لم يكن هناك مسؤول واحد. كان هناك انحدار، والأشياء تتبع الانحدار.

في الأول من فبراير، توقّفوا لقضاء الليل في كوم أمبو.

تبيّن جوليوا المعبد قبل أن يترجل عن حصانه. كان شبه مدفون تحت الرمال.

قضى جوليوا أمسية التوقف، ثم الفجر التالي، يمدّ سلسلة المساح في الأجزاء المكشوفة من المعبد. كانت النقوش البارزة في غاية الوضوح — فقد حافظ الفن المصري على لغته البصرية مدة أطول من أي مدرسة أوروبية — وكان الرمل يصل إلى كاحليه.

— هذه الأدوات، قال جوليوا وهو يتوقف أمام سجل في قاعة داخلية. مباضع. ملاقط. مجسّات. كان أطباؤهم يجرون العمليات. لا يذكر أي مؤلف قديم ذلك بمثل هذه الدقة.

كان دونون ينسخ الأدوات واحدة واحدة في دفتره، مدوّنًا أبعادها ووظيفتها المرجّحة.

جاء جرّاح الكتيبة العسكري — رجل يُدعى برويان، تلميذ سابق في مدرسة الجراحة بباريس — ليرى نسخ دونون. أبقى الرسوم أمام عينيه طويلًا دون أي تعليق.

— هذا المبضع المنحني، هناك. — أشار إلى الجدار. — يُستعمل في الشقوق البطنية العميقة. يتيح الانحناء الانزلاق تحت الأعضاء دون ثقبها. كنت أظن... لقد علّموني أنه اختراع من السنوات العشر الأخيرة.

— وهذه المجسّات ذات الزيتونة، قال دونون وقلمه ممدود نحو الجدار. هل تعرفها؟

— قسطرة الإحليل. الشكل نفسه والحجم نفسه. برونز بدل الفولاذ، لكنها الأداة ذاتها. لقد اصطدم أحدهم هنا بالمشكلة التشريحية نفسها، وحده، قبل ألفي عام منّا.

أمضى برويان ساعة أخرى فوق الرسوم، يعرّف الأدوات واحدة واحدة ويشرح استعمالها، وكان دونون يدوّن الشروح على هوامش رسومه التخطيطية بخط يزداد ضيقًا.

— ينبغي أن تأتي غدًا صباحًا، قال دونون. هناك سجلات طبية أخرى في القاعات الخلفية.

وفي صباح اليوم التالي، جاب برويان ودونون معًا القاعات الداخلية للمعبد، والجرّاح يعرّف الأدوات ويملي استعمالاتها بينما يرسم دونون وينسخ. وسيبقى عمل أمسية وصباح هذا في حافظات دونون. أما لوحات كوم أمبو من *وصف مصر* فسيرسمها لاحقًا جوليوا وديفيليه.

وفي هذه الأثناء كان جوليوا يقيس. فالرمل الذي طمر المعبد هو نفسه الذي صانه. وكان كل قياس يجريه يؤكد له ذلك. وحدّث ديزيه بذلك في إحدى فترات الاستراحة.

— إن أردنا حقًّا أن نحافظ على هذا المعبد، قال جوليوا، فينبغي تركه على حاله. ألّا نكشف شيئًا. الرمل يحميه أفضل مما نفعل نحن.

— أتنصحني ألّا أفعل شيئًا؟ قال ديزيه بلمسة من التسلية.

— أنصحك بأن... — بحث جوليوا عن كلماته. — أن تأخذ في الحسبان أن وجودنا هنا ليس بالضرورة نافعًا لما جئنا لدراسته.

لم يجب ديزيه. كان عليه أن يطعم جيشًا وأن ينهي حربًا، وكان ينظر بالفعل نحو الخيول.

راقب جوليوا ما يغادر المعبد. جنود يخرجون من القاعات الداخلية بأكياس ثقيلة، وضباط يشترون قطعًا من تاجر من إدفو جاء خصيصًا لذلك، ودونون نفسه يشتري قطعتين بعد مفاوضة أجراها حسن.

وقد جرى الأمر على هذا النحو في دندرة وفي طيبة، وسيجري على هذا النحو في أسوان. الجنود يأخذون، والتجار المحليون يزوّدون، والوسطاء ييسّرون، والعلماء يشترون، دون أن ينازعهم أحد في هذا الحق.

مدخلان، وقاعتان ذواتا أعمدة، وهيكلان. كان المعبد مكرّسًا لإلهين — سوبك وحارويريس — بتماثل صارم، ووجد جوليوا، وسلسلة المساح في يده، أن المحورين منزاحان قليلًا، بما يكفي لإيواء إلهين متساويين دون أن يتقدّم أحدهما على الآخر.

— نخال أنفسنا تحت قوس نصر في روما، قال دونون لجومار وهو يشير إلى سجلات الأسرى الراكعين أمام الفرعون المنتصر.

— ربما لا توجد مئة طريقة لإظهار من انتصر.

في صباح الرحيل من كوم أمبو، رأى دونون ضابطَي صف يكسران بالمطرقة الثقيلة نقشًا بارزًا من الجدار الداخلي للهيكل. كانت اللوحة تمثّل أدوات جراحية شبيهة بتلك التي عرّفها برويان. وكان رجل واحد يستطيع حملها.

— أوقفا هذا، قال دونون.

— لدينا الإذن. قال النقيب لاشيز إن بوسعنا ذلك.

ذهب دونون يبحث عن ديزيه. فاستدعى ديزيه النقيب لاشيز. ولم ينكر هذا الأخير. فقد رأى ضباطًا آخرين يفعلون الشيء نفسه في طيبة وفي دندرة. ولم يكن يعلم أن ذلك ممنوع.

— هذه الآثار تعود إلى اللجنة، قال ديزيه. لا تمسّوا شيئًا منها إلا بأمر كتابي مني.

انسحب لاشيز. كانت اللوحة الحجرية مكسورة عند قاعدتها، فقد أدّت ضربات المطرقة الثقيلة عملها. لم يكن في الإمكان إعادتها إلى مكانها. أمسك بها دونون بكلتا يديه ووضعها مسطّحة على الأرض. لم يكن ذلك أفضل، لكنه كان أهون من تركها تسقط.

وبعد انصراف لاشيز، لحق دونون بديزيه الذي بقي بعيدًا قليلًا، قبل أن يتحرك الرتل.

— هل يحدث هذا كثيرًا؟

— أكثر مما أعلم. جندي يسير منذ شهرين، ويرى حجارة مغطاة بالرموز... فيأخذ ما يقدر على رفعه. لا أستطيع مراقبة كل معبد.

— وكيف تصوغون الفرق بين ما لا تستطيعون مراقبته وما تجمعه اللجنة رسميًا؟

— لديكم استمارات. ولدى مفوضيكم تفويضات. أما الجنود فلديهم أكياس. ليس الأمر سواء.

نظر إلى دونون.

— أعلم أن ذلك لا يكفي. وأنتم تعلمون ذلك أيضًا. لكنه كل ما أملك أن أقدّمه لكم من تمييز.

خطا بضع خطوات نحو حصانه، ثم توقف والتفت نحو المعبد.

— هذا المعبد. دخلته هذه الليلة، وحدي. عشرون دقيقة في الظلام أمام تلك الأعمدة. لا أعرف ماذا فهمت. لن أنساه. — أخذ اللجام. — نلتقي في أسوان.

حين تحرك الرتل، عاد دونون ليرى اللوحة المكسورة. كانت قد اختفت. شخص ما — ليس لاشيز، فالضابط الذي وُجِّه إليه تنبيه كان تحت المراقبة — حملها مع ذلك. قدّم إفادة مكتوبة إلى ديزيه. فحفظ ديزيه القضية دون متابعة. لم يكن لدى دونون شاهد ولا اسم ولا دليل. كانت اللوحة في أمتعة أحدهم بين كوم أمبو وأسوان.

وفي ذلك اليوم، على مسافة ساعة سير من كوم أمبو، حوّل جوليوا حصانه نحو مصلّى صغير من الحجر الرملي يُرى على بعد خمسين مترًا من الطريق. كان قد انكشف جزئيًا من الرمال عند مرور كتائب الطليعة.

كانت الجدران قائمة. أما السقف الخشبي فقد انهار. وفي الداخل كانت الرسوم الجدارية ظاهرة على ثلاثة جوانب. مواكب، وآلهة في مراكب، ونقوش هيروغليفية تمتد على سجلّين. كانت الكوّات قد احتضنت تماثيل صغيرة، وقد غدت فارغة. وكانت الأرض مغطاة بشظايا من الفخار المزجّج، بقايا ما كان تماثيل صغيرة، تحطّمت وهي تُنتزع من قواعدها.

مرّ جنود من إحدى كتائب الطليعة عند الفجر، بسرعة ودون تردد. استنتج جوليوا ذلك من آثار أحذية حديثة في الرمل ومن ملاط لا يزال أبيض عند حواف الكوّات المفرغة.

شرع يصف في دفتره الرسوم الجدارية، وهي الوحيدة التي لم يمسّها أحد، لأنها أعلى من أن تُنال بسهولة. ثم شدّ انتباهه شيء ما. ففي السجل العلوي، على يمين اللوحة الثالثة، كانت كتابة بالخط المتصل تمتد على أربعة أسطر. نسخها علامةً علامة، بدقة مهووسة، في ثلاثة أرباع الساعة من العمل تحت حرارة النهار.

ستكون النسخة الوحيدة. فالمصلّى سينهار في السنوات التالية. أما الدفتر فسيبقى في المحفوظات.

دسّ جوليوا الدفتر في حقيبته وانطلق على الهرولة ليلحق بالرتل.

ترك التقدّم نحو أسوان، بعد كوم أمبو، وقتًا ضئيلًا للتوقفات. كان جوليوا يرسم وهو على ظهر الحصان ما استطاع، فيخطّ سريعًا هيئات المعابد التي تلوح له من الطريق. وكانت لهذه الرسوم السريعة حيوية لم تكن الرسوم المساحية تملكها دائمًا. ضوء لحظة بعينها، والعلاقة بين معلم ومحيطه المباشر.

— أنت ترسم كجندي يمشي، قال ضابط شاب كان يراقب جوليوا وهو يعمل. دون أن تتوقف.

— المعابد لن تنتظرني، أجاب جوليوا دون أن يرفع قلمه.

في الثاني من فبراير، بلغت الحملة أسوان. كان الشلال الأول يجعل الملاحة نحو الجنوب عسيرة. وكان الحدّ الطبيعي لمصر منذ العصور القديمة. أقام ديزيه معسكره وترك العلماء يستكشفون.

— امنحوني بضعة أيام لفيلة، قال دونون. رسمها نوردن قبل أكثر من ستين عامًا — وبشكل سيئ، فيما بيننا. نستطيع أن نفعل ما هو أفضل.

في أسوان، قبل المغادرة إلى فيلة، كان سوق الآثار الأنشط الذي لاحظه جوليوا منذ بداية الحملة. فقد انتشر في قرى المنطقة خبر عودة الجيش نحو الشمال. وجاء

البائعون من بعيد. كانوا ينصبون بضاعتهم على أطراف المعسكر منذ الفجر، بأكياسهم وصناديقهم الصغيرة. لم يعد ذلك السوق الخفيّ لوسيط واحد، بل صارت المساومة بصوت عالٍ، والسعر يتغير بحسب المشتري والبائع.

راقب جوليوا المعاملات مدة ساعة. رأى ينتقل من يد إلى يد *أوشابتي* من الخشب الملوّن، وتماثيل صغيرة من الفخار المزجّج تمثّل حورس وإيزيس وأنوبيس، وجعارين من كل الأحجام، وتمائم حجرية، وقطعة من كرتوناج مذهّب جاءت على الأرجح من تابوت، وتمثالين صغيرين من البرونز عليهما زنجار عتيق، وعدة أوانٍ من المرمر الجيري كان أحدها لا يزال بغطائه.

كانت الأسعار أعلى مما كانت عليه في دندرة أو طيبة. كان البائعون يعلمون أنها الفرصة الأخيرة. فبعد رحيل الفرنسيين، سيكون عليهم انتظار المرور التالي.

كانت الأشياء تنتقل من يد إلى يد على رنين القروش المعدودة.

5 - فيلة

في فبراير، استقلّ دونون فلوكة إلى فيلة، بصحبة حسن. جرى عبور الشلال بدفع العصي الطويلة، بين الصخور الناتئة والدوامات، وكان الملاحون النوبيون ينادون بكل ممر قبل بلوغه. ثم برزت الجزيرة. أربعمائة متر في مئة وخمسين، تشغلها المعابد البطلمية بالكامل تقريبًا.

— يا إلهي، تمتم دونون.

— الطقس كله هنا، قال دونون وهو ينهي رسم قاعة جانبية. كل حركة، وكل قربان. إذا فككنا النصوص المجاورة... عرفنا معنى كل منها.

— وذاك، أضاف وهو يشير بقلمه إلى الجناح الصغير ذي الأعمدة في طرف الجزيرة. المعابد الكبرى تسحق. أما ذاك فيُقنع.

كان كشك تراجان — سُمّي كذلك لأن نقوشه البارزة تمثّل هذا الإمبراطور الروماني في هيئة فرعون — أخفّ بناء في الجزيرة. أربعة عشر عمودًا ذات تيجان زهرية تحمل إفريزًا من الحجر الرملي الدقيق. وفي الداخل، كان أباطرة رومان من القرون الأولى يؤدّون الطقوس الفرعونية التقليدية، بالأوضاع نفسها التي اتخذها أسلافهم. كتل متواضعة الحجم، يمكن أن ينقلها بضعة رجال، ونقوش بارزة نادرة الدقة.

بقي دونون طويلًا أمام الكشك. بضع كتل مزخرفة، مفكوكة، كان ذلك ممكنًا. الحرس حاضر، والجنود قادرون على الحمل، وحسن قادر على التفاوض مع الملاحين على نقلها إلى أسوان. وسيكون ذلك قانونيًا، فاستمارات اللجنة في حقيبته. ولا تزن أي كتلة أكثر من بضع مئات من الكيلوغرامات.

قرّر ألا يفعل.

لا عن مبدأ أخلاقي. فهو لم يعد يمنح نفسه هذه الفضيلة بعد ما أخذه منذ دندرة. بل لأنه لم يرد أن تشبه فيلة المواقع الأخرى حين يأتي إليها غيره. ولأن شيئًا في هذه الخفة المعمارية، وفي هذه الأناقة على مقياس الإنسان، كان يطلب أن يبقى كاملًا. فبلا كتله لن يعود الكشك ما كان، جناحًا، وحوارًا بين الأروقة والسماء، بل أطلالًا بين الأطلال.

كانت المرة الأولى منذ مغادرته القاهرة التي يتخذ فيها هذا الخيار عن وعي، مسمّيًا الأسباب، وازنًا إياها. كتبه في يومياته مساء ذلك اليوم، لشدة ما بدا له الفعل غير معتاد. «فيلة. الكشك. قررت ألا آخذ. لا عن تحرّج. بل رفضًا لتدمير ما يمسّني.»

كانت الصخور المحيطة بفيلة تحمل نقوش حجّاج قدماء. أسماء، وتواريخ، وصلوات. نسخ دونون عددًا منها، مدوّنًا موضعها وحالة حفظها، ثم نسخ الباقي، حتى أقلها وضوحًا، حتى تلك التي محا الفيضان نصفها. وكانت الشمس تسخّن الحجر إلى حدّ أنه اضطر إلى وضع دفتره على ركبته.

ـــ هذه أفضّلها على المعابد، قال حسن. حجّاج عاديون. جاؤوا يصلّون لإيزيس فنقشوا أسماءهم. لا للأجيال القادمة. بل... ليكونوا قد مرّوا.

ـــ مثل دفاترنا، قال دونون. مررنا من هنا، ورأينا هذا. إلا أننا نسمّي ذلك علمًا.

ـــ وألسنا نمارسه؟

أخذ دونون وقته لينفخ على الصفحة ويطرد عنها الرمل.

ـــ نعم. لكننا نترك آثارًا أخرى. الكوّات الفارغة. الصناديق على ظهور البغال. هذه... لن يجدها أحد في أي تقرير.

في الخامس والعشرين من فبراير، غادر دونون أسوان على ظهر حصان مع الرتل. كانت الأمتعة والصناديق تنزل على المراكب، وكان ستون فارسًا من الحرس يسيرون بمحاذاتها على الضفة. وكان ديزيه، المنطلق في أثر مراد بك، قد عهد بالرتل إلى بيليار. نحو تسعمائة كيلومتر تفصل دونون عن القاهرة، التي لن يراها قبل الصيف. وكان حسن يسافر معه مترجمًا. وكانت القوات تسلك في الاتجاه المعاكس طريق الصعود.

تسعة أيام حتى أرمنت. كان الرتل ينحدر مع النهر بمعدل عشرين كيلومترًا تقريبًا في اليوم، متوقفًا في القرى لأخذ الماء والمؤن. قرابة ثلاثين درجة في الظل. وكانت المسيرة من الفجر حتى الظهر، ثم تُستأنف بعد الرابعة، وكان الجنود يمكثون في أثناء ذلك تحت الخيام، حيث لا يدع الذباب أحدًا ينام.

قرب قرية لم يكن أحد يعرف اسمها، انهار جندي أثناء المسير. ضربة شمس. حملوه إلى ظل نخلة. سقاه كبير الجرّاحين وبلّل رأسه بماء النيل. أفاق الرجل بعد ساعة لكنه لم يقدر على المشي. حملوه على بغل. ومات في الليل. دفنوه عند الفجر في الرمل على بعد مئة متر من المعسكر. لا صليب ولا لوح. دوّن الرقيب الاسم والتاريخ في سجل السرية.

بين كوم أمبو وإدفو، تعارك جنديان على تمثال صغير من الفخار المزجّج اشتُري من السوق. زعم الأول أنه رآه قبل الآخر، وكان الثاني قد دفع ثمنه. تشابكا بالأيدي أمام خيمة الرقيب الأول. فخرج هذا، وفرّق بينهما، وصادر التمثال، ووضعه في كيسه. احتجّ الرجلان. قال الرقيب إن الشيء صار ملكًا للسرية، وإن أول من يعاود الحديث عنه ينال عشرة أيام من الخدمة الشاقة. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

بعد أيام قليلة، عبر الرتل قرية مهجورة. ثلاثون بيتًا من الطوب اللبن، كلها خالية. لا آثار قتال. كان السكان قد غادروا المكان قبل وصول الجيش. أمر ملازم بتفتيش البيوت. عُثر على جرار مدفونة في ثلاثة أفنية مختلفة. حبوب وتمر وزيت. وأُضيفت الجرار إلى المصادرات. وفي بيت رابع، عُثر على مخبأ تحت الأرض يحوي ستة جعارين من الفخار المزجّج، وثلاثة أساور نحاسية، ومرآة برونزية. أعطى الملازم الجعارين للنقيب، واحتفظ بالأساور، وترك المرآة للجنود الذين عثروا على المخبأ.

في آخر العصر، وبينما كان الرتل يقترب من مضيق الكاب، وصل فارس يعدو من الطليعة وقد غطّت الرغوة حصانه. كان يبحث عن الجنرال بيليار. قادوه إلى رأس الرتل. تكلم بسرعة. فأشار بيليار إلى الضباط أن يقتربوا.

— حاجز على الطريق. فلاحون مسلحون. نحو عشرين رجلًا. يسدّون الممر عند المضيق.

— هل يطلبون شيئًا؟

— لا يتكلمون الفرنسية. لم يستطع المترجم الاقتراب. أطلقوا النار في الهواء.

فكّر بيليار بضع ثوانٍ.

— هل نلتفّ من الشرق؟

— مستحيل. الأرض غير سالكة. سنحتاج إلى ثلاثة أيام من الالتفاف.

— حسنًا. نشقّ الطريق بالقوة. الفرسان في المقدمة، والمشاة خلفهم. أما أنت يا دونون فابقَ في وسط الرتل مع البغال.

استأنف الرتل مسيره. وبعد ساعة، بلغوا المضيق. كان الفلاحون هناك، مسلحين بالعصي والرماح وبعض البنادق القديمة. كانوا واقفين عبر الطريق، لا يتحركون.

تقدّم بيليار بالفرسان بخطًى متمهّلة. لم يتحرك الفلاحون. وعلى بعد خمسين مترًا، رفع بيليار يده. فتوقف الفرسان. وأشار إلى حسن أن يقترب.

— قل لهم إننا نريد المرور فقط. لن نمسّ شيئًا. ولن نصادر شيئًا في قريتهم.

تقدّم حسن ماشيًا، وحده، ويداه مفتوحتان أمامه. تكلم بالعربية. فأجابه أحد الفلاحين. عاد حسن.

— يقولون إن الجيش أخذ كل حبوبهم قبل أسبوعين. لم يبقَ لديهم شيء. ويريدون أن نردّ لهم الحبوب أو أن ندفع.

— لم نأخذ شيئًا قبل أسبوعين. لم نكن نحن.

— يقولون إنهم كانوا جنودًا فرنسيين. إنهم لا يفرّقون بين المفارز.

بقي بيليار صامتًا لحظة. ثم أخرج كيسًا من سرجه ورماه إلى حسن.

— خمسة وثلاثون قرشًا. قل لهم إن هذا كل ما أملك. وإن أرادوا أكثر، فعليهم أن يدعونا نمرّ على أي حال.

مضى حسن بالكيس. وكلّم الرجل نفسه. أخذ الرجل الكيس، ووزنه بيده، وتشاور مع اثنين آخرين. ثم تنحّوا عن الطريق دون كلمة. مرّ الرتل. وراقب الفلاحون الجنود يمرّون في صمت. وحين مرّت آخر عربة، عاد الفلاحون إلى قريتهم.

في أرمنت، توقف الرتل يومين. أراد بيليار انتظار أخبار المماليك والمكّيين وبقية الجيش المبعثر في مواقع عدّة. نُصب المعسكر عند سفح المعبد. وكان الجنود ينامون في ظل جدرانه. بعضهم يصعد إلى الأسطح ليرى النيل، وآخرون لا يغادرون الخيام، أشدّ إرهاقًا من أن يتحركوا، وأحذيتهم ما زالت في أقدامهم.

في مساء الوصول، سرق جندي من السرية الثانية حصة الخبز لجندي آخر أثناء التوزيع. انتبه المسروق، فلحق باللص، وحطّم له سنّين بلكمة. فردّ اللص وسحب سكينه. احتاج الأمر إلى أربعة جنود للفصل بينهما. وضعهما الرقيب في الأغلال طوال الليل. وفي صباح اليوم التالي، حاكمهما النقيب. نال اللص عشرين ضربة بالعصا. وأُطلق المسروق دون عقوبة.

في المساء التالي، استدعى بيليار الضباط إلى خيمته. كان جواسيسه قد عادوا للتو. قيل إن عثمان بك والمكّيين على وشك عبور النيل عند قنا؛ ومعهم مدفع، وقد دمّروا أسطول النيل، وإن ديزيه، الذي مضى في أثر مراد بك، لا يمكن الاتصال به. وكان بونابرت قد غادر إلى سوريا مع معظم الجيش. وكان لا بد من السير إلى العدو بأسرع ما يمكن. وضع بيليار إصبعه على الخريطة، عند قنا.

— لا توقفات بعد أرمنت. قوص، ثم قنا. ثلاثة أيام على الأكثر.

— وطيبة؟ سأل ملازم. كان العلماء يريدون...

— نمرّ أمامها.

لم ينتظر دونون، وكان حاضرًا، أن يُؤذن له بالكلام.

— إذن توقف هنا، غدًا صباحًا. معبد أرمنت. ست ساعات.

— مستحيل.

— ست ساعات، يا جنرال. لا أطلب شيئًا آخر.

نظر إليه بيليار طويلًا، ثم طوى الخريطة.

— ست ساعات عند المعبد، غدًا، منذ الفجر. ولا ساعة زائدة. وإن لم تعد عند الظهر، رحلنا دونك.

في اليوم التالي، منذ الفجر، توجّه دونون إلى المعبد مع حسن وجنديين من الحرس. مضى مباشرة إلى القاعة الأخيرة، المطمورة نصفها بالرمال، في نهاية الممر الرئيسي. كان الرمل يصرّ تحت نعليه. وعلى الجدار الغربي، صفوف من الخراطيش المنقوشة، وعشرات من أسماء الملوك مصطفّة في سجلّات.

بقي واقفًا أمام الجدار ساعتين، يتأمل نقوشًا لا يعرف قراءتها. وكان حسن قد جلس على الأرض قرب المدخل. وفي الخارج، كان الجنديان يلعبان النرد.

دخل رجل القاعة. فلاح في الأربعين من عمره تقريبًا، بعمامة بيضاء ونعلين من الجلد. كان يحمل صرّة ملفوفة في قماش خشن. اقترب من دونون، وفتح القماش أمامه. قطعة من الحجر الجيري طول ضلعها أربعون سنتيمترًا تحمل ثلاثة خراطيش كاملة.

أشار الرجل إلى القطعة. خمسة أصابع مرفوعة.

— خمسة قروش.

رفع دونون عينيه نحو الجزء الأعلى من الجدار، الذي كان الظلام الخافت قد أخفاه عنه حتى ذلك الحين. حفرة جديدة في الصف السابع عشر، حيث كانت هذه الخراطيش الثلاثة. كانت حواف الحجر الجيري بيضاء، مقطوعة حديثًا. كان الرجل قد اقتطع القطعة في الليل أو في الصباح الباكر.

أخرج دونون خمسة قروش من كيسه ودفعها إلى الرجل. ووضع القطعة في حقيبته الجلدية. أخذ الرجل المال ومضى.

لم يغادر دونون القاعة بعد ذلك. وفي الحادية عشرة والنصف دخل أحد الجنود راكضًا، لاهثًا.

— سيدي، الجنرال يأمر بإسراج الخيل.

خرج من المعبد. كان الرتل قد اصطف للمسير. امتطى جواده ولحق بالمقدمة عدوًا، والحقيبة تضرب فخذه. نظر إليه بيليار وهو يمر دون أن يعلّق بشيء. وانطلق الرتل.

عبر الرتل طيبة بعد الظهر نفسه دون أن يتوقف فيها. رأى دونون أبراج الكرنك والأقصر تنزلق من بعيد، دون أن يتمكن من قياس أيٍّ منها، وترك هناك من الأسف أكثر مما ترك في أي مكان آخر على الطريق. وكانت الأخبار تتداول متناقضة. الجيش التركي يتقدم والإنجليز يحاصرون جميع الموانئ، يقول أحدهم. وكان الآخر يقسم على العكس.

ثم كانت معركة بنوت، واستعادة قنا، ورحلة ثانية إلى دندرة، والزحف نحو القصير مع بيليار في نهاية مايو. غادر دونون الصعيد في 5 يوليو ولم يرَ القاهرة إلا في العشرين منه. أُسكن الجنود في ثكنات القلعة. أما هو فقصد مباشرة الملحق الشمالي من قصر حسن كاشف، حيث كانت أمتعة اللجنة.

كان المخزن مغلقًا. انتظر ساعة حتى جاء قيّم بالمفتاح. رائحة تبن وغبار ساخن. كانت صناديقه الاثنا عشر هناك، محسوبة ضمن الصناديق الستة والتسعين في الجرد، مصفوفة بمحاذاة الجدار الجنوبي، وعليها بطاقات بخط يده. فتح أولها، وتحقق من محتواه سريعًا، ثم أغلقه. لم ينقص شيء. توجه إلى القصر.

استقبله الجنرال دوغا، الذي كان يتولى قيادة القاهرة، على الفور، واقفًا قرب طاولة تغطيها خرائط الدلتا وساحل أبو قير. إيماءة نحو كرسي.

— هل أنهيتَ حملتك في صعيد مصر؟

— نعم. من دندرة إلى أسوان. جميع الآثار الرئيسية.

— هل رسومك صالحة للاستخدام في *وصف مصر*؟

— ثلاث وخمسون ورقة. معابد ومقابر وتماثيل ضخمة ونقوش بارزة.

— جيد. أصغِ إليّ. القائد العام رحل لإيقاف الجيش التركي الذي نزل للتو في أبو قير، قبل أن يصل إلى هنا. أوامره لا تتغير. تبقى في القاهرة. تنسّق عمل المجمع مع مونج وبرتوليه. استكشافات الدلتا مستمرة. وحفريات سقارة مستمرة. و*وصف مصر* مستمر. مفهوم؟

— مفهوم.

— إذا نزل الإنجليز هم أيضًا في غيابه، فأخلِ المجموعات نحو الجنوب، نحو الصعيد الذي لا يزال الجيش ممسكًا به. تخسر كل شيء إلا هذه. واضح؟

— واضح.

— إذن اخرج. لديّ عمل.

كان دوغا منحنيًا على خرائطه بالفعل حين أغلق دونون الباب.

كان بونابرت، العائد من سوريا في منتصف يونيو، قد غادر القاهرة قبل أيام قليلة متجهًا إلى الساحل. وبقي دونون في القاهرة مع مونج وبرتوليه وفوروييه ونحو ثلاثين عالمًا بقوا في المكان.

في غياب بونابرت نظّم دونون عمل المجمع. كان مونج يشرف على استكشافات منطقة منف، وبرتوليه يدوّن ملاحظاته عن النطرون، وجوفروا سانت هيلير يواصل دراساته الحيوانية في الدلتا. وكان فوروييه يتولى المراسلات مع فروع الأقاليم.

بعد أيام قليلة من عودته، دعا دونون إلى اجتماع. جاء جميع الأعضاء الموجودين في القاهرة. ثلاثون عالمًا ومهندسًا تزاحموا في القاعة الكبرى، والنوافذ مفتوحة على الحر. افتتح الجلسة في العاشرة.

— أيها السادة، بونابرت على الساحل، حيث نزل الأتراك. ليست لدينا أخبار دقيقة. والإنجليز ما زالوا يسيطرون على البحر المتوسط. أقترح أن نعدّ خطة للنقل، تحسبًا لسنوح فرصة.

رفع مونج يده، وتكلم قبل أن يُعطى الكلمة.

— لننتظر بونابرت، بالله عليكم! هو من سيقرر، فهو يقرر دائمًا، وهو على أي حال يحب أن يُنتظر...

— وإن لم يعد؟ قال فوروييه، دون أن يرفع عينيه عن أعمدة أرقامه.

لم يجب أحد. نزع برتوليه نظارتيه.

— دونون محق. إعداد خطة لم يُغرق سفينة قط. يوم تتوفر لنا سفينة سنكون مستعدين. إن جاء ذلك اليوم أصلًا.

أُقرّ الاقتراح. ورُفعت الجلسة عند الظهر.

من سوريا، أعاد بونابرت أقل من عشرة آلاف من الرجال الثلاثة عشر ألفًا الذين رحلوا معه، أما الباقون فقد ماتوا أو مرضوا أو أصيبوا بالطاعون. كان الهجوم قد أخفق، وكان الجميع في المجمع يعلمون ذلك دون أن يقولوا.

بعد أيام قليلة، أمر دوغا باستدعاء دونون إلى القصر مجددًا. ملامح متعبة، وربطة عنق محلولة، وخرائط مكدسة حتى على الكراسي. لا تحية.

— خطتك للنقل؟

— جاهزة، على الورق. لا ينقصها سوى السفن.

— ستبقى كذلك. الإنجليز ما زالوا يحاصرون الساحل. لا نقل ما دام ذلك لم يتغير.

— مفهوم.

كان دوغا قد عاد إلى خرائطه.

كانت تلك الأسابيع هادئة. استمرت الاستكشافات والحفريات، وتقدّم *وصف مصر* ببطء. وفي المساء، على الشرفات، كان الناس يترقبون سعاة البريد القادمين من الساحل.

6 - حجر رشيد

في 15 يوليو 1799، كان ملازم في سلاح الهندسة يدعى بوشار يشرف على هدم جدار قديم في حصن جوليان، قرب رشيد. اصطدم معول بشيء ما.

كان بوشار في الثامنة والعشرين، وقد تخرج للتو من البوليتكنيك. أدرك على الفور أنها ليست حجرًا عاديًا من حجارة البناء. لوح من حجر أسود، ارتفاعه مئة واثنا عشر سنتيمترًا، يحمل ثلاث كتابات متوازية. أمر بوضع الحجر في مأمن داخل الحصن، وأبلغ الجنرال مينو، قائد الموقع، وكتب لانكريه، الذي كان بدوره من خريجي البوليتكنيك وكان آنذاك في رشيد، إلى المجمع العلمي المصري في القاهرة.

كان الحصن بعيدًا عن الأوراش الجارية. وتحت قماش، إلى جانب جدار، كان الحجر هناك في أمان.

أُرسل جان جوزيف مارسيل وريمي ريج إلى رشيد فور قراءة رسالة لانكريه في المجمع. كان مارسيل مستشرقًا متخصصًا في اللغات السامية. وكان ريج متخصصًا في الدراسات اليونانية، يقرأ اليونانية القديمة بطلاقة. ومنذ الأول من أغسطس فحصا الحجر من جميع زواياه.

كان النص اليوناني، الواقع في الجزء السفلي من اللوح، محفوظاً حفظاً جيداً نسبياً. قرأه ريج بصوت عالٍ بينما كان مارسيل يدوّن الملاحظات.

— هذا المرسوم يكرّم بطليموس الخامس الفتى. إعفاءات ضريبية للمعابد، وهبات للكهنة. من النوع الذي يُنقش بثلاث لغات ليتأكد المرء أن الجميع يعلمون به.

بلّل مارسيل ورقة رقيقة جداً وضغطها برفق على السطح المكتوب بكتلة قطنية مشبعة بحبر مخفف. وكانت النتيجة طبعة دقيقة، بيضاء على أرضية سوداء، لكل علامة. وكانت العملية تستغرق عدة ساعات للسطح كله.

رسالة لانكريه، التي قُرئت في المجمع في 29 يوليو، كانت قد أوحت بأن الكتابات الثلاث هي ثلاث نسخ من نص واحد، إحداها مقروءة. وجاء تقرير مارسيل وريج فأكّد ذلك. ولم يكن دونون قد رأى حمى كهذه منذ الوصول إلى الإسكندرية قبل عام.

فإذا أتاح الحجر فك رموز الهيروغليفية، عادت ثلاثة آلاف سنة من التاريخ مقروءة، ومعها كل ما نسخه الرحالة دون أن يفهموه منذ قرنين.

ـــ أيها السادة، قال دونون للمجمع في المساء الذي قُرئت فيه رسالة لانكريه، ربما نكون... أعني، أعتقد أننا على أعتاب ثورة علمية.

كان مونج قد اقترح على الفور إرسال بعثة إلى رشيد.

ـــ قوالب من الجبس! وطبعات على الورق، بقدر ما نستطيع... وبسرعة، يا أصدقائي، قبل أن يلحق به أحد ضررًا أو ينقله.

حضر جومار، الذي رافقهما في الرحلة من القاهرة، الطبعات الأولى.

كان حجر رشيد يبلغ ارتفاعه مئة واثني عشر سنتيمتراً، وعرضه ستة وسبعين سنتيمتراً، وسمكه ثمانية وعشرين سنتيمتراً. ووزنه المقدّر انطلاقاً من الحجم والكثافة المعروفة للغرانوديوريت نحو سبعمئة وستين كيلوغراماً. أخذ جومار هذه القياسات بنفسه، دون أن يكون عليها أن تفيد على الفور، والشريط الجلدي مشدود من حافة إلى أخرى، مرتين لكل قياس.

كان اللوح ناقصًا. فقد ضاع أعلاه، منتزعًا في عصر غير معلوم. ولم يبق من السطور الهيروغليفية سوى الأربعة عشر الأخيرة، وهي أيضًا مبتورة. وكان نحو نصف النص الهيروغليفي مفقودًا، بينما كان الديموطيقي شبه كامل. وسيتضرر من ذلك من سيفك الرموز مستقبلًا. لكن النص اليوناني، رغم كسر في الأسفل إلى اليمين، ظل مقروءًا في معظمه، وكان ذلك يكفي للعمل.

ـــ اليوناني، في الأسفل، نستطيع قراءته فوراً، قال مارسيل. إنه مرسوم من مجلس كهنة منف في السنة التاسعة من حكم بطليموس الخامس إبيفانس. سنة مئة وست وتسعين قبل الميلاد.

ـــ والهيروغليفية؟ سأل جومار.

ـــ على الأرجح النص نفسه. أعني... هذا ما نأمله.

ـــ إن كان الأمر كذلك، قال جومار، فيمكننا أن نبدأ بإقامة التطابقات. لكل كلمة يونانية ما يعادلها بالهيروغليفية. بمقارنة أطوال مجموعات العلامات، وتحديد التكرارات...

ـــ بالضبط. لكن احسبوا بالسنين.

أخذ جومار قلماً وشرع في دفتره يدوّن تواتر بعض مجموعات العلامات في الشريط الهيروغليفي. كل علامة، تُرصد وتُعدّ وتُدرج في جدول. لم يكن التوزع عشوائياً.

ـــ انظر. هذه المجموعة من العلامات، المحاطة بخرطوش، تظهر ست مرات في الجزء المحفوظ من الهيروغليفية. واسم بطليموس يظهر إحدى عشرة مرة في النص اليوناني... لكن جزءًا من النص المصري مفقود.

توقف مارسيل عن العمل ونظر.

ـــ هذا ممكن. بل هو شديد الاحتمال. لكن التطابق علامة بعلامة ليس بالضرورة مباشراً. فالكتابة الهيروغليفية ليست أبجدية على الأرجح.

ـــ نعم. لكنها نقطة انطلاق.

سطّر جومار مرتين تحت الخرطوش في دفتره.

ساعد جومار مارسيل على شدّ آخر ورقة طبعة على القسم الديموطيقي. كان الليل متقدماً. وكان المصباح يدخّن. وفي الخارج كان ميناء رشيد نائماً.

عاد جومار لرؤية الحجر ثلاث مرات في الأيام التالية، في رشيد.

في المرة الأولى أحضر شريطه الجلدي وقاس كل ما يمكن قياسه. وفي الثانية أحضر دفتر التواترات وعدّ مجموعات العلامات في الشريط الهيروغليفي، وأنشأ جدول توزيع. وفي الثالثة لم يحضر شيئاً. جلس قبالة الحجر على مقعد صغير. كان الغرانوديوريت بارداً معتماً. بلا لمعان ولا لون. لوح داكن، قبيح بالمعنى المألوف للكلمة. وضع يديه مسطحتين على ركبتيه وأجبر نفسه على ألا يحسب. أن ينظر فقط. وكان السطح يحمل آثار الإزميل ظاهرة في بعض الحروف. لقد نقش أحدهم هذا حرفاً حرفاً، طوال ساعات. وذلك العمل كان حاضراً هناك. باقياً. كما ينظر المرء إلى خريطة لا يفهم لغتها بعد، لكنه يرى أن الطرق مرسومة فيها.

كان ما يراه، وهو جالس هناك، هو ما يفصل هذا الحجر عن كل ما جمعته اللجنة أو حاولت جمعه منذ أكثر من عام. *الأوشابتي* والجعارين وأوراق البردي وشظايا النقوش البارزة، كان الناس يأخذونها لأنها جميلة ونادرة وقديمة.

لم يكن للحجر جمال. ولم تكن قيمته إلا فيما يقوله، تطابق بين ثلاث كتابات، إحداها مقروءة والاثنتان الأخريان لم تصيرا كذلك بعد. وبالنسبة إلى من يعمل على فك الرموز، كانت ورقة طبعة لا تزال متموجة تعادل الحجر.

التمثال *الأوشابتي* الخارج من قبره يفقد سياقه. أما هذه، المستخرجة من جدار تحصين، فلا تفقد شيئًا. فمنذ ألفي عام لم يعد لها سياق.

ـــ ما زلت هنا، قال مارسيل وهو يدخل. هذه المرة الثالثة هذا الأسبوع.

ـــ أفكر. الأشياء التي نحملها تفقد شيئًا. أما هذه... فلا أرى ما الذي يمكن أن تفقده.

جلس مارسيل إلى جانبه.

ـــ إلا أن يستولي عليه الإنجليز.

ـــ نعم. إلا ذلك. لكن حتى حينئذ تبقى الطبعات. وما تقوله يبقى. ربما كان الشيء الوحيد في الحملة كلها الذي لا يمكن أن... يُسرق حقًّا.

كان مارسيل قد اتخذ قراراً دون أن يخبر أحداً.

وإلى جانب الطبعات الرسمية المنجزة في رشيد، صنع ثلاثين طبعة إضافية، لا للمجمع ولا من أجل *وصف مصر*، بل لتوزيعها. وأعدّ خمسًا منها لمراسلين أوروبيين، بواقع واحدة إلى لندن، واثنتين إلى باريس، وواحدة إلى برلين، وواحدة إلى كوبنهاغن، على أن يحملها عبر الحصار ضابط عائد إلى فرنسا، ربما كان مساعدًا لبونابرت. خمسة علماء يعملون على اللغات القديمة، وقد يتعرفون فيها، مع شيء من الحظ، على شيء ما.

واحتفظ بخمس وعشرين منها احتياطاً. فإن استولى الإنجليز على الحجر، وإن اقتضى الأمر أن يجري فك الرموز في لندن، فإن هذه الطبعات ستتيح للفرنسيين العمل بالتوازي. وسيكون السباق متكافئاً.

ـــ لقد وزعتَ المفتاح قبل أن تفتح القفل، قال دونون حين علم بذلك.

ـــ وزعتُ نسخاً من المفتاح. أما القفل فيبقى هنا. وإن أخذ الإنجليز القفل، فستبقى لنا نسخنا.

أثار إعلان الاكتشاف، ثم عودة مارسيل وريج، اجتماعًا استثنائيًا للمجمع في 8 أغسطس. جاء جميع الأعضاء الموجودين في القاهرة. وترأس مونج الجلسة. وعرض دونون طبعات مارسيل والتقرير التقني الذي أعدّه ريج عن النص اليوناني.

كانت القاعة ممتلئة. نحو ثلاثين من العلماء والمهندسين وعلماء الطبيعة. وبعضهم لم يحضر جلسة منذ أشهر. فقد أخرجهم حجر رشيد من مختبراتهم ومواقع عملهم وبعثاتهم في الدلتا.

تكلم برتوليه بعد العرض.

ـــ إذا أتاح هذا الحجر فك الرموز... أقول إذا، وأعني ذلك... فسيصير في متناولنا أرشيف ثلاثة آلاف عام. قوائم الملوك وأخبار المعارك والنصوص الدينية. وكل ما هو منقوش على الآثار التي نرسمها منذ أكثر من عام سيصبح مقروءًا.

رفع جوفروا سانت هيلير، الذي لم يكن يتدخل قط في النقاشات الفيلولوجية، يده.

ـــ كم من الوقت سيلزم لفك الرموز؟ على وجه التقريب.

أجاب مارسيل من آخر القاعة.

ـــ سنوات. ربما عشر. ربما عشرون. الكتابة الهيروغليفية ليست أبجدية. وليست مجرد استبدال حرف بحرف.

ـــ لكنه ممكن، قال جومار. لدينا التطابق. والباقي عمل.

طلب مهندس من سلك الجسور والطرق يدعى شابرول الكلام.

ـــ سؤال عملي. إذا نزل البريطانيون، فسيكون هذا الحجر هدفهم الأول. إنهم يعرفون قيمته. هل لدينا خطة؟

خيّم الصمت على القاعة. سعل أحدهم في الخلف. لم يكن أحد قد صاغ السؤال بهذه المباشرة من قبل.

نظر مونج إلى دونون.

ـــ الطبعات تسافر، قال دونون. مارسيل أعدّ منها خمسًا إلى أوروبا. ولدينا خمس وعشرون في الاحتياط هنا. وإن استولى البريطانيون على الحجر، فسيجري فك الرموز في باريس على النسخ.

ـــ وإن فقدنا الطبعات أيضاً؟

ـــ حينئذ نكون قد خسرنا.

لم يكن الجواب يرضي أحدًا، لكنه لم يكن هناك جواب آخر. فالوضع العسكري كان يفلت منهم، وكان مونج قد شرع يسحب المحبرة نحوه.

صاغ مونج قرارًا رسميًا يقضي بأن يُنقل حجر رشيد إلى القاهرة في أقرب وقت ممكن، وأن يُحفظ في المجمع تحت رقابة دائمة، وأن يُستنسخ بالطبع كلما اقتضت الحاجة، وأن يدرسه مارسيل وريج على سبيل الأولوية. وأُقرّ بالإجماع.

بقي دونون بعد الجلسة. كان يساعد في ترتيب الكراسي حين دخل فورييه حاملاً رزمة أوراق.

ـــ هل قرأتَ آخر رسالة؟

ـــ لا.

ـــ كليبر، في الإسكندرية، لا يزال يطالب بالمدد. ولا أحد يجيبه. منذ سوريا، والجميع يتصرف كأنما... كأنما الجيش قد تعافى.

وضع الكرسي الذي كان يمسكه.

ـــ ونحن، نجد مفتاح الهيروغليفية.

ـــ نعم. منحنيان. العلم يصعد بينما تنهار الحملة.

قالها فورييه دون مرارة، كمن يقرأ كشفًا.

عاد دونون إلى الطبعات ونشرها على الطاولة الكبرى للمجمع. الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل. تتبّع بإصبعه سطر العلامات الهيروغليفية. طيور وثعابين وعيون وأيدٍ. أشكال نسخها مئة مرة في دندرة وطيبة وفيلة دون أن يعرف قط ما تقوله.

فكر في بونابرت. العائد من سوريا منذ يونيو، والمتجه ربما بنظره إلى فرنسا، والذي يجهل أن علماءه عثروا للتو على ما لم يعثر عليه أحد منذ ألفي عام.

في 9 أغسطس، قضى جومار اليوم بطوله مع الطبعات. كان قد أحضر دفاتر مسوحاته من الجيزة وسقارة، مغطاة بخراطيش رسمها في الأشهر السابقة. وكان يستعيد فيها الفرضية التي دوّنها من قبل في رشيد، فرضية أن الخراطيش تحمل أسماء، وهي فرضية شائعة بين الرحالة منذ القرن الثامن عشر.

هذه المرة، صار بوسعه أن يتحقق منها على الأصول.

ظل إحصاء رشيد صامدًا، إحدى عشرة مرة بطليموس في اليونانية، وستة خراطيش في الشريط المبتور. وبيّض المطابقة في دفتره : «الفرضية. الخرطوش يساوي اسمًا علمًا. فإن تأكدت، فإن كل الخراطيش على آثار مصر تحتوي أسماء فراعنة أو آلهة».

قبل عام، كانت الفكرة تتجول في كتب الرحلات؛ أما الآن فقد صارت قائمة على إحصاء، في صفحة دفتر ملطخة بالسخام.

واستمرت الاستكشافات. فالحجر لم يوقف ما سواه.

ولا الحرب.

في العاشر من أغسطس، مرّ ضابط بالمجمع ليعلن الحصيلة الرسمية لمعركة أبو قير في الخامس والعشرين من يوليو. فقد سحق بونابرت الإنزال العثماني على الشاطئ. عشرة آلاف إنكشاري بين قتيل وغريق، وأُسر الباقون. نصر واضح، بعد إخفاق سوريا، وكان جيش الشرق ممسكًا بمصر. غير أن أبو قير، مهما بلغ بريقها، لا تغيّر شيئًا من عزلته.

وعلم دونون بالخبر من كليبر، الذي جاء من الإسكندرية ليوم واحد.

— هل يعود بونابرت إلى القاهرة؟

— نعم. بعد أيام قليلة، وربما أقل. لم يكتب شيئًا واضحًا. لكن الجيش منهك تمامًا. هذا مؤكد.

— وبعد ذلك؟

— بعد ذلك سنرى. فإما أن يوطّد أركان مصر، وإما أن يعود إلى فرنسا.

لم يسمّ كليبر الاحتمال الثالث. فقد كان بوسع بونابرت أيضًا أن يواصل خسارة رجاله في حملات عديمة الجدوى حتى لا يبقى شيء من جيش الشرق.

نظر كليبر إلى الطبعات المنشورة على طاولة المجمع.

— أهذا هو حجركم؟

— هذا هو.

— وماذا يقول؟

— مرسوم بشأن ضرائب المعابد. لا شيء عسكري.

ابتسم كليبر.

— وجدتم مفتاح مصر القديمة بنص عن الضرائب. هذا يعجبني.

وعاد إلى الإسكندرية مساء اليوم نفسه. ولن يراه دونون بعد ذلك أبدًا.

في الثاني عشر من أغسطس، وصلت رسالة من رشيد تعلن أن الحجر جاهز للنقل. وكان بوشار قد أشرف على صنع صندوق مدعَّم. ونُظِّمت القافلة العسكرية. والمغادرة مقررة في الرابع عشر.

وكتب دونون إلى بوشار مذكرة : «النقل عن طريق النهر إن أمكن. تجنّبوا هزات الطريق. وإن لزم النقل البري فليكن التعليق بأقصى ما يمكن. يجب ألا يتشقق الحجر».

وأجاب بوشار في اليوم التالي : «الطريق النهري مستحيل. فقد صودرت كل القوارب لنقل جرحى أبو قير. نقل بري مع قش مضاعف تحت الصندوق. ثلاثة أيام من الطريق. الوصول المتوقع 17 أغسطس».

وفي مساء السابع عشر من أغسطس، دخلت القافلة فناء المجمع. خمسة عشر جنديًا للحراسة، وثلاث عربات. وكان الحجر في العربة الثانية، ملفوفًا بالقماش، مشدودًا بالأحزمة على فراش من القش.

أنزله دونون ومارسيل وجومار وستة جنود. سبعمئة وستون كيلوغرامًا. احتاج الأمر إلى روافع وحبال ومنحدر ارتجالي، وبضع شتائم. واستغرقت العملية ساعة. وفي النهاية استقر الحجر على قاعدة خشبية في القاعة الرئيسية للمجمع، عند الجدار الشرقي.

نزع مارسيل القماش. فظهر الغرانوديوريت الأسود بأشرطة الكتابة الثلاثة المحفورة عليه.

— ولا شق واحد، قال جومار وهو يفحص السطح.

ثم نُصب تحت مصباح زيتي لا ينطفئ. وحارسان يقفان ليل نهار. ولا أمر مكتوب. فقد فهم الجميع أن هذا الحجر يجب ألا يضيع.

وفي صباح اليوم التالي عاد دونون لرؤية الحجر. كان وحده. والمجمع لا يزال نائمًا. وكان المصباح يلقي ضوءًا أصفر على الغرانوديوريت. وكانت الرموز الهيروغليفية ترسم ظلالًا صغيرة في تجاويفها.

وضع يده على السطح البارد. لم تكن الحركة تجدي شيئًا. وفعلها رغم ذلك.

سيقرأ أحدهم يومًا هذا النص كما تُقرأ اليونانية، وستخرج أسماء الفراعنة من خراطيشها.

سحب يده.

7 - مفاوضات ونصر ومقتل كليبر

في مساء الثامن عشر من أغسطس، رأى دونون مصادفةً بونابرت يعبر فناء المجمع وحده. بلا ياور، بلا حرس. كان يحمل شيئًا في يده. كتابًا، لا خرائط. وكان يمشي بسرعة، كمن لا يريد أن يراه أحد.

راقبه دونون من مدخل باب. كان في تلك الهيئة المتعجلة لهفة لم يعهدها فيه، تشبه الفرار، أقل مما هي فرار من خطر، وأكثر مما هي فرار من وضع صار أصغر من أن يسعه.

دار عند زاوية الفناء واختفى.

فكّر دونون في الكتاب الذي كان بونابرت يحمله. شيء عن روما غالبًا، أو عن الإسكندر.

وبعد ساعة، جاء ياور يطلب دونون. فقد فحص بونابرت رسومه بعد الظهر وأراد اصطحابه. لفّ دونون رسومه في أربعة أنابيب نحاسية، وسلّم جومار مفاتيح صناديقه، وجلس في العربة المغلقة مع مونج وبرتوليه. في تلك الليلة رآهم بعضهم يرحلون. وسمع آخرون الخيول تبتعد نحو الشمال.

وفي صباح اليوم التالي تأكد الخبر. لقد رحل بونابرت إلى فرنسا. وكان قد بعث إلى كليبر برسالة تنقل إليه قيادة جيش مصر. ورحل معه مونج وبرتوليه ودونون. وسيبحرون من الإسكندرية في ليلة 22 إلى 23 أغسطس على إحدى الفرقاطتين، وسينزل دونون في فريجوس يوم 9 أكتوبر ومعه رسومه. ولم يُخبَر أحد تقريبًا.

لم يكن أول ما خطر لجومار في ذلك الصباح بونابرت ولا فرنسا، بل الصناديق. ستة وتسعون صندوقًا مخزّنة في ملحقات قصر حسن كاشف. ثلاثة وسبعون رسمية وثلاثة وعشرون بلا بطاقة في الزاوية الشمالية الغربية، لا تزال هناك، لا تزال بلا اسم. ومن غير بونابرت ليأمر بنقل عسكري، صارت هذه الصناديق تحت رحمة أي مفاوضات قادمة.

طاف بالملحقات قبل شروق الشمس. كانت الصناديق الرسمية الثلاثة والسبعون هناك، مكدسة، مسمّرة، موسومة وفق نظامه. حرف ورقم ومحتوى موجز.

كانت هذه القطع تأتي من كل مكان، من سقارة والكرنك ودندرة ووادي الملوك وسوق منف والجيزة. بعضها أُخذ وفق إجراءات مقررة. وبعضها اشتُري من

الأسواق التي كانت تتبع الجيش. وبعضها وصل بطرق أقل توثيقًا. وكانت في مجموعها تمثل ثلاثة عشر شهرًا من النهب المنظم، والنهب العرضي، والنهب المتغاضى عنه، والجمع العلمي، وهي فئات لم يفصل بينها أحد قط فصلًا رسميًا.

وبعد رحيل بونابرت لم تعد الفروق قائمة حتى سياسيًا. فقد تبخّر معه المسوّغ لمشروع دولة كان يجعل الأخذ مشروعًا. وما بقي لم يكن سوى قطع وجنود وعلماء. وإنجليز سيقتربون عاجلًا أو آجلًا.

طوى الجرد وجلس على صندوق. من حوله في شبه الظلام ستة وتسعون صندوقًا. وظل هناك إلى أن تسلل النهار من تحت الباب.

صار كليبر يقود جيش مصر الآن. وكان بونابرت قد تحاشى بحذر أن يعلمه برحيله مشافهةً.

تقبّل مارسيل الأمر بهدوء. كانت لديه كبساته، ووجود بونابرت أو غيابه لا يغير شيئًا. وسأل كوستاز فورييه إن كانت أعمال اللجنة ستتواصل. فأجاب فورييه بنعم. ولم يعلّق كوستاز بشيء. وتلقى جوفروا سانت هيلير الخبر وهو منحنٍ على تشريحه، ولم يترك مشرطه. «رحل؟ فليكن»، قال دون أن يرفع رأسه. فالشيء الذي على الطاولة كان عنده يعلو على كل ما سواه.

— لقد استخدمنا، كان كوستاز يقول ذلك الصباح لكل من أراد أن يسمع. أعمالنا... كانت تزكية، هذا كل ما في الأمر. نال ما أراد، وها هو يرحل. أما نحن، فنبقى.

وجد فورييه كوستاز وحده في مكتبه بالمجمع، بعد ظهر اليوم نفسه الذي أُعلن فيه الرحيل.

— هل تعمل؟

— لا.

— كان بوسعه أن يخبرنا، قال كوستاز. لي أسرة في باريس. وعدتهم بشهور قليلة. وها قد مضى خمسة عشر شهرًا. وقد عاد هو، بينما...

ترك الجملة غير تامة. لم تكن للغيرة أي حصة فيها. كان قد آمن بالعلم في خدمة الجمهورية، وبالجمهورية في خدمة العلم، وها هو يكتشف أنه استُخدم كما يُستخدم الكومبارس.

اجتمعت لجنة العلوم والفنون في المساء نفسه. لم يدعُ إليها أحد. فقد التقى العلماء في المجمع دون اتفاق مسبق. كان هناك فورييه ومارسيل وجومار وكوستاز وجوفروا سانت هيلير ونحو اثني عشر آخرين. وكان كونتيه آخر الواصلين.

كان الوضع يتلخص في سؤال واحد. ماذا يحدث الآن بعد أن رحل بونابرت وصار كليبر هو القائد؟

لم تكن علاقات كليبر باللجنة كعلاقات سلفه. كان جومار قد استطلع رأيه، قبل حملة سوريا، بشأن وضع المجموعات. فقال كليبر إنه سيدرس الأمر.

— حين يقول كليبر إنه سيدرس الأمر فهذا يعني أنه لا يفكر فيه، قال جومار.

— لدى كليبر ثلاثة هموم، قال فوريه وهو يعدّها على أصابعه. جيش يجب الحفاظ عليه، وعثمانيون يجب مراقبتهم، وإنجليز في البحر المتوسط. أما المجموعات فتأتي... بعد ذلك.

— إذن يجب أن تكون همّنا نحن، أجاب جومار. وإلا قرر فيها غيرنا، ودون جرد.

كان على الطاولة الجرد العام للصناديق الستة والتسعين. وكان جومار قد أمر بتداوله. وكان كل واحد يقرؤه في صمت. أسماء المعابد وفئات القطع وتقديرات الأوزان. كانت المرة الأولى التي تنظر فيها اللجنة إلى مجمل ما جمعته في وثيقة واحدة.

لم يعلّق أحد. قلّب كوستاز الأوراق ببطء أكبر من الآخرين، وإصبعه على عمود الأوزان، كما يُقرأ كشف حصيلة نهب.

— علينا أن نضع أولوية للنقل، قال جومار. في حال الإخلاء لن يمكن أن يرحل كل شيء. لا بد من تراتبية.

— البرديات والنقوش المنسوخة، قال مارسيل. لا تعوَّض.

تردد فوريه قبل أن يطرح السؤال.

— وماذا عن الصناديق الثلاثة والعشرين بلا بطاقة في الزاوية الشمالية الغربية من المخزن؟

تبادل جومار ومارسيل نظرة.

— دوّنتُها، قال جومار. لا أعرف لمن تعود.

— ولا أنا، قال مارسيل.

انتهى الاجتماع دون قرار رسمي في هذه النقطة. وعاد العلماء إلى أعمالهم. وبقي الجرد على الطاولة. وبقيت الصناديق الثلاثة والعشرون بلا اسم في الزاوية الشمالية الغربية من المخزن، في العتمة.

أما كليبر فكان يرى أن سلفه فرّ كي لا يتحمل مسؤولية استسلام؛ وفي تقريره إلى الديركتوار المؤرخ في 26 سبتمبر 1799 عاب عليه أنه لم يترك في الخزينة فلسًا واحدًا.

بدا الوضع العسكري، من منظور المجمع، بلا مخرج. فقد كان الجيش الفرنسي يسيطر على مصر لكن دون أي اتصال بفرنسا. وكان الأسطول الإنجليزي يحاصر البحر المتوسط. وكان كليبر يعلم أنه لا يستطيع الصمود إلى أجل غير مسمى ولا تلقي تعزيزات. فاتخذ القرار الذي لم يجرؤ بونابرت على اتخاذه، وفاوض على الجلاء. وفي ديسمبر 1799، أرسل كليبر مبعوثًا إلى الصدر الأعظم العثماني الذي كان معسكرًا في سوريا. وبدأت المفاوضات على متن السفينة البريطانية *النمر*، قرب دمياط. وكان المفاوض البريطاني العميد البحري سيدني سميث، الذي قدّم نفسه مفوضًا مطلق الصلاحية عن التاج، وهي صفة سينازعه فيها الأميرال كيث عما قريب. وكان المفوضان الفرنسيان الجنرال ديزيه والإداري بوسيلغ. وكان الفرنسيون يطالبون بجلاء مشرّف للجيش بسلاحه وأمتعته. وقبل سميث أن يعالج النقاط العاجلة، وهي إجلاء الجرحى والعلماء من مصر وهدنة ريثما يصل المفوضون العثمانيون. وطالت المناقشات. وكان كليبر يحث مفاوضيه على الإنجاز، وفي 24 يناير 1800 وُقّعت اتفاقية العريش. وقد نصّت على الجلاء الكامل للجيش الفرنسي عن مصر في ثلاثة أشهر، بسلاحه وأمتعته ومجموعاته العلمية. وكان على الفرنسيين أن يتخلوا تدريجيًا عن مواقعهم، بادئين بشرق الدلتا ومنتهين بالإسكندرية. وكان يجب إخلاء القاهرة في موعد أقصاه اليوم الخامس والأربعون. وبلغ الخبر القاهرة في 28 يناير. وفي ذلك اليوم أُعلنت الاتفاقية رسميًا. وكان وقعها على العلماء فوريًا.

— أيها السادة، قال كليبر في اجتماع استثنائي للجنة، لقد تفاوضت على عودتنا مع العثمانيين. ثلاثة أشهر ونكون في فرنسا. غلّفوا مجموعاتكم. وافرزوها.

قضى جوليوا أيامًا كاملة في الفرز والتغليف، وأصابعه رمادية من الغبار والقش. تماثيل برونزية، وتماثيل صغيرة من الخشب المطلي والفخار المزجَّج، وتمائم، وبرديات، وعملات، ومجوهرات. كل قطعة مفهرسة وموصوفة ومغلفة بالكتان. وكان يعمل بسرعة، كأن أحدًا سيستعيد منه هذا الوقت. وللمرة الأولى منذ عشرين شهرًا صارت العودة واقعًا. وخرجت الصناديق من المخازن. وكُتبت البطاقات. ولُفّ حجر رشيد في عدة طبقات من القماش. وعاد فورييه، الذي تابع المفاوضات عن كثب، إلى القاهرة بنص الاتفاقية وقرأه بصوت عالٍ في جلسة للمجمع. وحين بلغ البند الذي يضمن المجموعات، سرى في الحاضرين همس ارتياح.

— هل يعني هذا أن حجر رشيد والبرديات والكبسات، كل ما جمعناه، سيُسمح له بالعودة إلى فرنسا معنا؟ سأل مارسيل.

— الاتفاقية تضمن ذلك، قال فورييه. والبند... صريح. بشرط، طبعًا، أن يقبل الإنجليز شروطها.

كان فوريه قد أعدّ جردًا كاملًا ضم مئتين وسبع عشرة قطعة مفهرسة، منها مئة وثمانٍ وثلاثون ذات قيمة متحفية مباشرة وتسع وسبعون ذات قيمة علمية توثيقية. وكانت هذه القطع المئتان والسبع عشرة تشكل نواة الصناديق الستة والتسعين. ورتّبها بحسب الأولوية، عالمًا أنه إذا كان النقل محدودًا فسيتعين الاختيار. الأولوية الأولى، مسوحات جومار، التي لا يمكن إعادة إنجازها. مئتا كيلوغرام على الأكثر، في صناديق محكمة الإغلاق. ودفاتر جوليوا، في أنابيب نحاسية، تضيف خمسين كيلوغرامًا. الأولوية الثانية، القطع الصغيرة، *الأوشابتي* والجعارين والتمائم والبرديات. خفيفة، عالية القيمة بالنسبة إلى الكيلوغرام. الأولوية الثالثة، كبسات مارسيل. الأولوية الرابعة، المجموعات الطبيعية لجوفروا، ثقيلة، هشة، عسيرة النقل. الأولوية الخامسة، القطع الكبيرة للمجمع، تمثال الغرانيت والتوابيت المتوسطة الحجم.

دام الأمل قرابة سبعة أسابيع. وفي مارس 1800، وصل الخبر. لقد رفض البريطانيون المصادقة على الاتفاقية. فقد صرّح الأميرال جورج كيث إلفينستون، قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط، بأن سيدني سميث تجاوز صلاحياته وأن الاتفاقية باطلة. وطالب كيث باستسلام بلا شروط. وعلى الفرنسيين أن يلقوا السلاح ويسلّموا أنفسهم أسرى. استدعى كليبر جنرالاته. وقرأ رسالة كيث بصوت عالٍ، ثم وضعها على الطاولة.

— أيها السادة، لا يُرد على مثل هذه الوقاحة إلا بالانتصارات. استعدوا للقتال.

فُكّت الأمتعة. وعادت الصناديق إلى مخازن المجمع، وأعاد جومار عدّها. وكان ثلاثة وثلاثون منها مفقودًا، ضاع أو دُمّر أو تاه في تنقلات الجيش؛ وبقي منها ثلاثة وستون. وظلت البطاقات ملصقة. لم تعد هذه القطع راحلة، إلى حين فرصة أخرى للرحيل، أو إلى حين الاستسلام الذي سيسلمها إلى الإنجليز. وكان البريطانيون والعثمانيون يعتقدون أن جيش الشرق أضعف من أن يقاوم. فتحرك الصدر الأعظم يوسف باشا نحو القاهرة بجيش من أربعين إلى ثمانين ألف رجل بحسب التقديرات. وفي القاهرة نفسها، ثار الأهالي استجابة لندائه.

احتل ناصيف باشا، على رأس طليعة الجيش العثماني، قرية المطرية بخمسة آلاف إلى ستة آلاف من الإنكشارية وعدة آلاف من الفرسان، وحصّن موقعه بست عشرة قطعة مدفعية. ولم يكن لدى كليبر سوى عشرة آلاف رجل. وفي ليلة 19 إلى 20 مارس 1800 تقدم بهم أمام القاهرة وأقامهم على الضفة اليمنى للنهر، وقد شكّل كل لواء من ألوية جيشه الصغير الأربعة مربعه الخاص. وعند فجر 20 مارس هاجم الجيش الفرنسي قرب أطلال هليوبوليس، على بعد نحو خمسة عشر كيلومترًا من القاهرة. ودامت المعركة يومًا كاملًا. صمدت المربعات الفرنسية أمام جميع

الهجمات، وحطمت المدفعية الفرنسية الصفوف العثمانية. وقرب نهاية العصر تفكك الجيش العثماني. ففرّ الصدر الأعظم نحو سوريا بما بقي من جنوده. وأحصى الفرنسيون نحو ستمئة بين قتيل وجريح، أما العثمانيون فتركوا تسعة آلاف في ساحة القتال. عاد كليبر إلى القاهرة وأخمد التمرد. دام القصف عدة أيام. وقضى مئات المدنيين في المعارك. وفي 21 أبريل استسلمت المدينة. وقد ثبّت انتصار هليوبوليس الموقع الفرنسي في مصر. ووقّع مراد بك، الذي انفصل عن العثمانيين ببلوغه الصحراء دون أن يشارك في القتال، اتفاقًا مع كليبر في أبريل جعله ما يشبه نائب الملك في صعيد مصر. وبدت مصر أشد رسوخًا من أي وقت مضى في أيدي الفرنسيين. استأنف كليبر مهامه قائدًا أعلى، وفي المجمع استؤنفت الأعمال حيث كانت قد توقفت، وبقيت الصناديق حيث كانت.

— لنعمل ما دمنا نستطيع، كان فورييه يكرر في الاجتماعات الأسبوعية التي تلت، دون أن يرفع عينيه عن أوراقه. ما كُتب لا يُنقض.

كان كليبر قد فاوض العثمانيين، وحاول إعادة الجيش إلى الوطن، وأخفق، واستأنف القتال. وكان العلماء يرونه قليلًا. كان يأتي أحيانًا إلى المجمع، ويصغي إلى التقارير، ثم ينصرف إلى مقر قيادته.

استقر الوضع العسكري دون أن يتحسن. كان الجيش يمسك بمصر ولكنه لا يستطيع التقدم ولا الرحيل. وكان البريطانيون يحاصرون البحر المتوسط. وكانت فرنسا بعيدة. وقد صارت الحملة حامية عسكرية.

في صباح 14 يونيو 1800 استعرض كليبر الفيلق اليوناني، ثم جاء إلى القاهرة ليتفقد أشغالًا في قصر الألفي بك، مقر قيادته العامة في الأزبكية. وقبل أن يزورها حضر غداءً عند الجنرال داماس، رئيس أركانه وصديقه الحميم. وكان بين المدعوين أعضاء من المجمع وضباط. بدا كليبر أكثر بشاشة من المعتاد. فقد أذاب النجاح الذي توّج جهوده، ونمو المؤسسات الفرنسية، ودلائل المودة التي كان يتلقاها من السكان، جفاءه المعهود. وكان لطيفًا منبسطًا. ولم يكن أحد ممن حوله يعلم أن ذلك كان وجبته الأخيرة.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر توجه الجنرال إلى قصره، ولم يرافقه سوى بروتان، مهندس الجيش المعماري. وللوصول إليه سلك رواقًا طويلًا تظلله كرمة كثيفة، يصل بين مسكن رئيس الأركان ومسكن القائد العام. وكان يحدّث بروتان عن التحسينات التي ينوي إجراءها، ويصدر أوامر بإصلاح القيادة العامة والحديقة، وإزالة آثار المقذوفات التي خلّفها العصيان الأخير.

كان شاب سوري يُدعى سليمان الحلبي مختبئًا في حديقة القصر منذ الصباح. كان في الرابعة والعشرين من عمره، يدرس العلوم الدينية في الجامع الأزهر، ويراقب

قصر كليبر منذ شهر. وقد حصل على خنجر من الجيزة. وفي ذلك الصباح تنكر في هيئة متسول واختبأ قرب صهريج مهجور.

وعندما دخل كليبر الرواق مع بروتان، خرج سليمان من مخبئه، واقترب من خلفه، وغرس خنجرًا في قلب الجنرال.

انهار كليبر صارخًا «إليّ، لقد اغتالوني!»

انقض بروتان على القاتل بعصاه الصغيرة التي كانت في يده. حاول صد الضربات، فتلقى بنفسه ست طعنات بالخنجر. تركه سليمان مغشيًا عليه، وعاد إلى كليبر الملقى على الأرض، فطعنه ثلاث مرات أخرى. وكانت الضربة الأولى قاتلة. ومات الجنرال في دقائق دون أن يستطيع الكلام.

انتشر الذعر. أحاط به الحراس والضباط، كل أولئك الذين رفع معهم كليبر نخب الجمهورية قبل ساعات قليلة، يحاولون أن ينتزعوا منه بعض الكلمات. سألوه عبثًا. ونُقلت الجثة إلى مسكن رئيس الأركان.

فتّش الجنود القصر والحدائق في كل اتجاه. وجاء جنديان من الحرس بشاب فاجآه مختبئًا تحت شجيرة تين شوكي كثيفة. وتعرف بروتان على القاتل، وقد أفاق رغم جراحه. وأُلقي سليمان في السجن مع ثلاثة من علماء الجامع الكبير كانوا على علم بمشروعه ولم يبلغوا عن الاعتداء.

استولى على الجيش ذهول عميق تحول سريعًا إلى غضب. وهاج كل شيء في المدينة. أُغلقت المتاجر. وكان الجنود الفرنسيون، الغاضبون التائهون، يجوبون الشوارع ويلقون حولهم نظرات تهديد. وكانت الليلة عسيرة.

في صباح اليوم التالي بلغ الخبر المجمع. دعا فورييه إلى اجتماع فوري. واجتمع ستة عشر عالمًا في القاعة. وكان الكلام قليلًا، وبصوت خافت. وكان أحدهم قد ترك الباب مفتوحًا على الفناء، ولم يقم أحد لإغلاقه.

تكلم فورييه دون تمهيد.

— مات كليبر. وسيتولى الجنرال مينو، أقدم الجنرالات قادة الفرق، القيادة. نحن لا نعرفه إلا قليلًا... بوصفه قائدًا، أعني. كان كليبر، على طريقته، يحترم أوامر بونابرت بشأن أعمالنا. أما مينو فليست له هذه الصلة بنا.

لم ينتظر جومار.

— مجموعاتنا مخزنة، وقياساتنا مؤرشفة. فإذا قرر مينو أن تبقى في مصر أو أنها لم تعد ذات أهمية عسكرية، فقدنا عمل عامين.

قال مارسيل عندئذ ببطء.

ـــ عمل التوثيق شارف على الانتهاء. والمهم الآن هو أن نعيد كل شيء إلى فرنسا. فإن تفرقت القطع هنا، بيعت في الأسواق، وكل ما فعلناه...

نهض فورييه.

ـــ نواصل العمل. ننجز ما يمكن إنجازه.

وعاد العلماء إلى مهامهم دون أن يعرفوا شيئًا مما سيقرره مينو.

استُجوب سليمان الحلبي تحت التعذيب. واعترف بأن أغا الإنكشارية في الجيش العثماني شجعه. وكان قد أسرّ بمشروعه إلى أربعة من علماء الجامع الأزهر حاولوا ثنيه ولم يبلغوا عنه. وحكم عليهم جميعًا مجلس حربي. أُحرقت يد سليمان اليمنى، ثم خُوزق حيًّا. وعانى أربع ساعات قبل أن يموت. وقُطعت رؤوس العلماء الثلاثة. أما الرابع فحُكم عليه غيابيًا.

جرت الجنازة سريعًا. وألقى فورييه، باسم المجمع، تأبين البطل الذي كانوا يبكونه. تسابق الجنود في إلقاء أكاليل السرو والغار. وبعد الجنازة العلنية اجتمعت مجموعة صغيرة، معظمها من الضباط، في هدوء حول قبر الراحل. كانوا أعضاء في المحفل الماسوني «إيزيس»، الذي كان كليبر أستاذه المبجل. وانضم إليهم عالم من اللجنة. ومع أنه لم يكن ضابطًا، فقد كان هو أيضًا ماسونيًا، عضوًا في المحفل الباريسي «*الاتحاد الكامل*». وكان المدني الوحيد الحاضر. وكان بوسع مونج أن يكون بينهم، لكنه فرّ مع بونابرت. أخرجوا مآزرهم وقلبوها إلى الجانب الأسود المخصص للمراسم الجنائزية. صفقوا ثلاث مرات بأيديهم وهم ينطقون بالصيغة الطقسية «لنئنّ! لنئنّ! لنئنّ!» تتبعها على الفور قرعة الابتهاج التقليدية «لكن لنأمل! لنأمل! لنأمل!». ووُضع غصن من الأكاسيا على القبر. لقد التحق أخوهم بالشرق *الأبدي*.

وتولى الجنرال جاك فرانسوا مينو، قائد الفرقة وأقدم الجنرالات بعد كليبر، قيادة جيش مصر رسميًا.

الفصل الثالث : زمن العلماء

1 - الحملات الأخيرة

لم يغيّر تبدّل القيادة شيئًا من أعمال المجمع.

كانت الاستكشافات الأثرية متواصلة في أنحاء الدلتا والوجه البحري. وكانت المجموعات تزداد غنى وتنظيمًا. وكانت المنشورات العلمية في *العشرية المصرية* تصدر بانتظام.

كان الجنرال مينو ذا شخصية تختلف جذريًا عن سلفه. وكان يزعم أنه يحكم مصر باسم تحالف فرنسي عربي لم يكن له أي واقع سياسي. وكان ضباطه، الذين يحترمونه أقل مما كانوا يحترمون كليبر، يتبعونه انضباطًا لا اقتناعًا. وكان مينو قد اعتنق الإسلام وتسمى باسم عبد الله وتزوج مصرية تُدعى زبيدة. وكان العلماء يعرفونه منذ حملة 1798، لكنهم لم يروه بعد قط يقود بوصفه قائدًا أعلى.

بالنسبة إلى العلماء، بدا مينو في البداية أكثر تطفلًا من كليبر وأقل نفعًا. كان يريد توجيه أعمالهم نحو موضوعات تخدم سياسته، ولم يكن بين أولوياته وأولوياتهم شيء مشترك تقريبًا.

ابتكر فوريه استراتيجية بسيطة للتعايش مع مينو دون أن يتورط معه، أي أن يقرن اسمه ببعض الاكتشافات والمنشورات الصغيرة، وأن يرفع إليه بانتظام تقارير تقنية بما يكفي لتستعصي على الفهم، وأن يواصل في هدوء الأعمال الجوهرية دون إطلاع القائد الأعلى عليها.

— هذه دبلوماسية، قال جومار حين شرح له فوريه استراتيجيته.

— بل هي مسألة بقاء، أجاب فوريه.

وفي الميدان، استؤنفت الاستكشافات.

واصل المجمع العلمي المصري عقد جلساته المنتظمة، وإن اختلف جوّها عما كان في السنوات الأولى. فقد صارت العروض أقل حماسة، والنقاشات أقل حيوية. وكان العلماء يحملون ثقل إقامة طويلة في بلد لا يتقنون لغته الدارجة ولا دقائقه الثقافية.

وكان فوريه يحاول الحفاظ على الزخم الفكري. فكان يقترح موضوعات للتأمل الجماعي، وينظم قراءات لنصوص قديمة ليذكّر زملاءه بالسياق التاريخي الذي يعملون فيه. ولم تكن هذه الجهود عبثًا. فقد صار عدد من البحوث التي قُدمت في المجمع خلال تلك السنوات العصيبة مقالات علمية مهمة.

كانت جلسة المجمع في منتصف يونيو من أكثر الجلسات حيوية منذ رحيل بونابرت ومقتل كليبر.

كان فوريه قد اقترح موضوعًا مجردًا عن عمد، هو مفهوم الذاكرة في الحضارات، وسرعان ما تجاوز النقاش الحدود الأكاديمية.

كان جومار أول المتدخلين. كان في الثانية والعشرين، وله تلك الدقة المزعجة التي يتحلى بها الشبان الذين يكونون على حق.

— الحضارة التي تنسى مقاييسها محكوم عليها بالبدء من جديد. وقد حفظت مصر القديمة مقاييسها ثلاثة آلاف عام. ثلاثة آلاف. هذه، في ظني، هي الحضارة العظيمة — لا عظمة الآثار بقدر ما هي المدة التي تنقل خلالها المعرفة دون تشويه.

فاعترض مارسيل.

— لكن الآثار هي بالضبط ما يتيح النقل! فلولا الكرنك، ولولا الأهرام، لما نقلت قياسات جومار شيئًا. فالسند المادي لا ينفصل عن المعرفة التي يحملها.

— لهذا نحن هنا، ردّ جومار. لنستبدل بالأثر وثيقة أقدر على السفر.

كان فوريه قد أصغى دون أن يتدخل، وريشته جامدة فوق عمود من الأرقام. وكان يفكر فيما ستؤول إليه أعمالهم لو استسلم الجيش غدًا.

— قياساتك يا جومار... هل هي في حال تسمح بنسخها لو اضطررنا إلى الإخلاء — على عجل؟

— لدي نسخة مزدوجة منذ الإسكندرية. فإن غرقت السفينة بقيت نسخة واحدة على الأقل.

نظر إليه فوريه لحظة. لقد أدرك هذا الفتى أن العمل الذي لا يوجد إلا في نسخة واحدة هو، في زمن الحملات العسكرية، ضائع نصفه من الآن.

— عليك أن تقول هذا للآخرين.

— قلته. ووجده أغلبهم مبالغًا فيه.

— الأغلبية مخطئة.

فكّر فوريه في البريطانيين. لم يكن يعرف من سيرسلون، لكنه كان يعرف أنهم سيرسلون أحدًا. شخصًا ما، على الجانب الآخر، يعدّ هو أيضًا قوائمه.

في ذلك المساء بقي جومار وحده ينسخ دفاتر قياساته. كان القلم يخدش الورق، وكان المصباح يدخّن. وكانت المدينة تهمس من خلف المصاريع، وكان مؤذن ينادي للصلاة، ولم يكن جومار يسمع شيئًا. كان يفكر أحيانًا أن النسخ هو الشيء الوحيد المؤكد الذي يفعله هنا. فقد يُخطأ في القياس وفي الرسم، أما النسخة الأمينة فلا تخدع، وتبقى بعد الأصل. ومنذ الإسكندرية كان كل قياس يوجد في نسختين أو لا يوجد. الأولى في دفتر الميدان، كُتبت واقفًا في الريح. والثانية هنا، على الطاولة، مراجعة ومدققة ومقروءة.

في 25 يونيو 1800 انطلق جوليوا من جديد مع جومار وجوفروا ورسامين اثنين نحو تانيس، في شمال شرق الدلتا، لمعاينة آثار العاصمة القديمة لفراعنة الأسرة الحادية والعشرين.

اكتشفوا حقل أطلال واسعًا. تلال متناثرة ترقد تحتها قرون من المدينة المتراكمة. كتل من الجرانيت. شظايا تماثيل. لقد التهمت رطوبة الدلتا ما حفظته رمال صعيد مصر. لا شيء يشبه الكرنك أو دندرة. كانت مصر بلا إخراجها المسرحي، المادة وحدها، مبعثرة، بلا نظام ظاهر، ومع ذلك منظمة وفق منطق لا يكشفه إلا التنقيب. وذكّر جوليوا بأن سترابون يذكر الموقع، لكن أحدًا منذ اليونانيين لم يحاول مسحه مسحًا منهجيًا. «ذلك لأن أحدًا لم يكن يعلم أن فيه هذا القدر الكبير مما يُشاهد»، أضاف جومار. رسم جوليوا ثلاثة أيام حتى حلول الليل، ورسم خريطة الموقع كله مدوّنًا موضع كل كتلة ذات شأن.

عند مدخل الموقع كان تاجر آثار ينتظر ومعه خرجه. وكان الرجل يُدعى سليمان القباني، قدم من القاهرة بعد أن علم أن اللجنة ستتوجه إلى تانيس. وقد قطع الطريق في اليوم السابق، ولم يكن ينتظر أحدًا بعينه، بل شخصًا يعرف ماذا يشتري.

توقف جوليوا أمام القطع. كان اثنان من *الأوشابتي* أصيلين، وقد تبيّن له ذلك من قِدَم سطحهما ونقوشهما. فاشترى واحدًا.

ومن تانيس توجهت البعثة إلى بوباستيس، على بعد يومين إلى الجنوب الغربي. مدينة باستت المقدسة، الإلهة القطة. كانت أطلال معبدها تثير الإعجاب بأبعادها. وقد وصفه هيرودوت بأنه من أروع معابد مصر، وكان العيد السنوي يجذب جموعًا غفيرة، وهو ما يمكن تصديقه حين يرى المرء اتساع الموقع.

كانت أعمدة من الجرانيت الوردي يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار ملقاة على الرمال، وقد تحطمت جذوعها الأسطوانية إلى عدة قطع بفعل الانهيار. وكانت شظايا النقوش البارزة تغطي الأرض، مواكب كهنة ومشاهد أعياد وآلهة منمطة. أسلوب العصر المتأخر.

وحول المعبد مقبرة للقطط المقدسة. آلاف المومياوات في أروقة من الحجر الجيري. العناية نفسها التي تُبذل للبشر، نطرون ولفائف وتوابيت من الخشب أو البرونز.

وعند فتح إحدى المومياوات اكتشف جوفروا أن الجسد محفوظ بصورة رائعة، الجلد والشعر والعظام والأوتار سليمة بعد ألفي عام من الدفن. قط منزلي عادي الحجم.

كان اللصوص قد سبقوهم إلى العمل. حفر مبقورة، ومومياوات مبعثرة، وقطع من اللفائف مشتتة على الأرض الكلسية كأنها ثلج بني.

وكان ما يبحث عنه اللصوص في مقابر القطط هو التمائم من الفخار المزجج أو الذهب الموضوعة مع المومياوات، والتوابيت البرونزية الصغيرة على شكل قط جالس ذي أذنين منتصبتين وعينين مرصعتين بالزجاج. وكانت لهذه التوابيت قيمة تجارية فورية. فتجار الإسكندرية كانوا يبيعونها للمسافرين الأوروبيين منذ قرن. أما المومياوات نفسها، التي لا قيمة لها متى جُرّدت من تمائمها، فكان اللصوص يتركونها، وكذلك التوابيت الكلسية العادية، الثقيلة والشائعة أكثر من أن تبرر نقلها.

اختار جوفروا ست مومياوات قطط في حالة جيدة. لفّها في كتان نظيف وسجّل هويتها. كانت في نظره عينات حيوانية، أي حيوانات مصر القديمة، تُقارَن بالأفراد الحية في حديقة حيوانات متحف التاريخ الطبيعي. فكّر فيما سيقوله كوفييه حين يراها، إذ يجد فيها دليلًا على ثبات الأنواع، فالقط لم يتغير في ألفي عام. وفيما سيقوله عالم طبيعة آخر، يجرؤ على التفكير بأن ألفي عام لا تُحسب في سلّم التحوّل. أما عند اللصوص الذين تركوها فهي نفايات بعد انتزاع التمائم منها. وأما عند كهنة باستت الذين دفنوها فهي قرابين للإلهة، قُدّر لها أن تبقى هناك إلى الأبد.

عثر جوليوا في الجبّانة، شبه مطمور في التراب، على تابوت برونزي صغير على هيئة قط جالس. كان ارتفاعه عشرين سنتيمترًا. الذيل مثنيّ على القائمتين في الوضعية المميزة لقطط مصر. وتحت ضوء المساء المائل، برزت ملامح الوجه بدقة لم يحجبها الزنجار، عضلات الخدين وقصبة الأنف وخط الشفتين المطبقتين.

كان التابوت فارغًا. قلّب جوليوا البرونز بين يديه. على القاعدة، محفورًا بالإزميل، سطر من الهيروغليفية. اسم صاحب الإهداء على الأرجح، المرأة أو الرجل الذي قدّم هذا القط إلى باستت لقاء نعمة أو عن تقوى عادية. اسم سيقرؤه غيره لاحقًا، إن وصل هذا البرونز يومًا إلى باريس. اسم ظل ينتظر هناك في التراب منذ الأسرة السادسة والعشرين.

وضعه في حقيبته. كان وزنه ثلاثمئة غرام. وفي الإسكندرية ربما تبلغ قيمته عشرين قرشًا، إن وُجد مشترٍ إنجليزي مولع بالبرونزيات المصرية. أما بالنسبة إلى العلم فلن يكون له ثمن، لو أمكن يومًا أن يُقرأ هذا الاسم. كان جوليوا يعرف أن الحسابين لن يلتقيا أبدًا، وأن يده هي، التي التقطت البرونز للتو، لا تُصلح شيئًا.

التحق جوفروا بجوليوا مساءً في المخيم ومعه مومياواته الست في صندوقها. كان الليل يهبط سريعًا. أمام النار وضعا مكتشفاتهما بينهما. وجوفروا، الذي أمضى النهار يقرر ما يمكنه حمله وما يجب أن يتركه، فحص المومياوات مرة أخيرة، ثم أنزل الغطاء.

— ماذا ستفعل به؟ سأل جوفروا وهو ينظر إلى البرونز.

— سآخذه معي. سأرسمه. سأصفه. وسأسلّمه إلى اللوفر حين يكون له قسم مصري.

— وعند الاستسلام؟ إن كان البريطانيون...

لم يجب جوليوا. دسّ البرونز في حقيبته، تحت دفاتره. كانا يعرفان ذلك كلاهما. إن جاء الاستسلام فسيذهب البرونز إلى لندن، إلى واجهة عرض في المتحف البريطاني.

عادت البعثة إلى القاهرة في 12 أغسطس بعد سبعة أسابيع في الدلتا. جلبت معها رسومًا لتانيس وبوباستيس، مواقع مخيّبة من الناحية الأثرية، لكنها موثّقة.

— لقد جعل كونتيه من مصر مختبره، قال جوليوا لفوريبه. أينما ذهبنا يلاحظ ويجرّب ويحسّن. وإن كان ثمة من سيجني من هذا كله فائدة دائمة، فهو هو.

فرض نيكولا جاك كونتيه نفسه مخترعًا للحملة. الطواحين والمسابك وورش التصنيع. هذا المنطادي السابق لم يكن يرسم المعابد، بل كان يحلّ المشكلات التي يطرحها استكشافها.

أما سائر العلماء، الأقل صمودًا أمام الإحباط، فقد خفّضوا نشاطهم إلى الحد الأدنى. وأصيب بعضهم بالمرض. فقد فتك الزحار المزمن والحمى والتهابات العيون التي يسببها الرمل والشمس في صفوف اللجنة. ومات عدد منهم في مصر قبل العودة.

في أواخر صيف 1800، نظّم جوليوا استكشافات جديدة في الصحراء الشرقية، في مواقع تختلف عن تلك التي جابها من قبل. وأراد هذه المرة أن يبلغ الأديرة القبطية الضائعة في الجروف، بين النيل والبحر الأحمر.

في 15 سبتمبر 1800، انطلق جوليوا شرقًا مع جومار وثلاثين فارسًا للحراسة. ثلاثة أيام في الصحراء الشرقية، القاحلة الصخرية.

وفي صباح 18 سبتمبر، بلغت البعثة دير القديس أنطونيوس، المأهول منذ القرن الرابع.

استقبل الرهبان الأقباط الزائرين بتوجّس وفضول. نحو خمسين ناسكًا في ثياب سوداء، يعيشون في فقر مدقع، كانوا يحدّقون في هؤلاء العلماء الباريسيين دون أن ينبسوا بكلمة.

— يا أبتِ، قال جوليوا للرئيس بواسطة حسن، مترجم اللجنة، لم نأتِ لنأخذ مخطوطاتكم. نودّ أن نراها، وأن ننسخها إن سمحتم.

أصغى الأب الرئيس وانسحب ساعة. ثم عاد بشرط. يمكنهم رؤية المكتبة، لكن لا شيء سيخرج من الدير دون إذنه.

شغلت مكتبة الدير قاعة صغيرة معقودة. كانت المخطوطات القبطية — وبعضها يعود إلى قرون عدة — محفوظة في صناديق خشبية.

ـــ انظر إلى هذا، همس جومار. كتاب مزامير ثنائي اللغة، اليونانية على اليسار والقبطية على اليمين. سطرًا بسطر. إن أمكن مقارنة العمودين، بدأنا نقرأ.

تصفّح المخطوط. كانت الحروف القبطية مستديرة، مشتقة من اليونانية، مع سبع علامات إضافية مستعارة من الديموطيقية. عدّها جومار مرتين، بطرف ظفره.

ـــ هل تقبلون أن تتنازلوا لنا عنه؟ سأل جوليوا، وكأنه يسأل رغمًا عنه. أو على الأقل أن تتركونا ننسخه؟

هزّ الأب الرئيس رأسه.

ـــ هذا المخطوط ملك ديرنا منذ قرون. حفظه آباؤنا جيلًا بعد جيل. لن يغادره.

لم يرفع صوته. وكانت يداه مستقرتين مبسوطتين على غطاء الصندوق.

قبل جوليوا الشروط وأمضى ثلاثة أيام في نسخ كتاب المزامير القبطي اليوناني. عمل دقيق، حرفًا حرفًا، على نص لا يفهم منه إلا لغة من اثنتين. وغادر ومعه نسخته، وحبر الأوراق الأخيرة بالكاد جفّ، على أمل أن يعرف أحدٌ، فيما بعد، ما يفعل بها.

وبينما كان ينسخ كتاب المزامير، كان جومار يستكشف الجروف المحيطة. اكتشف كهوفًا كانت مساكن لنسّاك القرون الأولى، جدرانها مغطاة بكتابات محفورة بطرف مدبّب، أسماء وتواريخ وصلوات.

ـــ هذه الكهوف تُقلقني، قال جومار. رجال عاشوا هنا سنوات، وحدهم، في الصلاة. لا شيء آخر. يا لها من نظرة إلى الوجود...

توقف عن الكلام. كان يفكر في تلك الكتابات، هذه الأسماء المحفورة في الصخر على أيدي نسّاك لم يتوقعوا أن يقرأها أحد. وكان هو نفسه قد أمضى سنتين يدوّن قياسات.

ـــ كان لزهدهم اتساقه، تابع. رهان على الخلود. أما رهاننا نحن... حسنًا، على العلم. بوسائل أخرى.

في 21 سبتمبر، غادرت البعثة مجددًا نحو دير القديس بولس، على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا إلى الشرق. كانت المكتبة هناك أكبر. نسخ جوليوا، وقاس جومار.

عادت البعثة إلى القاهرة في 29 سبتمبر، حاملةً نسخًا من مخطوطات قبطية وعدة قطع من الفن المسيحي وافق الرهبان على بيعها. أيقونات على الخشب، وصلبان من البرونز، ومباخر من الفضة. فهرسها جوليوا.

ـــ هذه القطع القبطية هي الحلقة المفقودة عندنا، قال جوليوا. الأقباط ينحدرون مباشرة من قدماء المصريين. ولغتهم مشتقة من المصرية الفرعونية. ودراسة القبطية هي الاقتراب من الهيروغليفية من الأسفل.

2 - الدلتا والمدينة

بدا مينو، مع مرور الوقت، أكثر ودًّا تجاه العلماء. فقد خلّف موت كليبر في أروقة القصر فراغًا كان نشاط اللجنة يملؤه، على السطح على الأقل. كان مينو يوفّر الحراسات ويخصص الأموال ويشارك أحيانًا في جلسات المجمع.

بلغ القاهرة في مطلع أكتوبر نبأ موت ديزيه في مارينغو. تلقّاه جوليوا في مكتبه. كان ديزيه، الذي عاد إلى فرنسا في مارس، خير رفيق في هذه الحملة، ذاك الذي ترك العلماء يعملون دون أن يضايقهم، والذي نظر بنفسه إلى المعابد باهتمام لم يره جوليوا عند أي جنرال آخر.

وصل النبأ مع ساعٍ عثماني، بعد نحو أربعة أشهر من الواقعة. مات ديزيه في مارينغو في 14 يونيو 1800. في اليوم نفسه الذي مات فيه كليبر، على بعد آلاف الكيلومترات، وهو يقود الهجوم على رأس فرقته ليقلب مجرى معركة ظنّها بونابرت خاسرة. أصابته الرصاصة في صدره. مات في الحال، وهو في الحادية والثلاثين من عمره.

بقي جوليوا طويلًا في مكتبه دون أن يضيء مصباحًا. كان الضوء يخفت. تركه يخفت. في الخارج واصلت القاهرة ضجيج أواخر العصر. أصوات الباعة، وأذان مؤذن بعيد، والصوت المنتظم للسواقي التي تدور في البساتين. بحث في دفاتره عن الملاحظات المدوّنة أثناء حملة صعيد مصر مع ديزيه. دفتران ونصف دفتر، مليئة صفحاتها على الوجهين. دندرة، وطيبة، ووادي الملوك، وفيلة. وفي الهوامش، أحيانًا، تعليقات لديزيه، كلها عملية. كم من الوقت للتنقيب في هذا الموقع، وكم من الرجال لتحريك هذه الكتلة، وما مقاومة هذا النوع من الحجر الرملي للرطوبة.

كانت هذه التعليقات قد أغاظت جوليوا في حينها. جنرال يطرح أسئلة لوجستية أمام دندرة، فرأى ذلك اختزالًا. وها هو يعيد قراءة هذه الصفحات في الضوء المتناقص، والأوراق تحفّ برفق في تيار الهواء من النافذة المفتوحة. كان خط ديزيه صغيرًا منتظمًا مائلًا إلى اليمين. والآن صار يقرؤها قراءة مختلفة. لقد نظر ديزيه إلى الأشياء نفسها التي نظر إليها هو، بالعينين نفسيهما، وتساءل عمّا سيصيبها، كيف تُحمى، وكم من الزمن ستصمد إن لم يُفعل شيء.

وفكّر كذلك في الدفاتر الشخصية لديزيه. كان الجنرال يدوّن يوميات حملة منذ الإبحار. رآه جوليوا يمسكها بيده عدة أمسيات، بعد التخييم، على ضوء فانوس. لم

يكن يعرف ما كتبه ديزيه فيها. ولن يعرف أبدًا. لا بد أن هذه الدفاتر عادت إلى فرنسا مع أمتعته الشخصية. أو بقيت في ساحة المعركة. أو أخذها أحد. كان لدى جوليوا، في أمتعته، سكين جيب أعارها إياه ديزيه في ديسمبر 1798 ولم يفكر قط في ردّها. سكين عادية، بمقبض من الخشب وشفرة قصيرة. استُعملت في بري الأقلام منذ نحو عامين. لم يعد يعرف ماذا يفعل بها. أن يردّها، لكن إلى من؟ تركها في أمتعته.

ما الذي يحل بدفاتر رجل مات في القتال؟ لم يكن أحد يعرف. لم تكن لدى ديزيه مجموعة، ولا حقيبة ملأى بـ*الأوشابتي* والجعارين. أوراق حملات فحسب، من تلك التي تُسترَد أو تضيع أو تُباع أو تُحرق.

واصل جوليوا تنظيم استكشافات جديدة، في غرب الدلتا هذه المرة، بعيدًا عن مواقع مطلع الصيف. سايس أولًا، ثم بوتو. تلال منبسطة، وقليل من الآثار الظاهرة.

في 15 أكتوبر انطلق مع جومار وجوفروا سانت هيلير. اثنا عشر يومًا في السهول المزروعة، يبحثون عن آثار المدن الفرعونية الكبرى في الشمال، وعن الأنواع الحيوانية التي تصورها النقوش البارزة أيضًا. وكان لدى جوفروا منهجية عالم الطبيعة — ألّا يفترض شيئًا من وراء المكتب، أن يرى أولًا — وكان يدوّن، منذ اليوم الأول، الطيور التي في القنوات تحت أسمائها اللاتينية.

بعد يومين من السفر بلغوا سايس. كان الهواء مختلفًا هنا، أكثر رطوبة وثقلًا، برائحة الحقول المغمورة وضوء أبيض لا جفاف الصحراء فيه. لم يبقَ شيء من العاصمة العظيمة لفراعنة الأسرة السادسة والعشرين. بضع كتل من الغرانيت مبعثرة في الحقول، أعاد الفلاحون المحليون استعمالها دعامات لقنواتهم.

— كيلومتران مربعان، قال جومار. تقريبًا، سيلزم أن نعيد القياس بالسلسلة غدًا. آلاف السنين من الاستيطان المتراكم طبقات، دون أي تنقيب. مدينة كاملة مضغوطة في تلّة.

لم يكن ثمة ما يُرسم. لا أثر ظاهرًا، ولا مسلّة. فقط سطح التلّة وأبعادها وارتفاعاتها المقاسة بالبارومتر. لكن في القنوات وفي جدران البيوت كتل غرانيت أُعيد استعمالها. شظايا أعمدة، وقطع أعتاب منحوتة، وأجزاء من عوارض الأعمدة.

توقف جومار أمام حافة قناة ومرّر راحته على إحدى الكتل. غرانيت وردي من أسوان، مصقول على وجه وخشن على الأوجه الأخرى.

— لن نحملها معنا، قال جوليوا. إنها جدران بيوتهم. لا تُهدم قرية من أجل حجارة.

— هم الحُماة الحقيقيون لسايس، قال جومار. من دون أن يعلموا ذلك، بالطبع. لولا بيوتهم، هذه الكتل... — ربّت على الغرانيت — لاندثرت منذ زمن بعيد.

نظر إلى رسومه التخطيطية. الكتل في الجدران. والنقوش المنسوخة سطرًا بسطر. لقد فعل الشيء نفسه الذي فعله الفلاحون، أخذ ما استطاع أخذه من سايس، على الوسيط الذي يناسبه. هم في الغرانيت. وهو في الورق.

عادت البعثة إلى القاهرة في 27 أكتوبر، بعد المرور بتلال بوتو، أكثر عريًا من تلال سايس. حجارة قليلة في أماكنها، لكن مسوحات كاملة.

في نوفمبر وديسمبر فهرس جوليوا المجموعات. عدة مئات من القطع تراكمت في عامين. تماثيل، وتمائم، وبرديات، وعملات، وحليّ، وعينات طبيعية. كان يعدّ البطاقات ويصحح نسبة القطع. وبعد أشهر من العمل الميداني، حلّ الحبر محل الغبار على أكمامه.

كان جوليوا قد اكتشف مصادفةً ورشة لنساخ أقباط في حي مصر القديمة، حيث كانت تُنسخ باليد كتب طقسية، وحيث يُعدّ الورق وفق تقنيات الكتّاب العرب. رجل عجوز وابناه. كانوا يعدّون دفاتر تُباع للتجار الذين يعيدون بيعها لعلماء اللجنة. وقد اشترى جوليوا من هناك عدة دفعات.

في صباح ما طلب أن يبقى ليراقب عملية الصنع.

كان إعداد الورق يجري وفق عملية محكمة الإتقان. تُطلى الورقة بالنشا، وتُترك لتجف، ثم تُصقل طويلًا بالحجر أو بالصدفة كي ينزلق القلم عليها دون أن يشرب الحبر. وضع جوليوا إصبعه على سطح ورقة منجزة، ناعمة كالجلد، طازجة بعد، برائحة نشا وقصب لم يشمّها في أي مكان آخر. وكانت النتيجة ورقة لينة بيضاء كريمية، لا تقلّ جودة عن أفضل الورق الأوروبي. أما التقنية، الموروثة عن النساخ العرب والأقباط في العصور الوسطى، فكان يُظن أنها لم تتغير حركة واحدة منذ قرون.

كان يرسم يدي الصانع العجوز، اللتين تؤديان هذا العمل منذ الطفولة، وقد ورثه عن أبيه، الذي ورثه عن أبيه. كان الحجر يروح ويجيء على الورقة دون أن تتابعه العينان.

— منذ متى يفعلون ذلك؟ سأل جوليوا المترجم.

طرح المترجم السؤال. أجاب الصانع العجوز دون أن يرفع عينيه.

— يقول إن أباه علّمه إياها. وإن أباه تعلّمها من شخص كان يقول إنه تلقّاها عن القدماء.

— القدماء. يقصد الفراعنة؟

سؤال جديد. جواب موجز.

— يقول إنه لا يعرف. وإن ذلك لا أهمية له. — بحث المترجم عن الكلمة. — المهم أن اليدين تعرفان.

دوّن جوليوا العبارة. أما اسم مخترع الورق فكان الصانع يجهله ويستغني عنه تمامًا. نظر جوليوا إلى يديه، إلى بقع الحبر في ثنايا المفاصل، والجلد الغليظ في إبهامه اليمنى الذي صنعته سنوات من الفحم.

هذه الذاكرة بالذات لم يكن بوسع عمل اللجنة أن يستنسخها. فاللوحات المحفورة ستُظهر شكل الأوراق والأدوات. أما الحركة — الضغط الدقيق، وزاوية القلم، ومدة الصقل التي تُقدَّر بالعين — فلن تنتقل إلى أي مكان. ستموت مع هذا الرجل وأبنائه، إلا إذا كان لأبنائه أنفسهم أبناء يريدون أن يتعلموا.

تفحّص يدي الابن الأكبر. كانتا تأتيان بالحركات نفسها التي تأتي بها يدا الأب تماماً.

عاد ومعه ثلاث ورقات جديدة ورسم اليدين الذي سيضعه لاحقاً في إطار في شقته بشارع سان دومينيك. وفكّر في تاجر الخط العجوز في خان الخليلي الذي باع جوفروا، مساء دخولهم القاهرة، ثلاث ورقات وأهداه ورقة رابعة هدية ترحيب. هذان الرجلان لا ينتميان إلى العالم نفسه. لكن حركتهما واحدة.

كان لعطف مينو وجه آخر. فقد صار مينو يهتم أكثر فأكثر بأعمال اللجنة، إلى حد التدخل في تنظيمها والادعاء بأنه يقرر ما يستحق الدراسة.

— يودّ الجنرال مينو مساجد أكثر وفراعنة أقل، نقل جوليوا إلى فوريه. مصر الإسلامية ستكون أوجه سياسيًا. لعلاقاتنا بالسكان، قال.

— ليس مخطئًا تمامًا، قال فوريه دون أن يرفع عينيه عن ورقة حساباته. في الجوهر. لكن أولوياتنا العلمية... — وضع ريشته — علينا نحن أن نقرر فيها. لا هو.

توصلوا إلى حل وسط. كرّس بعض العلماء، ومنهم شابرول ولانكريه، جزءاً من وقتهم لدراسة العصر الإسلامي، فوثّقوا مساجد القاهرة من العصور الوسطى والتقنيات المعمارية لدى البنّائين العرب. وهذه الدراسات، التي ضُمّت إلى *الوصف*، جعلت منه أحد أوائل الأعمال الأوروبية الجادة عن العمارة الإسلامية في الشرق الأوسط.

وفي الأثناء، واصل جوليوا توثيق الآثار الفرعونية. وكان منهجه قد ازداد دقة مع السنين. فهو يبدأ برسم تخطيطي عام لإدراك النسب العامة، ثم يمضي إلى مخططات مفصلة للعناصر المهمة، وينتهي بنسخ النقوش الهيروغليفية بكل ما فيها من عيوب ظاهرة، كي تتاح مقارنة لاحقة بين النسخ المختلفة للنص الواحد.

ـــ انسخوا ما ترونه، كان يكرر لمساعديه الشباب. الشقوق، والثغرات، كل شيء. هيروغليفية مثالية أقل قيمة من هيروغليفية متشققة. ما ينبغي أن تكون عليه شأنكم أنتم، لا شأن الحجر.

في صباح من أيام نوفمبر، وبينما كان يجوب القاهرة الإسلامية القديمة ليرسم واجهات البيوت التي تعود إلى العصور الوسطى، رأى جوليوا تفصيلاً لم ينسه. جندي فرنسي ـــ في العشرينيات من عمره، بزّته بالية، وبندقيته على كتفه ـــ كان واقفاً أمام كوة خارجية في بيت من الحي القبطي. وفي الكوة تمثال صغير من البرونز، ربما بطول عشرين سنتيمتراً، لإيزيس جالسة. قديم، بلا شك. وكانت الزنجرة سميكة وغير منتظمة.

نظر الجندي إلى التمثال. ثم أخذه. من دون تردد، ومن دون أن ينظر حوله. دسّه في جعبته ومضى في الزقاق. خمس عشرة ثانية في المجموع. وأصبحت الكوة فارغة.

بقي جوليوا حيث كان من دون أن ينبس بكلمة. لا سلطة له على هذا الجندي، فهو ليس ضابطاً. وحتى لو كان ضابطاً، فماذا كان سيقول؟ أن هذا الشيء ملك للبيت؟ أن صاحبه سيعود؟ لم يكن يعرف من يسكن هناك ولا إن كان البيت لا يزال مسكوناً. كان يعرف أن التمثال ظلّ في تلك الكوة زمناً كافياً ليترك على قاعدته دائرة من الحجر أنظف من سائره.

أخرج دفتره ورسم الكوة الفارغة. حدود الغياب. البقعة الأفتح حيث استقرت قاعدة التمثال سنين طويلة. كان ذلك كل ما في وسعه. أن يوثّق ما اختفى للتوّ. ربما يضمّ *وصف مصر* رسماً لإيزيس مشابهة، مأخوذاً من مجموعات اللجنة. لكن ليس تلك الإيزيس بالذات. تلك ستظل في جعبة الجندي حتى الساحل، ثم في سوق، ثم في صالون مرسيلي إن اشتراها أحدٌ في الميناء.

بقي هناك لحظة أخرى، ودفتره مفتوح على رسم الكوة الفارغة. ثم عاد إلى القصر عبر أزقة الحي القبطي. وفي الدكاكين التي لم تفتح أبوابها بعد، كان أطفال يلعبون على العتبات. مشى من دون أن يُخرج دفتره، ومن دون أن يرسم.

3 - الزراعة والري

خلال شتاء 1800-1801، انصرف مهندسو اللجنة وخبراؤها الزراعيون إلى الزراعة المصرية، وهو ميدان كان الافتتان بالآثار قد حجبه حتى ذلك الحين، وقد أدهشتهم نجاعته. عرض كونتيه أعماله في الهيدروليكا على المجمع منذ أول جلسة في الشتاء، وفي يده حزمة من الرسوم.

ـــ الزراعة المصرية تُلخَّص في جملة واحدة. فيضان النيل يخصّب الحقول كل صيف. وكل ما عدا ذلك ـــ القنوات والأحواض والأجهزة الميكانيكية ـــ ليس سوى الإدارة المنظمة لهذه الحقيقة الطبيعية.

ووصف الشادوف، وهو رافعة بسيطة ذات ثقل موازن لاستخراج الماء، والساقية، وهي عجلة يديرها ثور لكميات أكبر. آلتان كان أي فلاح يعرف كيف يصنعهما ويصلحهما بالخشب المحلي والحبل.

ـــ تبدوان بدائيتين. جرّبوا إذن أن تبنوا أفضل منهما بالخشب والحبل النباتي وطين البلاد.

كان كونتيه يعرف ذلك بالتجربة ـــ آلة بسيطة حسنة التصميم تعادل مئة آلة معقدة سيئة الملاءمة. وقد تعلّم المصريون ذلك قبله بآلاف السنين.

وجعل يمرّر رسومًا تقنية لشبكة القنوات التي توزع ماء النيل على كامل الوادي المزروع. تنقلت الأوراق من يد إلى يد. شجرة مائية متفرعة على مئات الكيلومترات، تتعاهدها جماعيًا عشرات القرى.

ـــ القناة التي لا تُكسح تموت في ثلاث سنوات. يسدّها الطمي. وهنا، هذا عمل الشتاء. مئات الرجال في الماء إلى الخصر. لا تستطيع قرية واحدة أن تصون قناة كبيرة. لا بد من سلطة تأمر القرى كلها، فرعون أو خليفة أو بك. لا أقول إن الماء صنع الملك؛ بل أقول إنه لا يستغني عنه.

وبالتوازي مع الري، كان عدد من العلماء يدرسون النباتات المزروعة والممارسات الزراعية. وكان جوليوا يقضي أيامه في الحقول، يرصد الدورات الموسمية وتقنيات الحرث والأصناف المحلية، ويعود في المساء وحذاؤه الطويل رمادي من الوحل.

ـــ النباتات نفسها، والأدوات نفسها، والحركات نفسها، قال جوليوا. إنها زراعة الدولة القديمة. أربعة آلاف عام لم تغيّر شيئًا من الجوهر.

ـــ لم يكن المصريون بحاجة إلى السماد، قال كونتيه. كان النيل يأتيهم به كل عام من جبال الحبشة. كانوا يوجّهون الماء إلى الحقول، وينتظرون الرواسب، ثم يتركونه ينسحب قبل البذار.

أما مارسيل، الذي لم يكن مهندساً، فقد اكتشف في هذا الشرح مفتاحاً لفهم عمارة المعابد الفرعونية. فالهياكل الكبرى كانت موجهة في الغالب عمودياً على النيل، ومحاورها الرئيسة متجهة نحو النهر أو نحو الجهات الأصلية بحسب التقويم الزراعي. وكان علم الفلك الديني المصري لا ينفصل عن التقويم الزراعي، المضبوط بدوره على دورات النيل.

— ترون... المعبد لا يدير ظهره للحقول. إنه ينظر إلى النهر، حيث تأتي الحياة. والشمس تغرب من جهة الصحراء، حيث يُدفن الموتى. وعليه فإن ديانتهم، في العمق، هي — كيف أقول — علم كونيات مائي. الكلمة بشعة، سامحوني عليها.

— النيجر، والسند... أي نهر طميي، لو طُبّق عليه هذا النظام، لأعطى آثارًا مماثلة، قال كونتيه. ليس في ذلك شيء محلي. كل ما في الأمر أن المصريين وجدوا الوقت لإتقانه.

كان عبد الله بن يوسف، الذي لا يشترك مع الجنرال مينو إلا في الاسم الأول، *وكيل* ترعة الجيزة منذ ست عشرة سنة. كان يشرف على الكسح السنوي لسبعة كيلومترات من الترعة الرئيسة وفروعها، وينسّق عمل أربع عشرة قرية، ويفصل في النزاعات حول توزيع الماء بين الفلاحين.

في ذلك الصباح، كان مهندسان من اللجنة قد اتخذا لهما مكانًا على ضفة ترعته الرئيسة. الطويل النحيل هو جوليوا، بأدواته. أما الآخر فكان منحنيًا على أوراقه. كانا يرسمان ويقيسان ويتحدثان فيما بينهما. والمترجم الذي جاءا به لم يكن جيدًا. كان ينقل الكلمات لا المعنى. وكان عبد الله يعرف ذلك من الطريقة التي يتعثر بها أمام المصطلحات التقنية.

راقبهما ساعة كاملة من الضفة الأخرى، مستترًا بين قصب الحافة. أراد أن يفهم ما الذي يبحثان عنه. كانا يقيسان عرض الترعة وارتفاع الضفاف وانحدار القاع. كان يرى ذلك من حركات الطويل النحيل بأداة التسديد التي معه. الجنود كانوا سيراقبون ما حولهم. أما هذان الرجلان فلم يكونا ينظران إلا إلى الترعة.

اقترب منه الطويل النحيل. وسأله عبر المترجم كم يوم عمل يمثّل الكسح السنوي، وكم رجلاً يلزم، وكيف تُنظَّم الفرق بين القرى. أسئلة *وكيل*.

أجاب عبد الله بعناية. كان يعلم أن هؤلاء الفرنسيين يكتبون كل شيء. وكان الطويل النحيل يدوّن أجوبته بسرعة تدل على أنه يفهم ما يُقال له، حتى لو تعثّر المترجم. وحين شرح عبد الله نظام أدوار الكسح — كل قرية مسؤولة عن قطعة، بالتناوب على ثلاث سنوات — كانت له حركة الذقن الخاطفة تلك، حركة الرجال الذين يُؤكَّد لهم ما كانوا يفترضونه من قبل.

لم يكن ما يزعج عبد الله فضول الفرنسيين، بل كونهم يعاملون الترعة كشيء. كشيء يمكن قياسه ووصفه ووضعه في كتاب، ثم فهمه. وكان عبد الله قد أمضى ست عشرة سنة يتعلم أن الترعة لا تنحصر في قياساتها. لها أمزجة. ففي سنة الفيضان العالي كانت تفيض من مواضع لم تفض منها قط. وفي سنة الانخفاض كانت تُظهر ممرات عسيرة لم يرها أحد منذ ثلاثين سنة. ولضبط ذلك كان لا بدّ

من الذاكرة — الذاكرة التي نقلها إليه أبوه والتي سينقلها هو إلى ابنه —، لا من أدوات التسديد.

تركهم يعملون. لم يكونوا يطالبون بشيء. ولم يكونوا يعبثون بشيء. وفي نهاية الصباح، أراه الطويل النحيل رسمه للترعة، مقطعاً عرضياً دقيقاً، بالمقاسات مكتوبة بالأرقام. نظر إليه عبد الله من دون أن يقول شيئاً. كان دقيقاً. كانت هذه هي الترعة. لكن الرسم لم يكن يقول لماذا كانت الضفة اليسرى عند الكيلومتر الثالث أضعف من اليمنى، ولا كيف يُستشفّ من لون الماء إن كان طمي هذه السنة جيداً أم رملياً أكثر مما ينبغي. الرسم كان يُظهر الترعة. أما هو فكان يعرف الترعة.

دلّهم، عبر المترجم، على نقطتين من الترعة تكون القياسات فيهما أجدى. نقطتان أراه إياهما أبوه ولم يكن يعرف كيف يشرح أهميتهما. كان يحسّ بها، وهذا كل شيء. ذهب إليهما الطويل النحيل بلا تردد. لا بد أنه وجد فيهما ما يستحق الاهتمام، لأنه أمضى ساعتين عند كل منهما.

في أواخر فترة ما بعد الظهر، قبل أن يرحل، سأله الطويل النحيل — دائماً عبر المترجم — كم يستغرق تعلّم *الوكيل*. العمر كله، أجاب عبد الله. ترجم المترجم ذلك. وكان عبد الله يودّ أن يضيف أن التعلّم لا ينتهي لأن الترعة أيضاً لا تنتهي من التغيّر، وأن حكمة *الوكيل* هي أن يعلم أن ما لا يزال يجهله أعظم مما يعرفه.

عاد جوليوا إلى القاهرة ومعه اثنان وسبعون كيسًا من الطمي وصفحات من القياسات الهيدرولوجية. كان يفكر في *الوكيل*، وفي نظرته إليهم وهم يعملون من الضفة الأخرى، وفي دقة أجوبته، وفي النقطتين من الترعة اللتين دلّهم عليهما. لم يكن هذا الرجل يكتفي بتحمّل الفرنسيين. كان يحسب. وفكّر في طريقته هو في رؤية هذا البلد، بالقياسات، وبالمقاسات، وبالمقاطع العرضية، فلم يجدها مختلفة كثيرًا.

— وصاحبكم *الوكيل*... ست عشرة سنة على هذه الترعة، ماذا قال لك؟ سأل كونتيه في اليوم التالي، أثناء عرض النتائج.

— قال إن التعلّم يدوم العمر كله. أما الباقي فلم يقله. أظن أنه كان يفكر في أن ما لا يزال يجهله يفوق ما يعرفه.

ترك كونتيه قلمه مستلقيًا على الورقة ونظر إلى أكياس الطمي المصفوفة على الطاولة. اثنتان وسبعون عينة أُخذت على امتداد الترعة وفروعها، موسومة ومرقّمة، جاهزة للسفر إلى باريس. الأرض المصرية في أكياس من القماش الفرنسي. وتخيّل جوليوا راكعًا على حافة الترعة، وأصابعه في الطمي الرطب بعدُ، يحسّ ملمس كل عينة قبل أن يقيسها.

— أراضيهم، وتماثيلهم... قال. الأمر سيّان. نأخذ ما يهمّنا ونسمّيه علمًا.

تأخر جوليوا لحظة في الجواب. طمي، *أوشابتي*... في الحالتين كان شيء ما يغادر مصر، ولم يكن الفرق واضحًا كما كان يتمنى.

— الفرق، قال أخيراً، أن بالإمكان أخذ الطمي من دون إفقار الحقل. فالفيضان يعيده كل عام. أما التماثيل فلا يعيدها النيل.

— هذا حدّ عملي. لا أخلاقي.

صمتا. في الخارج، في الفناء، كان يُسمع صوت الخدم المصريين، والدقّ المنتظم في الهاون، وأصوات بالعربية، وكانت تفوح رائحة الكمّون. وهؤلاء الرجال أيضاً تعلموا مهنتهم عن آبائهم. لن يسافروا إلى باريس في أكياس من القماش.

بدأ كسح الترعة الرئيسة في الأسبوع الثالث من ديسمبر. طلب جوليوا من عبد الله أن يسمح له بالمراقبة. قبل عبد الله بوجه لا يفصح عن شيء.

كانت الفرق تعمل بحسب القرى، كل منها على قطعتها المخصصة. رجال في الماء إلى الخصر، ينتزعون الطمي من القاع بمجارف خشبية عريضة، ويحمّلونه في سلال مجدولة يحملها آخرون إلى الضفاف. وكان الطمي المكوَّم على الضفاف سيُوزَّع بعد ذلك على الحقول، حتى آخر سلة.

بقي جوليوا خمس ساعات يراقب. عدّ الرجال، وقاس حجم الطمي المستخرج في الساعة، ودوّن عمق القطع قبل الكسح وبعده. كانت الإنتاجية منتظمة. لا هدر في الحركة، ولا فوضى بين الفرق. كان هؤلاء الرجال يفعلون ذلك منذ الطفولة. ولم يكن أحد منهم ينظر إلى مجرفته.

عند منتصف النهار، جاء عبد الله وجلس إلى جانبه على الضفة. نظر إلى جوليوا يدوّن أرقامه بلا كلام بضع دقائق. ثم تكلم، وترجم المترجم بجمل قصيرة.

— يقول إن جدّه أراه موضعاً، أسفل من هنا، يكون فيه قاع الترعة من صخر حيّ. وحين يكون القاع من صخر حيّ، تصمد الترعة صموداً أفضل في سنوات الفيضان العالي. أبوه كان يعرف ذلك. وهو يعرفه. أراد أن يعرف إن كنتم تعرفونه.

نظر جوليوا إلى المترجم، ثم إلى عبد الله. وراء السؤال، كان يسمع سؤالاً آخر. هل يعرفون أصلًا ما يقيسونه؟

— لا، قال. لم أكن أعرف. أروني هذا الموضع.

نهض عبد الله بلا عجلة. ساروا معاً على طول الترعة عشرين دقيقة. توقف عبد الله أمام مقطع يبرز فيه القاع. صخرة داكنة، صفلتها قرون من التيار، مخططة بخطوط من الرواسب المعدنية. جثا جوليوا. أخرج سكينه وكشط السطح برفق. حجر جيري متماسك. لقد حُفرت الترعة هنا تبعاً للنتوء الطبيعي. أحدهم، قبل ثلاثة آلاف سنة، اختار هذا الموضع لهذا السبب.

دوّن جوليوا الموضع، ورسم الصخرة بخطوطها. كان عبد الله يراقبه وهو يفعل. وحين انتهى جوليوا، قال شيئاً احتاج المترجم إلى لحظة ليترجمه.

— يقول إن الفرنسيين يكتبون ما يفعله المصريون منذ الأزل. وربما كان ذلك نافعًا. لكن الكتابة لا تغني عن أن يكون المرء قد فعله ألف سنة.

أعاد جوليوا قلمه إلى مكانه. كان الكلام صائبًا. ولم يجد ما يجيب به.

في المساء رافق عبد الله جوليوا إلى طرف القرية حيث نصب الرتل الفرنسي معسكره. سارا جنبًا إلى جنب دون كلام، والمترجم يتبعهما على بعد خطوات. كانت الشمس منخفضة فوق الصحراء الغربية، والضوء طويلًا أصفر على الحقول التي كشفها انحسار المياه.

توقف عبد الله. نظر إلى الحقول هنيهة، ثم قال شيئًا نقله المترجم على هذا النحو. في ركن الحقل الأقرب — وكان يشير إليه بإصبعه — كومة من كتل الحجر الجيري وجدها وهو ينظف القناة في الشتاء الماضي. كتل منقوشة. وهو لا يعرف قراءة العلامات. وقد وضعها هناك لأنه لم يدر ماذا يصنع بها.

ذهب جوليوا ليرى. أربع كتل من الحجر الجيري الأبيض، في حجم الشمام، مكدسة في زاوية الحقل، على حافة الضفة. كانت كل منها تحمل كتابات هيروغليفية بارزة، حسنة الصنعة. نقش إداري على الأرجح، أو صيغة نذرية، من عصر الدولة الحديثة. جاءت من معبد فُكّك، وأُعيد استعمالها في جدار، ثم سقطت في القناة.

رسمها جوليوا. ثم دوّنها في سجله، مع موضعها الدقيق ووصف العلامات. وأخذ أصغر الكتل الأربع — ثلاثة كيلوغرامات، وجه منقوش وثلاثة أوجه خام — ووضعه في حقيبته الميدانية.

راقبه عبد الله وهو يفعل. لم يقل شيئًا. كان قد دلّه على الكتل لأنها بدت له مهمة، لا لأنه توقع أن تُحمل. غير أن الفرنسي رسم أولًا. ولم يأخذ على الفور.

— سيبقى الرسم حتى لو ضاعت الكتلة، قال جوليوا عبر المترجم. وأنا آخذ الكتلة لأدرسها في باريس. وإن لم آخذها فستحملها القناة العام القادم، ولن يبقى شيء لا من الكتلة ولا من الرسم.

أصغى عبد الله إلى الترجمة وهزّ كتفيه — إيماءة من لم يقتنع لكنه لا يملك الطاقة للجدال — ثم عاد إلى القرية.

4 - الوقت الذي يضيق

في 8 مارس 1801 نزل نحو ستة عشر ألف جندي بريطاني في أبو قير وزحفوا نحو الإسكندرية. وكانت الحرب التي ظُنّ أن اتفاقية العريش قد حسمتها قد اندلعت

من جديد. وأدرك علماء اللجنة، المجتمعون في القاهرة، أن رحيلهم عن مصر سيتوقف من الآن على استسلام عسكري.

حشد مينو قواته. لكن رجاله كانوا مبعثرين بين الإسكندرية والقاهرة وصعيد مصر، وكان تجميعهم في الوقت المناسب مستحيلًا. ودارت معركة مؤسفة في 21 مارس قرب الإسكندرية، عند كانوب. قاتل الفرنسيون جيدًا. كان للبريطانيين العدد والسفن — تلك التي كانت تنقص الفرنسيين منذ الأول من أغسطس 1798.

كانت تصل من الشمال الشرقي أنباء مقلقة. جيش عثماني كبير يتقدم بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا، عشرون ألف جندي يعززهم المماليك. وصار الاستسلام لا مفر منه. وفي أروقة المجمع لم يعد أحد يسأل هل سيستسلمون، بل متى، وبأي شروط ستنجو المجموعات.

دعا فوريه إلى اجتماع استثنائي للجنة مساء 14 مارس. حضر جميع العلماء الموجودين في القاهرة. نحو عشرين رجلًا جلسوا حول المائدة الكبرى في مكتبة المجمع. وكان يُسمع في الخارج نداء التجار وهم يغلقون حوانيتهم.

— أيها السادة، بدأ فوريه، علينا أن نعدّ الدفاع عن مجموعاتنا. فمعاهدات الاستسلام تنص عادة على أن للمنتصرين أن يصادروا الأملاك العائدة إلى الدولة المهزومة. فإذا عُدّت مجموعاتنا ملكًا للدولة الفرنسية، كان للبريطانيين حق المطالبة بها. الحق، أقول الحق.

ساد صمت. ثم تكلم جومار.

— علينا أن نحملهم على الاعتراف بها ملكًا علميًا... دوليًا، لا ملكًا عسكريًا فرنسيًا. إن أعمالنا تنتمي إلى العلم الكوني، لا إلى حكومة بعينها.

— عند البريطانيين علماء طبيعة، قال جوفروا. وسيكون لديهم أيضًا مفوضون يعرفون الآثار. سيعرفون بالضبط ما لدينا.

تدخل مارسيل.

— كل شيء سيُحسم بتمييز واحد. ملكية المؤسسة، والملكية الشخصية. فما اشتُري من جيبنا الخاص يمكن الدفاع عنه على هذا الأساس. أما ما جُمع باسم اللجنة... فحمايته ستكون أصعب.

استمر النقاش ثلاث ساعات. ورسم العلماء الخطوط العريضة لاستراتيجيتهم. لن يعارضوا المصادرة بالقوة، فلا الوسائل لديهم ولا السلطة لذلك، لكنهم سيتمسكون بحقوقهم أمام المفوضين البريطانيين، وسيعرضون حججهم، وسيفاوضون قطعة قطعة إن لزم الأمر.

قضوا الليلة الفاصلة بين 14 و15 مارس في إعداد جرد موازٍ. جرد رسمي لكل ما تملكه اللجنة، وجرد شخصي لما يحوزه كل عالم باسمه الخاص. عمل مارسيل حتى الخامسة صباحًا. فتح سجله على الصفحة المئة. وأعاد قراءة القيود الأخيرة. تمثال صغير لأنوبيس من البرونز، ارتفاعه اثنان وعشرون سنتيمترًا، اشتراه من خان الخليلي في 3 سبتمبر 1799 بثمانية قروش من التاجر يوسف بن خليل. بردية جنائزية مجزأة، خمسة عشر سنتيمترًا في عشرين، اشتراها من فلاح في سقارة في 17 نوفمبر 1799 بثلاثة قروش. جعران من الستياتيت الأخضر، من العصر البطلمي، اشتراه من سوق الأزبكية في 2 فبراير 1800 بقرش ونصف. وكان بالإمكان التحقق من كل صفقة، ولم تكن له حماية أخرى.

بلغ سجل مشترياته مئة واثنتي عشرة صفحة، ومئة واثنين وستين قيدًا منذ أول سوق في الإسكندرية، قبل نحو ثلاث سنوات. وكانت كل قطعة اقتناها باسمه مدونة فيه بتاريخها ومكانها والثمن المدفوع، واسم البائع إن كان يعرفه. وقد ظل هذا السجل يُمسك منذ البداية بدقة كاتب عدل، لأن مارسيل أدرك منذ الإسكندرية أن هذا التمييز سيغدو ذا شأن في نهاية المطاف.

— هل يصمد هذا السجل؟ سأل فورييه وهو يقرأ من فوق كتفه.

— يصمد في ما هو مؤكد. أما الباقي... فيصمد إن لم يشتدّ المفوض البريطاني أكثر من اللازم. فالمفوض الذي يريد أن يأخذ كل شيء سيجد دائمًا ذريعة. والمفوض المعقول سيقبل هذا السجل دليلًا كافيًا. ربّت مارسيل على الغلاف، حيث لم يكن حبر الأمس قد جفّ تمامًا.

— إذن كل شيء رهن بالمفوض.

— كل شيء رهن بالمفوض، نعم.

كانت مسألة حجر رشيد تشغل العلماء بوجه خاص. فهو أهم قطعة عثروا عليها. وإن ذهب إلى لندن صار فك رموز الهيروغليفية نصرًا بريطانيًا. لكن مارسيل كان قد اتخذ احتياطاته. فمنذ أكثر من عام صنع في القاهرة طبعات حبرية للنقش، حملها الجنرال دوغا إلى باريس. وقد وصلت. وصارت في يد سيلفستر دو ساسي، كبير المتخصصين الفرنسيين في النصوص الشرقية. وحتى لو ذهب الحجر إلى لندن، فإن الطبعات ستبقى في باريس.

— المعلومة تسافر، قال مارسيل. أما الشيء... الشيء، فلا. هذه المعركة، ربما ربحناها فعلًا.

وفي الأسابيع التالية انصرف العلماء إلى نسخ أعمالهم نسخًا منهجيًا، بعد أن كانوا يمارسونه حتى ذلك الحين مرة بعد مرة. وتحولت مكتبة المجمع إلى ورشة نسخ. نُصبت طاولات على امتداد الجدران، خُصصت كل منها لنوع من الوثائق. طاولة

لنسخ الرسوم بالشفاف. وأخرى لإعادة كتابة القياسات الطبوغرافية. وأخرى لنسخ النصوص القبطية. وأخرى للأوصاف النباتية والحيوانية.

كان العمل دقيقًا ومرهقًا. أشرف جوليوا على إنجاز مئة وثلاث وثمانين نسخة شفافة من أهم رسومه. معابد صعيد مصر، وأهرام الجيزة وسقارة، ومقابر وادي الملوك. وكان قد جنّد ثلاثة رسامين شبان من الجيش يحسنون إمساك القلم وتتبع الخط. كان يريهم رسمًا أصليًا ويطلب منهم نسخة سريعة بالشفاف، الخطوط الخارجية فقط، دون ظلال ولا تفاصيل زائدة، بما يكفي لتمرير جوهر العمارة.

لُفّت هذه النسخ في أنابيب من الخيزران وأُودعت لدى تاجر يوناني تعهد بإرسالها إلى باريس على أول سفينة محايدة. دفع له جوليوا خمسين قرشًا سلفًا ووعده بخمسين أخرى إن بلغت الأنابيب وجهتها.

— أتثق به؟ سأل جومار وهو يرى القافلة تنصرف.

— لا. نظر جوليوا إلى الغبار وهو يهدأ خلف الدواب. لا خيار. إن ضاع إرسال، فربما يصل آخر.

أما جومار فنسخ من جهته أحدث قياساته الطبوغرافية على مجموعة ثانية من الأوراق. واستغرق العمل منه تسعة أيام. كان يعمل في المساء على ضوء مصباح، ينسخ رقمًا رقمًا، وزاوية زاوية. وكان كل قياس يُراجع مرتين. فرقم واحد خاطئ يمكن أن يبطل سلسلة كاملة من الحسابات. وكانت دفاتره تمتلئ بأعمدة الأرقام والرسوم الهندسية والهوامش. وكانت النسخ ستوضع في صندوق غير صندوق الأصول، ودوّن جومار على كل منها رقم الصندوق التوأم.

لم يكن جوفروا يستطيع نسخ مرطبانات أسماكه. فالعينة المحفوظة في الكحول لا نسخة لها. لكنه رسم كل عينة بدقة تكفي لكي يتعرف عالم طبيعة إلى النوع من الرسم وحده. مئتان وأربعون نوعًا، واحدًا واحدًا، مع ملاحظات مفصلة عن المصدر والحجم والخصائص التشريحية المميزة. رسوم باردة، دقيقة، خالية من التعبير، وثائق عمل لا فنًا. وإن حُطمت المرطبانات، بقيت الأوراق.

في 25 مارس بلغ القاهرة نبأ أكثر دقة. كان الجيش العثماني للصدر الأعظم يوسف باشا يتقدم من سوريا ويقترب من حدود مصر. وبدا التحامه، عاجلًا أو آجلًا، بالقوات البريطانية النازلة في أبو قير أمرًا لا مفر منه. وسرعان ما ستصبح القاهرة مهددة من جهتين.

دعا فوريبه العلماء في المساء نفسه.

— أيها السادة، علينا أن نسرّع برنامج النسخ. كل ما يمكن نسخه يجب أن يُنسخ سريعًا. بعد ذلك... بعد ذلك سيكون الأوان قد فات.

اشتد الإيقاع. صار العمل من الفجر حتى منتصف الليل. وكانت مصابيح الزيت تحترق بلا انقطاع. وكانت رائحة الحبر الطري تملأ الأروقة. وكان العلماء يعملون مثنى مثنى، أحدهما يملي والآخر يكتب. واستُدعي كتبة عسكريون للمساعدة في نسخ الوثائق الإدارية.

في 8 أبريل قطع حادث سير العمل. كان جومار ينسخ سلسلة من القياسات الزاوية المأخوذة في دندرة حين اصطدم مرفقه بالمحبرة. انسكب الحبر على الورقة. ضاعت ثلاث ساعات من العمل. نظر إلى الصفحة التالفة، والسواد الذي ابتلع الأرقام. ثم أخذ ورقة جديدة وبدأ من جديد، سطرًا بعد سطر. رفع جوفروا، على الطاولة المجاورة، عينيه، ثم انحنى من جديد على سمكته.

لم يكن يُسمع في المكتبة سوى صوت الأقلام على الورق، وخشخشة الصفحات التي تُقلب، وهمسات النساخ. وأحيانًا شتيمة مكتومة حين تفسد بقعة حبر صفحة كادت تكتمل. فكان لا بد حينئذ من البدء من جديد.

في أبريل أرسل جوليوا دفعة ثانية من النسخ الشفافة مع قافلة تجارية متجهة إلى الساحل. ودفع من جديد خمسين قرشًا سلفًا لزعيم القافلة، فعدّ القطع مرتين، كرجل يعلم أن السفن تغرق، وأن الصناديق تسقط من العربات، وأن اللصوص يجوبون الطرق.

وبالتوازي مع النسخ كان العلماء يضعون استراتيجيتهم القانونية لمواجهة المفوضين البريطانيين. وضعوا قائمة بالقطع التي سيدافعون عنها بالأولوية. حجر رشيد في الطليعة، يليه التوابيت الكبرى، والتماثيل الضخمة، ومجموعات جوفروا الطبيعية، والمسوح الخرائطية لجومار، ودفاتر جوليوا. وأعدوا لكل فئة حججًا تقوم على التمييز بين الملكية المؤسسية والملكية الشخصية، وبين الأشياء المجموعة والأعمال المبتكرة.

صاغ مارسيل المبدأ الذي سيوجه دفاعهم. دفاتر الرسم ليست غرائب، بل أدوات عمل. والطبعات الحبرية ليست آثارًا، بل ورق وحبر أنتجهما العلماء أنفسهم. والأدوات العلمية أدوات مهنية، لا غنائم حرب. والعينات الطبيعية تنتمي إلى عالم الطبيعة، لا إلى دولة بعينها.

— تتحدث معاهدات من هذا النوع عن الغرائب الطبيعية والصناعية، قال مارسيل. حسنًا جدًا. أعمالنا ليست غرائب، بل إنتاج علمي. وعلينا أن نبرهن على ذلك.

— سيريد البريطانيون أخذ كل شيء، أجاب جومار. لا أظن أن الحجج...

— مناطق رمادية، قاطعه فوربيه. حججنا ستصنعها. وفي المنطقة الرمادية تجري المفاوضة. المفوض المعقول سيقبل أن يترك بعض الأشياء. وهنا ينبغي أن نركز جهودنا.

— وإن لم يكن المفوض معقولًا؟ سأل جوفروا.

— عندئذ سنخسر كل شيء. أشار فوربيه بيده إشارة غامضة. سنكون قد حاولنا. وستبقى النسخ.

ونوقشت أيضًا المسألة الأخلاقية للسلب. ففي اجتماع في أبريل أثار جومار المشكلة التي كانت تشغل بالهم جميعًا دون أن يجرؤ أحد على صياغتها بوضوح.

— لقد جمعنا أشياء من ثلاثة أنواع مختلفة. أولًا، ما أنتجناه بأنفسنا. قياسات ورسوم ومذكرات. وهذا ملك لنا، في ظني، بلا جدال. ثم العينات الطبيعية. أسماك ونباتات ومعادن. وهذه لا تخص أحدًا، وجمعنا لها لا يحرم أحدًا. وأخيرًا... الأشياء المستخرجة من المقابر والمعابد والمدافن. تلك كانت ملكًا لمصر. وقد أخذناها.

تدخل جوفروا.

— من الناحية النظرية، نعم. أما في الواقع... الفلاحون الذين ينهبون المقابر ليبيعونا ما فيها، كانوا سينهبونها على أي حال. لم نفعل سوى أن عجّلنا ما كان قائمًا من قبل.

— هذا يخفف، أجاب جومار. لكنه لا يبرر شيئًا.

أما جوليوا، الذي ظل صامتًا طوال النقاش، فتكلم أخيرًا.

— وهناك أيضًا المسألة العملية. فإن سلّمنا بأن هذه الأشياء تعود إلى مصر، فلا حجة لنا بعد ذلك في وجه البريطانيين. وإن قلنا إنها لنا، فعلينا أن نمضي إلى النهاية. لقد أخذناها. وسنحتفظ بها. وسننشر.

أومأ فوربيه موافقًا.

— أن نكون أصبنا أو أخطأنا في أخذها، قال، نقاش أكاديمي. هذه الأشياء بين أيدينا. والبريطانيون سيطالبون بها. هل يرى أحد هنا أن علينا أن نتخلى لهم عنها طوعًا، باسم مبادئ أخلاقية؟

لم يجب أحد. ما من عالم في هذه القاعة كان مستعدًا للتخلي طوعًا عن سنوات من العمل. كان جوفروا ينظر إلى الطاولة، ومارسيل إلى يديه.

— إذن نحن متفقون، قال فوربيه. سندافع عن مجموعاتنا. لكن ونحن نعرف لماذا. لأنها لنا، بطبيعة الحال — ولأن العلم الفرنسي، في ما أعتقد، سيحسن استعمالها أكثر من العسكريين البريطانيين.

أضاف مارسيل تحفظًا.

— وماذا لو أحسن البريطانيون استعمالها أكثر منا؟ إن المتحف البريطاني مؤسسة جادة. وعلماؤهم أكفاء. وحجتنا في التفوق العلمي لا تصمد إلا إذا نشرنا أعمالنا

فعلًا. فإن انتهت مجموعاتنا في صناديق في باريس عشرين سنة، كان البريطانيون محقين في أخذها منا.

— صحيح، أقرّ فوريه بعد برهة. سيتعين أن ننشر. وإلا فلا شيء مما فعلناه هنا يجد ما يبرره.

في 12 مايو وصل إلى القاهرة ضابط نجا من أحد مراكز الدلتا حاملًا أخبارًا. كان البريطانيون، وقد صاروا سادة رشيد منذ أواخر أبريل، يستعلمون من الأسرى والتجار عما جمعه المجمع العلمي المصري. جعله فوريه يكرر روايته مرتين. فالمفوضون البريطانيون سيأتون إذن بمطالب محددة، وكان جردهم على الأرجح معدًّا بالفعل.

في مايو اتضحت الأخبار العسكرية. كان البريطانيون يصعدون النيل ببطء. والعثمانيون يتقدمون من الشمال الشرقي. وكان التقاء الجيشين عند القاهرة أمرًا لا مفر منه، في غضون بضعة أسابيع على الأكثر.

وضاعف العلماء جهودهم. وكان كل يوم يأتي بنصيبه من القيود ومن القرارات التي ينبغي اتخاذها. ماذا ينبغي نسخه أولًا؟ وماذا يُترك؟ وكيف يُقسَّم الورق والحبر والوقت بين مشاريع تبدو كلها على القدر نفسه من الاستعجال؟

وفي مثل تلك اللحظات كان الفرق بين العلماء يظهر جليًا. فبعضهم كان يُصاب بالذعر ويريد إنقاذ كل شيء، فيشرع في عشرة مشاريع نسخ في وقت واحد دون أن يُتمّ أيًّا منها. وآخرون، مثل جومار، كانوا يحافظون على منهجهم، ويضعون أولويات واضحة، ويلتزمون بها.

كان فورييه يراقب ذلك كله عن كثب. وكان يدوّن ملاحظات. لا عن الأشياء، بل عن الرجال. كيف يتصرف كل واحد تحت الضغط. من يحتفظ بصفاء ذهنه. ومن يفقده. ولم تكن هذه الملاحظات لتفيد يومًا في لوحات *وصف مصر*. لكنها ستعينه، بعد سنوات، على كتابة المقدمة التاريخية للكتاب.

في أواخر مايو، مرّ فورييه بالمشغل بعد منتصف الليل. كانت المصابيح لا تزال مشتعلة. وكان ثلاثة نسّاخ يعملون في صمت، منحنين فوق أوراقهم. أحدهم ينسخ قياسات طبوغرافية، والثاني ينقل رسم معبد بالورق الشفاف، والثالث يدوّن أوصافًا نباتية. توقف فورييه عند إطار الباب. إن أخذ البريطانيون كل شيء، فهذه النسخ هي ما سيبقى. مكث هناك برهة، دون أن يرفع أحد منهم رأسه، ثم مضى.

في منتصف يونيو، دُعي إلى اجتماع أخير. لم تعد الجيوش المعادية تبعد عن القاهرة إلا مسيرة بضعة أيام. وكان على العلماء أن يتخذوا ترتيباتهم الأخيرة.

أجرى جوليوا الجرد النهائي لأنابيبه في 20 يونيو. ثلاثة وعشرون أنبوبًا من النحاس تحتوي على ألفين وسبعة وثمانين رسمًا. ومئتان وسبعة وثلاثون دفترَ

ملاحظات. ومئة وثلاث وثمانون نسخة شفافة في الدفعة الأولى، وأخرى في الدفعة الثانية، كلها أُرسلت من قبل. ودوّن القائمة على ورقة طواها أربع طيّات ودسّها في سترته.

— أيها السادة، قال فوربيه، لقد فعلنا ما في وسعنا. أعمالنا منسوخة. وجردنا مكتمل. وحججنا جاهزة. سيصل البريطانيون بقوائمهم، ولدينا قوائمنا. وما سيحدث بعد ذلك رهنٌ بالمفاوضات. وما كان بوسعنا أن نكون أفضل استعدادًا.

تكلم جوليوا بعد ذلك.

— حتى النهاية. لن تنتهي في مخازن متحف بريطاني دون أن تكون قد خدمت العلم.

لم يضف أحد شيئًا. طُويت الأوراق، وأُطفئ مصباح. وتفرق الاجتماع قبل منتصف الليل.

في الأيام الأخيرة من يونيو، كانت حوانيت القاهرة تفتح متأخرة وتغلق باكرة. وكانت الدوريات الفرنسية تتلاقى دون أن يكلم بعضها بعضًا. وفي المجمع كانوا يعبّئون، ثم يفتحون ما عبّأوه ليتحققوا.

5 - هزيمة القاهرة

في 27 يونيو 1801، كان الوضع العسكري لا يُحتمل. فمينو، المحاصر في الإسكندرية، لم يكن قادرًا على نجدة القاهرة. أما الجنرال بيليار، قائد الحامية، فقد فتح قبل أيام قليلة مفاوضات الاستسلام مع الجنرال هتشنسون والصدر الأعظم يوسف باشا.

وُقّعت اتفاقية في اليوم نفسه. نظّمت إجلاء الجيش بسلاحه وأمتعته، دون أن تقول شيئًا محددًا عن مجموعات اللجنة. وما كان ذلك الصمت سوى إمهال. أما البند الذي سيهدد المجموعات حقًا فسيُوقَّع في سبتمبر في الإسكندرية، تحت الرقم ستة عشر.

الكلمة التي كانت تهم اختُصرت في جملة واحدة. الجيش سيخرج من القاهرة بسلاحه وأمتعته. هذه الجملة، التي تلاها فوربيه بصوت عالٍ في الجلسة الاستثنائية يوم 28 يونيو 1801، أعقبها صمت شبّهه جوليوا لاحقًا، في يومياته، بصمت غرفة مريض حين يكف الطبيب عن الكلام. ثم تكلم الجميع في وقت واحد، جوفروا ومارسيل وجومار، أصوات تعلو أصواتًا، حتى رفع فورييه يده.

— الأمتعة... هل يشمل ذلك قواريري؟ قال جوفروا. ثلاث سنوات من المجموعات. كامل حيوانات النيل. مئتان وأربعون نوعًا لم يصفها أحد بعد.

— ودفاتري، قال جوليوا. مئتان وسبعة وثلاثون دفترًا. المسوح الكاملة الوحيدة التي أُنجزت على الإطلاق لمعابد صعيد مصر.

— وحجر رشيد؟ قال مارسيل. إنه في الإسكندرية، مع مينو. المفتاح الوحيد لفك رموز الهيروغليفية الذي عثرنا عليه منذ ثلاثة آلاف عام، وهو...

كان فوربيه قد أعاد قراءة المادة. سيحمل الجيش سلاحه وأمتعته. كان يبحث عن ثغرة في الصياغة. الأمتعة لا تشمل بداهةً لا التماثيل الضخمة ولا التوابيت. لكن البرديات والعملات وقواريري جوفروا والأعشاب المجففة والعظام؟ وهل كانت دفاتر الرسم أمتعة، أم مجموعات صُنعت لأجل الجمهورية؟ وهل يمكن عدّ دفتر عمل لفنان شيئًا آخر غير متاع شخصي بمعنى معاهدة استسلام؟ وضع فوربيه النص. ثم أعاد قراءته.

حجر رشيد، في الإسكندرية، لم يكن خاضعًا لهذه الاتفاقية. أما طبعات مارسيل الحبرية — ورق وحبر صنعهما بنفسه — فهل تندرج في الأمتعة، أم في المجموعات، أم في العمل الفكري؟

— الكلمة غامضة، قال فوربيه. «الأمتعة». لم يعرّفوا المصطلح. والمصطلح غير المعرَّف هو... متغيّر. وعلينا نحن أن نحدد نطاقه، ما يشمله وما لا يشمله.

وجدت الاستراتيجية القانونية التي رُسمت في مارس نصًا تمارَس عليه أخيرًا. كانت المقاومة العسكرية مستبعدة، فهم لا يملكون سلاحًا ولا يحسنون استعماله. وبقيت المقاومة النصية، وهي أن يجدوا في كلمات الاتفاقية الشقوق التي يمرّرون منها مجموعاتهم. فصارت الدفاتر أدوات عمل، والطبعات الحبرية وثائق، والأدوات العلمية معدات مهنية. وكان لكل فئة من الأشياء خط دفاعها.

في الأيام التي تلت قراءة الاتفاقية، تغيّر زوار الأزقة المحيطة بالمجمع. بدأ تجار من خان الخليلي يتسكعون قرب الباب، لا باعة الأقمشة والتوابل، بل الذين يبيعون الآثار منذ سنوات ويعرفون كيف يقرؤون في حركات الأوروبي ما يريد شراءه قبل أن يعرفه هو نفسه.

سليمان القباني — هو نفسه الذي جاء إلى تانيس قبل عام بكيسه القماشي — حضر إلى باب المجمع صباح 30 يونيو بصندوق خشبي. وكان في داخله اثنان وعشرون *أوشابتيًا* من الحجر الجيري الملوّن، وخمسة جعارين من الفاينس الأزرق، وثلاث تعاويذ ذهبية من العصر المتأخر. وضع الصندوق على طاولة الحارس وقال، بواسطة فتى كان يعمل مترجمًا : «السعر المعتاد. قبل أن يأخذ الإنجليز كل شيء.»

أما مارسيل، الذي كان يمرّ من هناك مصادفة، فقد تأمل محتوى الصندوق. كانت *الأوشابتي* أصيلة، من العصر الطيبي، من الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة،

من حجر جيري ملوّن بأصباغ لا تزال زاهية. والجعارين من فاينس جيد. والتعاويذ الذهبية حقيقية.

— من أين جاءت هذه الأشياء؟ سأله.

ترجم الفتى. وأجاب سليمان القباني دون تردد. من طيبة، من مقبرة موظف عثر عليها في الشتاء الماضي فلاحون كانوا يحفرون لتوسيع سردابهم. كان قد اشتراها. وهو يعيد بيعها الآن لأنه يعلم أن اللجنة تغادر مصر، وأن البريطانيين، وهم أقل خبرة، سيدفعون مبلغًا أقل.

اشترى مارسيل الصندوق كله بأربعين قرشًا، وحرّر إيصالًا مؤرخًا في 30 يونيو في سجله الشخصي. وهكذا دخلت *الأوشابتي* الاثنتان والعشرون في جرده هو، لا في مجموعات المجمع، وبذلك ستفلت، نظريًا، من كل استيلاء يستهدف هذه المجموعات. لقد قرأ السوق المحلي المعاهدة أسرع من الدبلوماسيين.

ردّ جوفروا على نحو آخر. فالشقوق القانونية كانت تضجره. كان يريد ميزان قوى.

كتب جوفروا إلى الجنرال بيليار رسالة من صفحة واحدة. رصينة، خالية من الغنائية. شرح فيها أن مجموعاته الطبيعية تمثل عملًا ميدانيًا لا نظير له، وأن مئتين وأربعين نوعًا من حيوانات النيل والدلتا لم يصفها العلم الأوروبي بعد، وأنه إن صادرها المفوضون البريطانيون فهو مستعد لإتلافها بدل أن يسلّمها.

— لا أهددهم، قال لفورييه الذي كان يقرأ المسودة من فوق كتفه. إنما أنبّههم. هذا ما سيحدث إذا طُبّقت «الأمتعة» بحرفيتها على مجموعاتي.

— وتظن أنهم سيصدقونك؟

— سأكون قد أحرقتها قبل أن يقرروا هل يصدقونني أم لا.

طوى فورييه المسودة. لم يكن جوفروا ممن يلجؤون إلى الخدعة. فقد أمضى إقامته كلها يخرج من السراديب زاحفًا على ركبتيه، ويداه في الطين، ويحمل بنفسه قواريره المملوءة بالكحول في الحر. وكان قد وزن هذا التهديد طويلًا قبل أن يكتبه. وكان ذلك الجواب الوحيد المتسق مع ما يراه في عمله، وهو عمل ملكه هو، لا ملك الجيش الذي موّله. فالأفضل ألا توجد هذه القوارير على أن ترقد في قبو في لندن، يفتحها شخص لا يعرف لماذا يهمّ *البوليبتروس بيشير*.

— أرسِل الرسالة، قال فورييه.

والنسخ، على كل حال، كانت تسافر منذ زمن طويل. منذ الليلة التي احترق فيها الأسطول الفرنسي وغرق في أبو قير، كان العلماء يعلمون أنهم مقطوعون عن باريس. لا سفن فرنسية في الموانئ. وكان البريد ينطلق عبر طرق برية غير مأمونة، من قافلة إلى قافلة ومن ميناء إلى ميناء، ويستغرق ستة أشهر ليصل.

ومنذ عام 1799، كان بعضهم قد بدأ يرسل الطرود على متن سفن محايدة — دانماركية وسويدية وأمريكية — ترسو في الإسكندرية لتجارة الحبوب. ولم يكن البريطانيون يفتشون هذه السفن إلا نادرًا، فهم يسيطرون على البحر لكنهم يراعون المحايدين.

أرسل فورييه على هذا النحو، على متن سفينة شراعية دانماركية في أكتوبر 1799، لفافة ورق تحتوي على ثلاثين ورقة من الملاحظات اللغوية عن اللغة القبطية. محاولته الأولى في وضع قواعدها. وحين عاد إلى باريس عام 1801، كانت الأوراق الثلاثون في انتظاره في المجمع، متعفنة قليلًا لكنها مقروءة.

أما مارسيل فقد تصرف على نحو آخر. فمنذ شتاء 1799-1800، سحب بنفسه، في المطبعة التي كان يديرها في القاهرة، نسخًا من حجر رشيد، هي طبعات حبرية حقيقية حصل عليها بتحبير الحجر قبل أن يُطبق عليه الورق. وحمل الجنرال دوغا هذه الأوراق إلى باريس في ربيع 1800، وأودعها المجمع لدى المستشرقين، ومنهم سيلفستر دو ساسي. وصار بوسع أوروبا أن تبدأ فعلًا في قراءة النقش الذي لم يكن الجيش واثقًا من أنه سيحتفظ به.

وحاول جوليوا إرسال رزمة رسوم على متن سفينة أمريكية في يناير 1800. فاعترضت فرقاطة بريطانية السفينة قبالة كريت وفتشتها. وصودرت أوراق جوليوا وفُحصت ثم رُدّت. وخلص البريطانيون إلى أنها مخططات فنية لا أهمية عسكرية لها. لقد حالفه الحظ، وكان يعلم ذلك.

ولما تعذّر الوثوق بالمحايدين، اعتمد جوليوا طريقة أخرى. فكل الوثائق الأساسية — أهم رسومه، ومخططات مارسيل، وقياسات جومار — نُسخت مرتين. أصل يبقى مع العالم. ونسخة تنطلق مع أول فرصة متاحة. فإن وصلت النسخة فحسنًا. وإن اعتُرضت نجا الأصل.

وقد جعل جومار من ذلك مذكرة إلى فورييه. فاللجنة في موقف الجنود الذين يدفنون ذخيرتهم في عدة أماكن قبل المعركة. وإذا أُخذ مستودع بقي آخر. وكان الاستيلاء يكلف عامًا من العمل، لا العمل كله.

نجح النسخ المزدوج في معظم الشحنات. لكن ليس في كلها. فدفتران لجوليوا، لم تكن نسختاهما قد اكتملتا، فأرسلهما بالأصل لضيق الوقت على متن سفينة سويدية في أواخر عام 1800، لم يصلا قط إلى باريس. ولم تنجُ سوى النسختين غير المكتملتين اللتين بقيتا في القاهرة. ولم يُعرف أبدًا ما آلت إليه الأصول. غرقت في البحر، أو صودرت، أو ضاعت في دوائر التجارة الشرقية.

كان هذان الدفتران المفقودان يضمّان نحو مئتي رسم لمنطقة الدلتا. مواقع سايس وبوباستيس وتانيس، التي زارها جوليوا في صيف وخريف 1800 والتي لن يراها

ثانية. أما نسخهما، الأقل تفصيلًا، فستظهر في *وصف مصر* مع إشارة موجزة «عن نسخ، والأصول مفقودة».

كان ذلك الأثر العلني الوحيد للخسارة. ولم يذكر جوليوا عنها كلمة واحدة في مذكراته.

كان هناك، وفورييه يراه، اختلال جوهري بين ما أخذه الفرنسيون من مصر وما سيأخذه البريطانيون من الفرنسيين. فالفرنسيون أخذوا أشياء — حجارة وبرونزيات وبرديات — ونسخًا من هذه الأشياء. والبريطانيون، حين يحين الاستسلام، سيأخذون الأشياء ويتركون النسخ. فالورق والحبر لا قيمة لهما لا في جرود معاهدة سلام ولا في قاعات متحف.

وقد لخّص فورييه هذا الاختلال في إحدى جلسات المجمع، في ثلاث جمل.

— سيأخذون الأصول. ونحن، النسخ. والنسخ... هي الغنيمة الحقيقية.

قال ذلك واقفًا، أمام الصناديق، دون تردد. أما ما لم يقله — وسيصوغه بعد سنوات في ملاحظاته عن *الوصف* — فهو أن هذا الاختلال لم يكن عرضيًا. إنه حيطة المهزوم، اتُّخذت قبل الهزيمة. وكانت على الأرجح الشكل الوحيد من الذكاء الاستراتيجي الذي مارسه العلماء فعلًا منذ البداية. لكنه، وهو يجلس بعد ذلك، تساءل هل هذا صحيح أم أنه مجرد ما يرويه المرء لنفسه ليحتمل ما لم يستطع منعه.

كانت لدى العلماء سبعة عشر يومًا.

بين توقيع الاتفاقية ورحيل الرتل، لا يوم واحد أكثر. ولم يقل أحد إنها قليلة جدًا.

ما فعله هؤلاء الرجال خلال هذه المدة لم يشبه ما أعدّوه. كانوا قد أعدّوا حججًا — قوائم ومذكرات وفروقًا قانونية بين الغرائب والعمل، وبين الملكية الشخصية ومجموعة المجمع. وعملوا دون كلام. وسرعان ما لم تعد هناك جلسات. كل واحد بقي في مخازنه، عند صناديقه. وكانت المحادثات التي جرت قصيرة وتقنية، عن الحبل الذي ينبغي استعماله، ووزن كل عجلة، وعدد طبقات القماش للقوارير.

لم يكن يُسمع في المجمع بعدُ سوى المطارق وحفيف القش.

مرّ فورييه ذات مساء بجوليوا وحدّثه عن السلسلة الطويلة التي تعبر التاريخ. الرومان الذين أفرغوا مصر من مسلّاتها، والصليبيون الذين نهبوا بيزنطة، والملوك الذين ملؤوا خزائن طرائفهم. لكل عصر مبرراته. أما الضحية فتبقى هي نفسها. أصغى إليه جوليوا حتى النهاية. «لا شك»، قال، وعاد إلى صندوقه. ومضى فورييه.

ثم، في صباح اليوم السابع عشر، حين أصبحت العربات جاهزة، لم يُصدر أحد أمرًا. خرج الرجال إلى الفناء، ونظّموا أنفسهم بأنفسهم، واتخذوا أماكنهم في الرتل دون أن يُطلب منهم ذلك، كالجنود، للمرة الأولى منذ طولون.

كانت رائحة خشب وصمغ وكحول تعبق في ممرات المجمع حين بدأ الرتل يتشكل في الفناء. مرّ جوليوا للمرة الأخيرة في القاعات. كانت الجدران تحتفظ بآثار المجموعات التي شغلت الطاولات ثلاث سنوات. دوائر من الغبار حيث استقرت القوارير، وخطوط من الطباشير حيث ثبّت جومار أوراق قياساته. وثقوب مسامير في العوارض حيث عُلّقت المومياوات لأجل الرسوم التشريحية.

خرج جوليوا إلى الفناء. كان الرتل ينتظر. والعربات محمّلة. ودواب الحمل تتنفس بثقل في حرارة الصباح.

تحقق جوليوا مرة أخيرة من أن حقيبتيه مشدودتان إلى جنب الحصان الذي خُصّص له.

إن مصر التي ستحتفظ بها فرنسا لا تتجاوز ما يستطيع رجل أن يحمله على سرج. أما ما أخذته فرنسا من مصر فكان يتدحرج خلفه، في الصناديق التي سيفتحها البريطانيون بعد شهرين. شدّ الحزام. لن يعطي أحد إشارة، ولم ينتظرها. خرج من الفناء أولًا.

6 - النزول إلى رشيد

في منتصف يوليو بدأ إخلاء القاهرة. ثلاثة عشر ألف رجل، منهم خمسة آلاف مرضى أو نقهى، ومئتا مدني، وعلماء اللجنة الذين بقوا في القاهرة، يخرجون جميعًا من المدينة في رتل بقيادة الجنرال داماس. كان بعضهم يلتفت إلى الوراء، وأكثرهم يثبّت عينيه على ظهر من يسير أمامه.

في اليوم الأول، في أواخر العصر، اعترضت دورية عثمانية طريق الرتل. عشرون فارسًا تركيًا بالزي الرسمي، يقودهم بك يتكلم الفرنسية. كانوا قادمين من معسكر الصدر الأعظم.

تقدم الجنرال داماس وحده ليتحدث. ترجّل البك عن جواده. دام الحديث عشر دقائق. أما العلماء، المتجمعون في وسط الرتل، فلم يكونوا يسمعون شيئاً لكنهم كانوا يرون الإشارات. كان البك يشير إلى الشمال، وداماس يُري وثيقة، لعلها اتفاقية الإخلاء التي وُقّعت مع الجنرالات الحلفاء.

اقترب فورييه حتى صار في مدى السمع وسمع البك.

— أنتم تغادرون القاهرة، وهذا حسن. لكن صناديقكم تبقى في مصر.

أجاب داماس بشيء لم يلتقطه فورييه. فألحّ البك.

ـــ هذه الأشياء ملك لمصر. لقد أخذتموها من معابدنا ومن مقابرنا. ولن تغادر.

ـــ يا سيدي، لقد وقّعنا اتفاقية مع الجنرالات الحلفاء، ومن بينهم صدركم الأعظم. فمعهم يجب أن تناقش هذه المسائل.

أشار البك إلى فرسانه، فارتفع عشرون رمحاً. لم يتحرك داماس.

ـــ إن حاولتم إيقاف هذا الرتل فإنكم تنتهكون اتفاقية وقّعها رؤساؤكم أنفسهم. ولا أظن أن القسطنطينية أمرتكم بذلك.

تردد البك. نظر إلى الصناديق على العربات، وإلى الجنود الفرنسيين المنتشرين في تشكيل القتال، ثم إلى الأفق الخالي وراءه. لا مدد عثمانياً في الأفق.

عاد فركب جواده.

ـــ سنرافقكم بعض الوقت. للمراقبة.

ـــ كما تشاؤون.

تبعت الدورية التركية الرتل على بُعد مئة متر مدة يومين. لم يكلّم الفرسان أحداً. وعند فجر اليوم الثالث كانوا قد اختفوا. ظن داماس أنهم عادوا ليرفعوا تقريرهم إلى الصدر الأعظم.

في مساء اليوم الثالث سأل جوليوا فورييه، دون كبير اقتناع.

ـــ أتظنهم سيعودون؟

ـــ العثمانيون؟ كلا. إنهم يملكون المدينة. وما يريدون معرفته هو ما إذا كنا قد... أفرغناها حقاً. والآن عرفوا.

ـــ وماذا بعد؟

ـــ إذن سينتظرون أن يأخذ البريطانيون صناديقنا. وبعد ذلك يطالبون البريطانيين بالقطع نفسها. فذلك أيسر عليهم من انتزاعها منا.

بحث جوليوا عن اعتراض فلم يجد، وراح يحرّك النار بطرف عصا.

كان العلماء يسيرون في وسط الرتل وأمتعتهم على العربات. وكان الارتياح لنجاتهم من الخطر، والحزن على مغادرة مصر، يفسحان المجال منذ الآن لدى أكثرهم للقلق على المجموعات.

لم يكن السير سريعاً. فثلاثة عشر ألف جندي بعرباتهم في الرمال تقدّمهم بطيء، تتخلله الاستراحات وإعادة توزيع الأحمال كلما عرجت دابة أو غاصت عجلة.

كان جوليوا يمشي على قدميه في أغلب الوقت إشفاقاً على حصانه. وكلما تعثر الحيوان بحجر أو في حفرة رمل، سمع الأنابيب تصطدم اصطداماً مكتوماً بالسرج فالتفت.

كان همّ جوفروا الأكبر الحرارة على مرطبانات الكحول. فالزجاج يتمدد بالحرارة، والكحول كذلك، لكن ليس بالسرعة نفسها. وإن أحدث التمدد شرخاً مجهرياً تبخر الكحول وفسدت العينات في أيام قليلة. وقد لفّ كل مرطبان بطبقتين من القماش المبلول، كان مساعدوه يجددونهما عند كل استراحة، مستمدين الماء من مخزونهم.

ـــ إنك تبذّر الماء، قال له ضابط لاحظ ما يفعل.

ـــ الماء يمكن تعويضه. أما هذه العينات فلا.

ابتعد الضابط دون أن يلحّ. ففي حرارة يوليو، ومع رجال يعانون العطش، لم تكن الحجة مقنعة. لكن جوفروا واصل.

في اليوم الرابع انزلق أحد صناديق جومار عن العربة عند اجتياز سدّ، وانفتح قليلاً في الرمل. توقف الرجال. قفز جومار عن ظهر حصانه، وأبعد الجنود الذين حاولوا مساعدته، وفحص اللفائف واحدة واحدة. كان في ثلاث منها آثار رمل خفيفة في ثنايا القماش المشمّع. ولم يتسرب شيء إلى الورق.

أعاد جومار دقّ المسامير في الصندوق، وأمر بتحميله على نحو آخر، مسطّحاً، بحبل إضافي.

ـــ أنت محظوظ، قال فورييه الذي شاهد المشهد كله.

ـــ ليس هذا حظاً. إنه حبل.

عند غسق اليوم الخامس أعاد جنديان من الحرس فارّاً إلى المعسكر. شاب في العشرين تقريباً، من ليون بحسب لهجته، هرب من القاهرة قبل الإخلاء بثلاثة أيام. وجداه مختبئاً في بستان نخيل، جائعاً، قدماه تنزفان.

أمر الجنرال داماس بإحضاره إلى خيمته. وسمع فورييه، وكان يمرّ قريباً، الاستجواب.

ـــ لماذا هربت؟

ـــ أردت البقاء في مصر يا سيدي الجنرال. لا العودة إلى فرنسا.

ـــ تبقى لتفعل ماذا؟

ـــ أن أعمل. وأتزوج ربما. هنا أستطيع أن أعيش. أما في فرنسا فأعود إلى المصنع.

نظر إليه داماس مدة طويلة دون أن ينبس.

ـــ أتعلم ما مصير الفارّين؟

ـــ نعم يا سيدي الجنرال.

ـــ تعلم ذلك، ومع هذا هربت؟

ـــ عمري ثلاث وعشرون سنة. قضيت هنا ثلاث سنوات. تعلمت العربية. أعرف القاهرة اليوم أكثر مما أعرف ليون. فماذا سأفعل في فرنسا؟

أمر داماس بإخراج الفارّ واستدعى مساعده. وسمع فوربيه الحكم. لا مجلس حرب ولا إعدام، على بعد أسبوع من رشيد. سيسير الفارّ مكبّلاً بالأغلال حتى رشيد، ثم يُعاد إلى الصفوف. ثبّت رقيب الأغلال في كاحليه. دوّت المطرقة مرتين. ولم يصرخ الرجل.

في صباح اليوم التالي كان يسير مع سريته، وكاحلاه مسلوخان من الأغلال. وأعطاه جوفروا، وكانت له معرفة بالطب، مرهماً.

ـــ ضعه الليلة. سيقيك من العدوى.

ـــ شكراً يا سيدي.

ـــ لماذا هربت حقاً؟

تردد الجندي.

ـــ لأني... لا أريد أن أرى ما سيحدث مع الإنجليز. سنعطيهم اكتشافاتنا. كنت أحمل صناديق السيد جومار في طيبة. رأيت ما قسناه وما رسمناه. والآن نعطي كل شيء. لذلك فضّلت أن أبقى هنا.

لم يجب جوفروا وأغلق وعاء المرهم. وعاد الجندي إلى سريته وهو يجرّ أغلاله.

في تلك الليلة روى جوفروا الحديث لمارسيل.

ـــ هذا الفتى أدرك شيئاً لم يدركه بعدُ كثير من الضباط. نحن لا نعود منتصرين. نحن نعود... كيف أقول. مسلوبين.

ـــ لقد أدرك، نعم. وقد نال الأغلال ثمناً لذلك.

ـــ نعم، قال جوفروا، ولم يزد شيئاً.

سار الفارّ مع الرتل حتى رشيد. وعلم فوربيه فيما بعد أنه انتهز اضطراب الوصول فاختفى في قرية على ضفة النهر. ولم يعد قط إلى فرنسا.

في اليوم السادس هبّت عاصفة رملية على الرتل وهو يستريح في قرية من قرى الدلتا. احتمى الجنود كما استطاعوا في البيوت المهجورة أو تحت العربات المقلوبة. ولم يكن الرمل يأتي من جهة واحدة، بل من كل صوب في آن واحد، يدور في

دوامات، باحثاً عن المنافذ والأفواه المفتوحة والعيون نصف المغمضة. كان الرجال يغطّون وجوههم بمعاطفهم ويتنفسون عبر القماش. وكانت الخيول تدير أعجازها للريح وتغمض عيونها وقد ضمّت مناخرها. أما الجمال فبركت وانتظرت، صابرة لا مبالية، كأنها تنتظر العواصف الرملية منذ الأزل، وهذا هو الواقع تقريباً.

غطّى العلماء صناديقهم بالأغطية والخيام المرتجلة، وأمضوا ساعات في تثبيت الوقايات في وجه الريح، وفي استعادة الأحزمة التي كانت الهبّات تنتزعها. وتسلل الرمل إلى كل شيء. إلى الثياب، وإلى العيون، وتحت سدادات الفلين. كان جوليوا يمسك حصانه بيد، ويثبّت باليد الأخرى غطاءً على حقيبتيه، ووجهه مدار نحو عنق الحيوان ليتنفس.

كان جوفروا ينتقل من صندوق إلى صندوق صائحاً بتعليمات تحملها الريح قبل أن تبلغ مقصدها. ولم يعد الخطر هذه المرة هو الحرارة. فأنبوب مبلول من أنابيب جوليوا يعني رسوماً مشوّشة. ولفافة مغطاة بالرمل من لفائف جومار تعني قياسات يمكن استعادتها بقليل من العناء. أما مرطبان مكسور في صندوق، والكحول يسيل على بقية المرطبانات، ثم يلامس فانوساً، فمعناه أن مجموعة حيوانات النيل كلها تذهب دخاناً. فأمر بإطفاء جميع الفوانيس في دائرة خمسين متراً. وعمل الرجال في ظلام دامس، متلمّسين، يتعرفون على الصناديق بأشكالها وبالطريقة التي ترنّ بها حين تُقرع بالقبضات.

أما مساعدوه، وهما طالبان شابان من مدرسة البوليتكنيك لم يحتملا حرارة الصحراء طوال الطريق، فعملا تلك الليلة دون شكوى. كل صندوق فُحص، وكل حزام شُدّ، وكل سدادة روجعت في الظلام. وحين هدأت العاصفة نحو الرابعة صباحاً، كان جوفروا ما يزال يقبض بيديه المتشنجتين على حزام الصندوق الأخير.

في الصباح اقتصرت الحصيلة على سدادة منزوعة عن أنبوب من أنابيب جوليوا، وثلاث ورقات سال حبرها قليلاً، ومرطبان سمك فيه شرخ مجهري عند القاعدة. نُقلت العينات إلى مرطبان احتياطي.

كان جوفروا قد حمله من القاهرة لهذا الغرض، ولا لشيء آخر.

في اليوم السابع نحو الظهر، صادف الرتل قافلة من اللاجئين الأقباط الفارّين نحو الساحل. نحو ثلاثين أسرة، حميرها محمّلة بالصرر، وأطفالها يمشون حفاة في الرمل، وشيوخها محمولون على محفّات ارتجالية.

اقترب من داماس زعيمهم، وهو كاهن يتكلم الفرنسية.

— سيدي الجنرال، نحن نفرّ من الانتقام. منذ أن بدأ الفرنسيون يغادرون القاهرة والميليشيات العثمانية تحرق كنائسنا. نحن ذاهبون إلى الساحل لنضع أنفسنا في حماية البريطانيين.

أمر داماس بتوزيع الماء. فرفضه الكاهن.

ـــ احتفظوا بمائكم لجنودكم. عندنا آبار على بعد ساعتين من هنا. لكن قل لي، هل سيحمي البريطانيون المسيحيين حين ترحلون؟

ـــ لا أعلم يا أبتِ. هذا ليس من شأني.

ـــ كان ذلك شأنكم حين وعدتمونا بالحرية الدينية سنة 1798. والآن أنتم راحلون ونحن باقون.

لم يجب داماس. وعاد الكاهن إلى قافلته.

كان مارسيل قد سمع الحديث. التفت إلى فوربيه.

ـــ وعدنا بأشياء كثيرة حين جئنا. تحرير المصريين، ونهاية المماليك... ونهاية اضطهاد الأقباط. وتحديث البلاد. ونحن نغادر وقد تركنا مصر تماماً كما وجدناها. بل أسوأ ربما.

ـــ لكننا نترك شيئاً مع ذلك. قياسات جومار، ورسوم جوليوا... ستُنشر أعمالنا.

ـــ نعم. نترك كتباً. أما هم فيبقون مع الانتقام.

كان اللاجئون الأقباط على وشك استئناف طريقهم نحو الشمال، والرتل الفرنسي نحو الشمال الغربي، كلٌّ عند مفترق مسلكه.

سأل جومار، الذي لم ينبس ببنت شفة طوال الحديث، الكاهنَ قبل أن يبتعد :

ـــ كنيستكم في القاهرة، كنيسة القديس سرجيوس، هل احترقت؟

ـــ لا يا سيدي. ليس بعدُ. لكنها ستحترق.

ـــ كيف تعلم؟

ـــ لأنها تحترق دائماً. كل عشرين سنة، كل ثلاثين سنة. هذا هو تاريخ مصر. أنتم كنتم عابرين فحسب.

في اليوم الثامن من المسير عبروا قرية فرّ أهلها. بيوت مغلقة، وشوارع خالية، ورائحة خبز ساخن تفوح من فرن مهجور منذ ساعات قليلة فحسب. لم يتوقف الرتل. وكان الجنود يسيرون وعيونهم إلى الأمام.

ابتعد بعض الجنود عن الرتل. وبعد دقيقتين خرجوا من فناء. كان أحدهم يحمل جرّة من الفخار ارتفاعها متر. وفي داخلها قعقعة شيء معدني. فاستدعاهم ضابط، وتُركت الجرّة على حافة المسلك.

توقف جوليوا. ورفع الجرّة. كان فيها سبع قطع نقدية برونزية بطلمية، وثلاثة جعارين من الفخار المزجّج، وتميمة وبواوت من الحجر الجيري الملوّن. كان ذلك الكنز المنزلي لأسرة فرّت وتركت ما لم تستطع حمله.

ـــ ماذا نفعل بها؟ سأل جومار.

فحص جوليوا القطع النقدية واحدة واحدة، وقلّبها، وأرّخها في ذهنه. بطليموس الرابع أو الخامس، بحسب الرأس المنقوش. وكانت الجعارين جيدة الصنعة. وعلى تميمة وبواوت كانت العينان مخطوطتين بالمغرة الحمراء.

أعاد جوليوا القطع إلى الجرّة. لم يكن ممكناً أن تبقى على المسلك، حيث يلتقطها أول عابر. فوضعها في الظل، عند قاعدة جدار أقرب بيت، في حفرة صغيرة حفرها بكعب حذائه كي لا تتدحرج الجرّة، حيث يجدها صاحبها حين يعود، إن عاد.

ـــ لنواصل.

عادوا إلى الرتل. وبقيت الجرّة عند الجدار.

في اليوم العاشر رأوا البحر لأول مرة منذ أشهر. صاح بعض الجنود. ونظر العلماء في صمت. كان الضوء على الماء غير الضوء على الرمل. أبرد وأكثر حركة، وزرقة متوسطية كان جوليوا قد حاول رسمها عند مغادرة طولون قبل ثلاث سنوات دون أن يجد اللون الصحيح.

ـــ البحر، قال فوريبه.

لم يزد على ذلك شيئاً. كان يريد أن يقول «والآن البريطانيون».

في صباح اليوم الحادي عشر، وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً من رشيد، لحق بالرتل ضابطان بريطانيان على ظهور الخيل. جاءا من معسكر الجنرال هتشنسون، ومعهما أمر مهمة موقّع يكلّفهما بتفتيش الأمتعة الفرنسية قبل دخول المدينة.

استقبلهما داماس بأدب جليدي.

ـــ أيها السيدان، سندخل رشيد وصناديقنا مختومة. والتفتيش سيجري عند الإبحار، كما تنص الاتفاقية، لا قبله.

أصرّ الملازم البريطاني، وهو شاب في نحو الثلاثين اسمه ثورنتون.

ـــ لدينا أمر بالتحقق من أنكم لا تنقلون ذخائر ولا عتاداً حربياً. إنه إجراء شكلي.

ـــ إجراء شكلي سينتظر الإبحار. وإلى ذلك الحين لا تُفتح عرباتي.

نظر ثورنتون إلى الصناديق المصفوفة على العربات. كان يستطيع أن يرى الأرقام المطلية على جوانبها، من I إلى LXIII. ثلاثة وستون صندوقاً تحت الأغطية.

ـــ أيها الجنرال، إن رفضتَ التفتيش فبوسعنا أن نؤخر إبحاركم عدة أيام.

ـــ أخّروا. سنخيّم هنا في الانتظار.

تدخل الضابط البريطاني الآخر، وكان أكبر سناً.

ـــ أيها الملازم، دعك من هذا. هؤلاء علماء لا مهرّبون. وصناديقهم لا تحوي إلا حجارة ورسوماً. والجنرال هتشنسون يعلم ذلك.

تردد ثورنتون، ثم أدّى التحية وانصرف مع زميله.

التفت فوربيه إلى داماس.

ـــ أتظنهم سيعطّلوننا فعلاً؟

ـــ كلا. أرادوا أن يروا ردود أفعالنا. وأن يعرفوا هل عندنا ما نخفيه. والآن صاروا يعلمون أننا سندافع عن صناديقنا.

ـــ وهل هذا خير؟

ـــ ذلك يتوقف على المفوض. مفاوضاً، نعم. ناهباً...

استأنف الرتل مسيره. وفي الحادية عشرة ظهرت نخيل رشيد في الأفق، ثم مصبّ النهر. وكانت الفرقاطات البريطانية راسية في عرض البحر. ودخان مطابخها يرتفع مستقيماً في سماء بلا ريح.

خيّموا تلك الليلة على بعد ساعتي مسير من رشيد. كانت أضواء المدينة تُرى في الأفق. لا أشكالاً بعدُ، بل بريقاً واطئاً منتشراً. وفي الأسابيع الأولى من الحملة، كان مثل هذا الضوء في الأفق يعني مدينة تُؤخذ، وخريطة تُرسم، وعملاً يُنجز. أما في هذه الليلة فكان يعني البريطانيين.

أعاد فوربيه، على ضوء فانوس مخفوض، قراءة الصفحات الأولى من مذكرة جومار. كانت الحجة متينة. وما كان يطرد النوم عن عينيه هو معرفة ما إذا كان المفوض البريطاني يملك هامشاً للتأويل في تعليماته. فالدبلوماسي الذي تقيّده تعليمات صارمة لا يصغي إلى الحجج، بل يسجّلها ويرفعها إلى لندن. أما الدبلوماسي الذي يملك سعة في التصرف فقد يقتنع. ولم يكن فوربيه ليعرف ذلك قبل أن يقف أمامه. طوى الأوراق وخفض الفتيل.

كان جوفروا قد تفقّد صناديقه مرتين منذ نزولهم في المعسكر. كانت السدادات ثابتة. ولم يبق ما يُفعل سوى النوم. وكتب جومار في دفتره قائمة الأشياء التي ينوي الدفاع عن تصنيفها أدواتٍ علمية، لا طرائف يجوز الاستيلاء عليها. اثنان وثلاثون بنداً. ثم نام بثيابه كاملة.

بقي جوليوا جالساً في العراء بعد أن انطفأت نار المعسكر. كانت السماء صافية. كان يضمّ حقيبتيه إليه، وفيهما أثمن الدفاتر. وغداً البريطانيون، ومفوضهم، والمذكرة، والنقاشات حول ما يعود إلى مَن وفق أيّ مادة.

بلغ الرتل رشيد في نهاية يوليو 1801. اثنا عشر يوماً من السير منذ القاهرة. وأبحرت قوات بيليار من أبو قير في الأسابيع التالية على متن سفن بريطانية. أما

العلماء فقد حصلوا على أن يُنقلوا بحراً إلى الإسكندرية مع صناديقهم، تحت راية الهدنة، ليتبعوا فيها مصير مجموعات المجمع. وكان مينو لا يزال ممسكاً بالمدينة، يضرب عليها البريطانيون حصاراً بحرياً منذ الربيع، ويطوّقونها منذ 17 أغسطس. أُسكن العلماء في مخازن الميناء، وصناديقهم مكدسة حولهم. وستنتظر النقاشات حول المجموعات استسلام مينو، حين يصير البريطانيون في موقع يتيح لهم المطالبة بها. وطوال أكثر من شهر، بينما كان مينو يفاوض والبريطانيون يتحلّون بالصبر، حرس العلماء صناديقهم.

الفصل الرابع : الانهيار والعودة

1 - الآثار الكبرى

في 3 سبتمبر 1801، غداة توقيع اتفاقية استسلام الإسكندرية، توجّه المفوض البريطاني ويليام ريتشارد هاميلتون إلى مخزن الميناء الذي يقيم فيه العلماء الفرنسيون، يرافقه إدوارد دانيال كلارك، عالم الآثار الذي عيّنه الجنرال هتشنسون لإجراء الفحص المادي للمجموعات.

كان هاميلتون سكرتير اللورد إلجين، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، تلقّى تكوينه في الآثار الكلاسيكية في كامبريدج، وكان ينسّق المفاوضات الدبلوماسية. أما كلارك فقد كُلّف بتحديد المجموعات الفرنسية وجردها قطعةً قطعة. وصلا مع سكرتير وجنديين يحملان سجلات بيضاء.

كان جوليوا وفورييه يمثّلان اللجنة رسمياً في هذه المفاوضات. وكانت مهمة جومار الدفاع عن المسوح الخرائطية وأدوات القياس. وقد توقّع حجج الخصم واحدة واحدة.

عشية الاجتماع الأول مع هاميلتون، أعاد صياغة المذكرة التي كتبها في أبريل بعبارات قانونية. وعمل الليل كله. في البوليتكنيك تعلّم أن يتوقّع الاعتراض قبل أن يُطرح. وقد تحقق من ذلك في مصر، قياساً متنازعاً عليه بعد قياس، ولم يكن يرى لماذا يخضع القانون لمنطق آخر. وميّزت النسخة الجديدة، فيما يخصّ جومار، ثلاث فئات من الأشياء.

أولاً، الآثار بالمعنى الدقيق، وهي أشياء سابقة للحملة كان وجودها في مصر مستقلاً عن أي عمل فرنسي. فئة يجوز الاستيلاء عليها دون نقاش.

ثانياً، الإنتاجات الفكرية، من قياسات وحسابات وملاحظات ورسوم أنجزها أعضاء اللجنة. هذه الأعمال لم تكن موجودة قبل إنتاجها. ولا يمكن أن تُعامل معاملة الأشياء المعثور عليها.

ثالثاً، منطقة رمادية، هي الأدوات العلمية التي جُلبت من فرنسا. ليست آثاراً ولا إنتاجات فكرية، بل أدوات عمل يحرم الاستيلاء عليها اللجنة من قدرتها على العمل في المستقبل.

— هذا واضح جداً، قال فورييه دون أن يرفع عينيه عن الورقة الأخيرة. يبقى أن نعرف هل هاميلتون حساس للوضوح. فهو ليس مقداراً يُقاس بسهولة.

— وإن لم يتأثر، أضاف جومار، فذلك لأن تعليماته تفرض عليه تجاهل التمييزات القانونية. وفي هذه الحال لن تجدي أي حجة.

— أنتَ متشائم.

ـــ دقيق.

ابتسم فورييه.

دخل كلارك فناء المخزن. توقف في وسط الفناء، ودار ببطء حول نفسه، وعدّ الصناديق بنظرة دائرية. ثلاثة وستون. يضاف إليها ما لم يُغلَّف. تماثيل وتوابيت وأعمدة مكدسة إلى الجدار الشمالي. أخرج سكرتيره، وهو شاب من كامبريدج اسمه جون مارتن كريبس، دفتراً وشرع يدوّن. كان يدوّن كل شيء. عدد الصناديق، وأبعادها التقريبية، وحالة الحبال التي تشدّها.

كان جوليوا يراقب كلارك وهو يراقب المجموعات. كانت المرة الأولى التي يرى فيها بريطاني مجمل ما جمعته اللجنة في ثلاث سنوات. لم يُظهر كلارك شيئاً. لا دهشة ولا رضا. كان يعدّ.

ـــ أيها السادة، قال كلارك وهو يلتفت إلى جوليوا وفورييه، عملاً بالمادة السادسة عشرة من اتفاقية الاستسلام الموقّعة في 2 سبتمبر، أنا مكلّف بتسلّم المخطوطات العربية والتماثيل وسائر المجموعات التي جُمعت لحساب الجمهورية الفرنسية، وقد صارت ملكاً عاماً تحت تصرف جنرالات الجيش الحليف.

دام الصمت الذي تلا ذلك ثلاث ثوانٍ. وضع جوليوا السجل الذي كان يحمله ببطء.

ـــ المجموعات بأسرها، سيد كلارك؟ أتقصد بذلك كل قطعة، وكل رسم، وكل عيّنة جمعناها طوال ثلاث سنوات؟

ـــ هذا ما تقوله المادة السادسة عشرة.

ـــ المادة السادسة عشرة، أجاب جوليوا بصوت قاطع، تتحدث عن المجموعات التي جُمعت لحساب الجمهورية. لا عن إنتاجاتنا الفكرية. ولا عن أدواتنا العلمية. ولا عن المجموعات التي اقتناها بعضنا بماله الخاص.

فتح كلارك سجله على الصفحة الأولى. وتدخّل هاميلتون، الذي كان يقف متنحياً قليلاً، قبل أن يجيب كلارك.

ـــ أيها السادة، قال هاميلتون، لا أحد ينكر أنكم عملتم. ولا أحد ينكر قيمة أعمالكم. لكن شروط الاستسلام... واضحة. سيفحص السيد كلارك مجموعاتكم قطعةً قطعة. وستتاح لكم فرصة عرض حججكم عن كل فئة من الأشياء. سنصغي. وسنفصل بإنصاف.

تكلّم فورييه. كان صوته أهدأ من صوت جوليوا، لكنه لا يقل عنه حزماً.

ـــ في هذه الحال، سيد هاميلتون، لنضع منهجاً للعمل. سنقترح تصنيف الأشياء في عدة فئات متمايزة. وتفحصون حججنا فئةً فئة. لن نرفض أي تفتيش. لكننا نشترط أن يكون كل استيلاء مبرَّراً.

أومأ هاميلتون موافقاً.

ـــ هذا معقول. سيد كلارك؟

أغلق كلارك دفتره.

ـــ أقبل هذا الإجراء. لكنني أنبّهكم إلى أن تعليماتي صارمة. ليس لدي أي هامش لتأويل المادة السادسة عشرة بما يتجاوز ما تنص عليه صراحةً.

لم يتحرك جوليوا.

ـــ ونحن، سيد كلارك، لا نعتزم إطلاقاً أن ندعكم تصادرون ثلاث سنوات من حياتنا دون أن نناقش كل قطعة.

طوال التسعة عشر يوماً التي استغرقها الصدام مع كلارك وهاميلتون، كان جومار هو من يُستدعى كلما احتاج شيء متنازع عليه إلى خبرة علمية ـــ خريطة أو مسح أو أداة. كان يتكلم قليلاً، ويبسط وثائقه على الطاولة، ويجيب عن الأسئلة باقتصاد يربك كلارك الذي اعتاد حجج الفرنسيين الأكثر خطابية. وكان هذا الدور يناسبه. فالمفاوضة تشبه القياس أكثر مما كان يظن ـــ أن يلتزم الوقائع، وألا يتنازل عمّا لا يمكن التحقق منه، وأن يعرف متى يصمت.

ـــ زميلكم خصم شديد البأس، قال كلارك لجوليوا ذات مساء. لا يتنازل عن شيء ولا يبالغ في تقدير شيء. وهذا نادر في المفاوضات.

ـــ إنه رياضي.

ـــ هذا واضح.

في صباح 4 سبتمبر، عاد كلارك يرافقه عدة مساعدين وبدأ فحص مجموعات المجمع. وكان هاميلتون حاضراً بصفة مراقب.

كانت الفئة الأولى التي فُحصت هي فئة الآثار الكبرى الضخمة. التوابيت من الغرانيت والبازلت، والتماثيل الهائلة، والنقوش البارزة المنتزعة من المعابد. وبشأن هذه القطع لم يكن في وسع العلماء الفرنسيين تقديم أي حجة معقولة على ملكية شخصية. فهذه الآثار كانت قائمة قبل اللجنة بزمن طويل، ولم تفعل اللجنة سوى أن اكتشفتها.

ـــ نحن لا ننازع في حقكم القانوني على الآثار الكبرى، قال فورييه، وعيناه على نقطة فوق كتف هاميلتون. نريد فقط أن يحفظ التاريخ أن اللجنة الفرنسية هي التي اكتشفتها. لا الجيش البريطاني.

أومأ هاميلتون موافقاً.

ـــ أعطيكم كلمتي بأن المتحف البريطاني سيقرّ بأن هذه الآثار اكتشفتها لجنتكم.

أعدّ كلارك جرد الآثار الكبرى، وهاميلتون يصادق على كل بند في السجل. وكان جوليوا إلى جانبهما يرى كل قطعة تغادر الفناء إلى السجل.

كان حجر رشيد غائباً عن الجرد.

عُثر عليه في يوليو 1799 على يد جنود فرنسيين كانوا يعزّزون دفاعات حصن جوليان قرب رشيد، مدمجاً في جدار الحصن المملوكي القديم، وقد أُعيد استعماله مادةَ بناء. مرسوم ملكي يعود إلى سنة 196 قبل ميلادنا، منقوش بثلاث كتابات، الهيروغليفية في الأعلى، والديموطيقية في الوسط، واليونانية في الأسفل. أما اليونانية فكان بالإمكان قراءتها. وأما الباقي فكان ينتظر فك رموزه. لكنّ الجنرال مينو كان يطالب به ملكاً شخصياً له، ولم يكن أحد في المخزن يعرف أين هو.

قيّد كلارك الحجر في السجل رغم ذلك، بصفة مؤقتة، محتفظاً لنفسه بإكمال القيد متى عُثر على القطعة. وسيفصل الجنرال هتشنسون في الأمر، وكان معروفاً أن هتشنسون لن يفصل لصالح مينو.

كان مارسيل يرقب كلارك وهو يكتب في سجله. كانت الريشة تخدش الورق بصوت جاف، نهائي. «حجر رشيد. غرانيت أسود. نقش بثلاث لغات. يطالب به الجنرال مينو ملكاً شخصياً. يُصادَر بموجب المادة 16، اتفاقية الإسكندرية، سبتمبر 1801.»

لم يقل مارسيل شيئاً. كان قد أمضى في القاهرة، في الأشهر التي تلت اكتشاف الحجر في يوليو 1799، ليلتين كاملتين مستلقياً على ظهره، رافعاً ذراعيه فوق رأسه، يربّت على ورق مبلّل ليأخذ الطبعات. بقي الألم في كتفيه أسبوعاً. وظلّت أصابعه زمناً طويلاً تحسّ حبر الطباعة الممزوج براتنج التربنتين. تلك الرائحة اللاذعة اللزجة التي لا تزول، ولو غسل يديه ثلاث مرات.

بقيت له خمس وعشرون طبعة كاملة في حافظة مسطّحة، محمية جيداً بين أوراق ماصّة. أما الأخرى فقد أُرسلت إلى أركان أوروبا الأربعة. كان كل رمز، وكل شق، وكل اعوجاج في السطح مستنسخاً بأمانة لم يكن أمهر رسام ليبلغها. كان في وسع كلارك أن يأخذ الحجر. أما مارسيل فكان عازماً على الاحتفاظ بالنص.

كان جومار إلى جانبه لا يتحرك. لم يكن ينظر إلى الحجر. كان ينظر إلى كلارك.

أما فوريه فكان يدوّن ملاحظات بخط صغير متراصّ على الهامش. وكان يحسب منذ الآن ما يمكن التفاوض عليه مقابل هذا التنازل الأول.

كان جوليوا يراقب كلارك دون أن يُظهر شيئاً. كان قد قبل أن الحجر سيرحل. بقي إنقاذ الباقي. الرسوم. الدفاتر. طبعات مارسيل. مجموعات جوفروا.

رفع كلارك عينيه عن سجله.

— يبقى الحجر مقيَّداً. وسيفصل الجنرال هتشنسون في أمره.

أشاح مارسيل بوجهه وثبّت الحافظة المسطّحة تحت ذراعه. لم يكن يريد أن يتخيّل الجنود البريطانيين يقفون حرساً أمام حجر رشيد. كان ذلك تافهاً. ومع ذلك كان يتخيّلهم.

هذا الحجر كان قد لمسه. كان يعرف كل نتوء فيه، وكل حبّة من سطحه. كان يعرف أين يكون أملس قليلاً، حيث فركته أيدٍ قديمة، ربما أيدي كهنة كانوا يقرؤونه منذ ألفي عام. وكان يعرف أين يكون خشناً، حيث كُسر ثم أُعيد استعماله في جدار حصن مملوكي.

أغمض جوليوا عينيه لحظة. كان رجال بوشار قد عثروا عليه، وطبع مارسيل نقوشه، وسُجّل في سجلات اللجنة. وبعد أيام قليلة سيرفعه مدفعيو جيش صاحب الجلالة على عربة مدفع.

لم يكن ذلك مختلفاً عمّا فعلته فرنسا في إيطاليا. ولم يكن مختلفاً عمّا فعله الرومان من قبلهم. كانت السلسلة طويلة.

ثم أضاف كلارك على هامش سجله عبارة «اكتشفته البعثة الفرنسية سنة 1799.»

كان جوليوا يراقب. اكتُشف. لم يُؤخذ. ولم يُنتزع من جدار. اكتُشف.

ثم تابوت نختنبو الثاني، آخر فراعنة مصر من أصل مصري، الذي حكم من 360 إلى 342 قبل ميلادنا. كانت البريشا الخضراء باردة. وضع جوليوا يده في الداخل في زيارته الأولى، حيث كان الجسد سيرقد. كان القاع مصقولاً، مستوياً، ناعماً كالمعدن. وكان حكمه قد انقطع بالغزو الفارسي الثاني. لم يكن معروفاً أين مات، ولا إن كان جثمانه قد أُعيد. ومن المرجح أن هذا التابوت أُعدّ قبل فراره ولم يُستعمل قط. عُثر عليه في الإسكندرية في فناء مسجد العطارين، حيث كان يُستعمل حوضاً للوضوء. وكانت الزخرفة، على الجدران، تستعيد مقاطع من الأمدوات، رحلة الشمس الليلية عبر ساعات العالم السفلي الاثنتي عشرة. وكان جوليوا قد نسخ هذه المشاهد نفسها في وادي الملوك. وقد عرفها من النظرة الأولى. الآلهة نفسها، والرحلة نفسها، منقوشة لملك لم يتسنّ له الوقت ليموت في هذا التابوت.

فحصه كلارك. وسأل عن وزنه.

— عدة أطنان. وأكثر من ثلاثة أمتار طولاً، قال جومار.

— وما أهميته التاريخية؟

— قبر آخر فراعنة مصر الأصليين، قال جوليوا. لم يُستعمل قط.

دوّن كلارك في سجله دون تعليق.

وكان هناك أيضاً تمثال كاهن أعظم لآمون من الغرانيت الرمادي، بالحجم الطبيعي، يداه مضمومتان أمامه في وقفة خادم الإله الأبدية، تلك التي رآها جوليوا مستنسخة عشرات المرات في معابد صعيد مصر. وقبضة هائلة من الغرانيت، جزء من تمثال ملكي لم يُعثر على بقيته قط. وكان جومار قد قدّر أن التمثال الكامل لا بد أن يبلغ ارتفاعه اثني عشر إلى خمسة عشر متراً. وكانت القبضة وحدها تبلغ علوَّ كتف رجل واقف.

ثم لوحات، نقوش تذكارية من الحجر الجيري والبازلت تحمل خراطيش ملكية ونصوصاً هيروغليفية. واكتفى كلارك في ذلك اليوم بإحصائها. أما فحص النقوش فسيأتي لاحقاً. وكان وزنها الإجمالي كبيراً.

ـــ هذه الأشياء، أعلن هاميلتون، ستُحفظ في المتحف البريطاني وتُتاح لعلماء العالم أجمع. وسيُعترف بإسهامكم العلمي. وستحمل البطاقات عبارة «اكتشفته البعثة الفرنسية، وسُلّم إلى القوات البريطانية عند استسلام الإسكندرية.»

حسم صباح 4 سبتمبر مسألة الآثار الكبرى. فتابوت نختنبو الثاني، وتمثال الكاهن الأعظم لآمون، واللوحات، كل ذلك قُيّد في السجل، وحجر رشيد لن يتأخر في اللحاق بها. بقي كل ما سواها. كان جوليوا منهكاً من الأسابيع التي مضت. لكنه لم يكن ينوي التخلي.

ـــ أنا مستعد لمناقشة كل شيء. لكنني أنبّهكم إلى أنني لن أقبل أي استيلاء دون نقاش مسبق لكل فئة من الأشياء. لدينا الوقت. فالاستسلام يمنحنا أسابيع قبل الإخلاء.

تدخّل هاميلتون، الذي تابع الحوار صامتاً. كان يفضّل مفاوضة على مواجهة فظّة. سيفحص كلارك، وسيفصل في النقاط المتنازع عليها. وعرض الطرفان موقفيهما الأوليين، وحدّدا نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف، واتفقا على جدول للعمل نسخه كريبس في صيغة نظيفة.

عُرف في المساء نفسه أين يوجد حجر رشيد. فقد قاد ضابط، وهو عضو في المجمع، كلارك وكريبس وهاميلتون في الأزقة خلف مقر مينو. كان نائماً هناك، تحت سجاجيد، بين أمتعة الجنرال. وأُبلغ هتشنسون على الفور. وقد تقرر كل شيء في يوم واحد.

في مساء 4 سبتمبر، اجتمع العلماء الفرنسيون في قاعة ملاصقة للمخزن. غرفة منخفضة السقف، فيها طاولة وبعض الكراسي المتنافرة. وفي الخارج كانت تُسمع أصوات الجنود البريطانيين وهم يقفون حرساً. الطقطقة المنتظمة للسلاح على حمائل السيوف.

طرح فورييه السؤال الذي لم يشأ أحد أن يصوغه.

— الآثار الكبرى ضاعت. حجر رشيد، والتوابيت، والتماثيل... ينبغي الآن أن ندافع عمّا يمكن الدفاع عنه بعد.

نظر إليه جوليوا دون أن يجيب. وتدخّل مارسيل فوراً.

— طبعاتي. هذا غير قابل للتفاوض. لدي خمس وعشرون طبعة كاملة لحجر رشيد.

— والمجموعات الطبيعية كذلك غير قابلة للتفاوض، أضاف جوفروا. خاطرت بحياتي لأجل كل عيّنة. كل أفعى أُمسك بها في الصحراء. وكل حشرة جُمعت تحت أربعين درجة. سأستلقي أمام الصناديق إن اقتضى الأمر.

تنهّد فورييه. كان قد توقّع أن يترافع كلٌّ عن صناديقه.

— أيها السادة، قال وهو يزن كلماته، لنكن... واقعيين. لقد ذهبت القطع الكبيرة. لهاميلتون الحقّ والقوة، ولنا الصبر وشيء من الحيلة. أقترح أن نركّز جهودنا على ما لا يزال قابلًا للدفاع عنه — ما لا يعوَّض فكريًّا. الرسوم. الملاحظات. المخطوطات.

نهض جوليوا.

— لا.

وقف جوليوا منتصبًا، ويداه مبسوطتان على الطاولة.

— لا، كرّر قوله. لن نضحّي بشيء. سندافع عن كل شيء. كل قطعة، وكل رسم، وكل عيّنة. سيتعيّن على كلارك أن يبرّر كل مصادرة، وأن يحتجّ لكل واحدة منها. سنغرقه في التفاصيل والتصنيفات والاستثناءات القانونية. يريد كل شيء؟ قطعة قطعة.

أومأ جومار موافقًا.

— جوليوا على حق. إن تنازلنا منذ البداية أعطينا إشارة بأننا نقبل مبدأ المصادرة، وعندئذ سيأتي كلارك ليطلب الباقي. علينا أن نصمد في كل شيء، وألّا نتنازل إلا حين لا تعود المقاومة ممكنة.

حدّق جوفروا فيه.

— وماذا يعني هذا عمليًّا؟ أن نترك كلارك يأخذ ما تبقّى من دون أن نقاتل؟

— بل على العكس، قال جوليوا. نقاتل من أجل كل شيء. ونخسر ما لا بدّ أن نخسره. لكننا نكون قد جعلناهم يدفعون ثمن كل تنازل. سيتذكّر هاميلتون أننا لم نعطِ شيئًا مجانًا.

كان فورييه ينظر إلى جوليوا، وقلمه متوقف فوق ورقته. سيخسرون. لكن كل متر من الأرض سيكون قد دُوفع عنه.

ـــ حسنًا، قال فورييه. ندافع عن كل شيء. لكن نبقى منسّقين. لا أحد يفاوض وحده في زاويته. كل حجّة تمرّ على هذه الطاولة قبل أن تُقدَّم إلى هاميلتون.

أومأ الآخرون موافقين. وتكلّم مارسيل بصوت أخفض.

ـــ وإن خسرنا كل شيء؟ وإن صادر هاميلتون حتى الطبعات؟

جلس جوليوا من جديد. كان قد استعاد هدوءه.

ـــ لن نخسر كل شيء. هاميلتون ليس ناهبًا، بل دبلوماسي. لديه تعليمات... وشيء من الحسّ بالإنصاف. سيتراجع في ما يمكن الدفاع عنه قانونيًّا. وعلينا نحن أن نجعل حججنا لا تقبل الجدل.

لم يضف أحد شيئًا. وفي الخارج مرّ تبديل الحرس تحت النافذة.

2 - المجموعات التي أُنقذت

أُقرّ دون عناء بأن الأدوات العلمية الشخصية للعلماء، من تلسكوبات فلكية وأجهزة ثيودوليت جيوديسية ومقاييس ضغط ومقاييس حرارة وموازين دقيقة ومجاهر، ملكيةٌ شخصية لا يجوز الاستيلاء عليها. فقد أدرك هاميلتون أن هذه الأدوات لا صلة لها بمصر القديمة، وأنها العُدّة المهنية للعلماء. أما سائر الأشياء فكان البريطانيون سيناقشونها كلها بأدقّ التفاصيل.

في التاسع من سبتمبر، فحص كلارك المجموعات الطبيعية التي جمعها جوفروا سانت هيلير.

ـــ سيد جوفروا سانت هيلير، قال كلارك، لقد تلقيت أمرًا بفحص عيّناتكم. أرجو أن تيسّروا لي الوصول إلى صناديقكم.

وكان ردّ فعل جوفروا مختلفًا عن ردّ فعل جوليوا وفورييه.

ـــ لن تمسّوا هذه المجموعات، صاح وهو يقف بين الجنود وصناديقه. إن تقدّمتم خطوة واحدة أحرقتُ كل شيء.

ـــ لقد جمعتموها بصفتكم عضوًا رسميًّا في اللجنة، قال كلارك. فهي إذن ملك عام فرنسي، ومن ثَمّ غنيمة حرب بريطانية. هذا هو التسلسل المنطقي، ولم أخترعه أنا.

لم يشأ جوفروا سانت هيلير أن يسمعه.

ـــ تريدون أن تسرقوا عملي لتُثروا متاحفكم، من دون أن تبذلوا أنتم أي جهد في الاكتشاف، ولا جهدًا واحدًا. سمّوا ذلك ما شئتم. أما أنا فأسمّيه سرقة.

ـــ لا أصدّقكم، قال كلارك. لن تدمّروا عمل ثلاث سنوات.

عبر جوفروا الغرفة، وفتح أحد صناديق العيّنات المجففة، وأخرج قدّاحة من الصوّان والزّناد، وقدح مرتين وأشعلها. كان اللهب على بُعد عشرة سنتيمترات من القشّ الجاف.

ـــ أنا لا أخدع. خطوة أخرى وأضرم النار. سيذكر التاريخ أنكم أنتم أيضًا أحرقتم مكتبة في الإسكندرية.

نظر كلارك إلى اللهب. كان عالم الطبيعة في التاسعة والعشرين من عمره، ويده ثابتة. كان الأفضل أن يترك جوفروا يمضي بقوارير عيّناته على أن يعود إلى لندن برماد. فتراجع خطوة إلى الوراء.

ـــ شغفكم يفرض عليّ احترامي، قال كلارك وهو يتراجع. وإن كانت أساليبكم مسرحية. سيربح العلم الكوني إن بقيت هذه المجموعات سالمة في فرنسا. وسأترافع عن قضيتها لدى الجنرال هتشنسون.

ـــ أحسنتم الدفاع، قال جوليوا لجوفروا سانت هيلير في المساء نفسه. بالنسبة إلى الآثار الكبرى، كان ينبغي أن نفعل مثلكم. ربما.

ـــ كانت الآثار الكبرى تُرى من بعيد جدًّا. أما أسماكي في القوارير فلم تُثِر يومًا أحلام أي ضابط بريطاني. وأحيانًا يكون سوء الفهم ميزة.

كان لهذه القضية أثر مُحفِّز على سائر المفاوضات. فقد رأى العلماء أن مقاومة حازمة يمكن أن تؤتي ثمارها، شريطة أن يحسن المرء اختيار معاركه.

وقد شجّعه هذا المثال، فألحّ جوليوا أكثر في مسألة نشر رسوم اللجنة. وصلت إلى الإسكندرية في العاشر من سبتمبر رسالة من بونابرت، بعد ثمانية أيام من توقيع الاستسلام. كُتبت في باريس في الربيع، وقضت أشهرًا في السفر عبر البريد الدبلوماسي، بوساطة العثمانيين. تلقّاها فورييه في أواخر الصباح بينما كان كلارك يفحص نقوش اللوحات.

كانت قصيرة. كان بونابرت يكتب بصفته القنصل الأول، لا بصفته جنرالًا. تغيّر اللقب وتغيّرت النبرة. أثنى فيها على عمل اللجنة، وعبّر عن ثقته في قدرتها على الدفاع عن المجموعات في وجه المطالب البريطانية، ووعد بأن أعمالها ستُنشر بدعم كامل من حكومة القنصلية، وأضاف في السطر الأخير أن باريس تنتظر عودتهم.

باريس تنتظر عودتهم. قرأ فورييه الجملة ثلاث مرات. لم يكن بونابرت يعرف كم يكلّف المرء أن يقرأ «باريس تنتظر» وهو يتأمل حجر رشيد تحت الحراسة البريطانية. لا قسوة ولا لامبالاة، بل باريس التي كانت ترى التالي منذ الآن. لم يكتب بونابرت «يؤسفني ما تخسرونه من مجموعات»، ولا «لكنتُ فعلتُ غير ذلك». كتب «باريس تنتظر». كأن كل ما جرى هنا ـــ السنوات الثلاث، والموتى،

وحجر رشيد الذي سجّله كلارك للتوّ في سجله — لم يكن إلا مقدمة لشيء سيبدأ هناك.

طوى فورييه الرسالة ودسّها في حافظة طبعات مارسيل. ستسافر مع الطبعات. لم يكن متأكدًا مما سيفعله بها حين يصل إلى باريس. على الأرجح لا شيء. إذ لا يرد المرء على رسالة من القنصل الأول ليقول له إن صياغته بدت له خفيفة.

عاد إلى المفاوضات. كان كلارك قد أنهى اللوحات. وطالب جوليوا بحرية نشر رسوم اللجنة في فرنسا دون قيد، وهو ما كان يعني أن يُطلب من هاميلتون التخلّي عن كل رقابة بريطانية على نشر صور الآثار المصرية.

تردّد هاميلتون. كان هذا تنازلًا واسعًا. لكنه أدرك أيضًا أن حرمان اللجنة من حقّ نشر رسومها الخاصة أمر لا يمكن الدفاع عنه قانونيًّا ولا أخلاقيًّا. فوافق، واضعًا شرطًا وحيدًا، هو أن تُرسل نسخة من كل لوحة منشورة إلى المتحف البريطاني لأرشيفه.

— نسخة من كل لوحة، قال جوليوا. فليكن. سنحتاج على أي حال إلى نسخ متعددة للبيع.

ضمن هذا الاتفاق نشر *وصف مصر*، وفتح الطريق كذلك أمام *رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر* التي سينشرها دونون عام 1802، وكان قد عاد إلى فرنسا منذ عام 1799، أي قبل أن يصبح *وصف مصر* جاهزًا، وستغدو أول نجاح كبير في النشر عن مصر القديمة.

أثارت مسألة المجموعات النباتية المجفّفة نقاشًا جانبيًّا أقلّ صخبًا من نقاش المجموعات الطبيعية، لكنه كاشف عن رهانات المفاوضة. فقد كوّن علماء النبات في اللجنة مجموعات نباتية مجفّفة من آلاف العيّنات من نباتات مصر. نباتات الصحراء، وأعشاب النيل، وأصناف مزروعة في حدائق القاهرة.

أراد كلارك مصادرة نصفها. فاحتجّ علماء النبات بأن هذه المجموعات تؤلّف سلاسل متماسكة، وأن تقسيمها سيقلّل قيمتها العلمية كثيرًا. فالمجموعة المجزّأة لا تتيح الدراسات المقارنة التي تتيحها المجموعة الكاملة.

ساند هاميلتون كلارك. ولم يكن أمام العلماء إلا أن يقبلوا.

انتقل كلارك بعد ذلك إلى الفئة الأكثر غموضًا، فئة الآثار الصغيرة التي قال العلماء الفرنسيون إنهم اقتنوها بمالهم الخاص من فلاحين أو من تجار آثار، لا أنها اكتشافات رسمية للجنة.

ضمّت هذه الآثار الصغيرة مئات الأشياء المتنوعة. تماثيل جنائزية صغيرة من الخشب المطلي والخزف المزجّج، وتمائم من الأحجار شبه الكريمة، وجعارين منقوشة، وقطع من البردي، وتماثيل برونزية صغيرة، وفخّار، وحُليّ، وأدوات

قديمة، وقطع من المنسوجات. وكان العلماء الفرنسيون يحتجّون بأن هذه الأشياء مشتريات شخصية تمّت في السوق المحلية، وليست اكتشافات أثرية رسمية.

ظل كلارك متشككًا.

— إثبات أن كل قطعة اشتُريت ولم يُعثر عليها سيكون مستحيلًا، قال. وأشك في أنكم احتفظتم بإيصالات السوق.

أقرّ فورييه بالصعوبة.

— سجلاتنا... لم تكن صارمة دائمًا، لا. وفرز الآثار قطعة قطعة سيستغرق أسابيع. أقترح حلًّا وسطًا. نصف نختاره نحن ونحتفظ به. والنصف الآخر للمتحف البريطاني.

قبل هاميلتون.

— معقول. وأسرع أيضًا. سنتصرف على هذا النحو.

أمضى العلماء الفرنسيون الأيام التالية في اختيار الأشياء التي سيحتفظون بها، مفضّلين القيمة التوثيقية والدلالة التاريخية على البريق. واحتفظوا خصوصًا بعدة برديات تحمل نصوصًا هيروغليفية وديموطيقية، وبسلاسل كاملة من التماثيل الجنائزية المأخوذة من مقبرة واحدة، وبمجموعات من الجعارين تحمل خراطيش فراعنة مختلفين.

أما هاميلتون فاختار من جهته أكثر الأشياء إبهارًا للنظر، مما سيفتن جمهور المتحف البريطاني. تماثيل برونزية لآلهة مصرية، وحُليّ من الذهب والفضة، وتمائم منحوتة بدقة من اللازورد والعقيق الأحمر، وفخّار مطلي رفيع الجودة.

ورغم أن هذا التقسيم حرم فرنسا من أشياء ثمينة كثيرة، فقد أتاح مع ذلك إنقاذ جزء كبير من الآثار الصغيرة التي ستُغني مستقبلًا مجموعات المتحف المصري في اللوفر، الذي افتُتح عام 1827.

وطُرحت مشكلة خاصة بشأن المومياوات التي جمعها العلماء. احتجّ هاميلتون بأن المومياوات تُعدّ بوضوح آثارًا مصرية يجوز الاستيلاء عليها. وذهب العلماء الفرنسيون إلى القول إن للمومياوات قيمة علمية تشريحية في المقام الأول لا قيمة متحفية جمالية، وإنها ستخدم العلم خيرًا إن بقيت لدى علماء الطبيعة الفرنسيين القادرين على دراستها.

وقبل هاميلتون بعد تفكير ترتيبًا يحتفظ بموجبه العلماء الفرنسيون ببعض المومياوات الحيوانية ومومياء بشرية واحدة متواضعة الجودة لدراساتهم

التشريحية، في حين يأخذ البريطانيون المومياوات الملكية أو النبيلة الأفضل حفظًا للعرض العام.

— هذا يرضيني، قال هاميلتون. لدينا حل لكل فئة.

أجاب فوربيه بلياقة جافة.

— حلّ... لقد كنا بنّائين، سيد هاميلتون، لأن القوة كانت في صفّكم. لا أطلب إلا أن يُدوَّن، في أرشيف اللجنة، أننا نعدّ هذه المصادرة سلبًا ظالمًا. ثلاث سنوات من العمل. ومن المعاناة.

لم يردّ هاميلتون. لم يكن يدّعي محو استياء الفرنسيين، بل تنفيذ تعليماته دون ضرر لا لزوم له. هذا الاحتجاج كان قد سمعه من قبل، وكان يعلم أنه سيُرسل إلى باريس، ويُدوَّن في المذكرات، وربما يُنشر يومًا.

شغل الجرد العملي للآثار الصغيرة الأيام التالية. كانت كل قطعة تُسجَّل في قائمتين في آن واحد، يمسك إحداهما سكرتير بريطاني ويمسك الأخرى مارسيل، وكانت القائمتان تُقارَنان في المساء، على ضوء المصباح، سطرًا سطرًا، للتأكد من أن شيئًا لم يُغفَل ولم يُنقَل دون اتفاق متبادل. أمر مملّ. ولم يقع بعد ذلك أي خلاف.

وتبيّنت مسألة المنسوخات الورقية للنقوش الهيروغليفية أشدّ إثارة للنزاع قليلًا. احتجّ هاميلتون بأن هذه المنسوخات تمثّل نسخًا لنقوش مصرية، ويمكن بالتالي عدّها داخلة في فئة «المجموعات الأخرى» المذكورة في المادة السادسة عشرة.

فاعترض مارسيل، وكان قد أعدّ دفاعه، على هذا التأويل الموسّع.

— هذه المنسوخات ورق وحبر، قال. وليست آثارًا تصلح للعرض. إنها وثائق عمل لعلماء اللغة. والمتحف البريطاني لا يعرف ماذا يفعل بها. اتركوها لنا.

فكّر هاميلتون لحظة قبل أن يجيب.

— ملاحظاتكم ملاحظاتكم. ليس هذا ما أبحث عنه هنا.

وضع قلمه بحركة جافة.

— احتفظوا بها. نحن نملك الأصل.

ستبقى المنسوخات الورقية لدى الفرنسيين. كان مارسيل قد توقّع ذلك منذ اليوم الأول.

أنقذت اللجنة الجوهر، والجوهر لم تكن تتسع له الصناديق الكبيرة. كان في الأنابيب النحاسية والحافظات الجلدية. سيكون وزنه خفيفًا في عنابر السفينة. وسيكون أثقل في العقود المقبلة.

وسُوّيت مسألة المخطوطات والملاحظات العلمية على نحو أكثر ملاءمة للفرنسيين أيضًا. أقرّ هاميلتون دون عناء بأن هذه الوثائق أعمال فكرية شخصية متميزة عن الآثار المادية، وأنه لا يجوز بالتالي الاستيلاء عليها كغنيمة حرب.

في الخامس عشر من سبتمبر، طلب هاميلتون فحص كل الرسوم التي أنجزها جوليوا وزملاؤه الفنانون أثناء الحملة. فقدّم جوليوا دفاتره.

— سيد هاميلتون. التمثال الفرعوني كان موجودًا بدوني. أما هذه الرسوم فلا. لم تكن موجودة قبل أن أخطّها. مصادرة عمل شخصي ليست استيلاءً بأمر. إنها سرقة.

تفحّص هاميلتون الرسوم طويلًا.

— رسومكم عملكم، وليست آثارًا. احتفظوا بها. وسأطلب فقط نحو خمسين نسخة للمتحف البريطاني. أما الأصول فتبقى لكم.

اختار جوليوا بنفسه النسخ التي سيسلّمها. ثم بقيت يده برهة موضوعة على دفاتره.

كادت مسألة العملات القديمة تعيد فتح نزاع كان يُظنّ أنه حُسم. فقد كان علماء اللجنة يملكون مجتمعين عدة مئات من القطع النقدية الإغريقية والبطلمية والرومانية جُمعت من مواقع في الدلتا ووادي النيل. وطالب بها هاميلتون بوصفها آثارًا يجوز الاستيلاء عليها. واحتجّ العلماء بأنها مقتنيات شخصية اقتُنيت لمجموعاتهم النقدية الخاصة.

— كل قطعة اشتراها عالم، قال مارسيل وهو يُخرج دفترًا دوّن فيه، بحرص استباقي لم يطلبه منه أحد، كل عملية شراء مع ثمنها وتاريخها واسم البائع. هذه هي السجلات.

تفحّص هاميلتون الدفتر باهتمام. كان مسك هذا السجل سابقًا للمفاوضات بوضوح. ولا يمكن أن تكون وثيقة مصطنعة لخدمة القضية. فقبل الحجّة وترك العملات للعلماء، باستثناء نحو خمس عشرة قطعة لافتة وافق مارسيل على التخلّي عنها له مقابل تسهيلات نقل إضافية للصناديق الأضخم.

كان هاميلتون يتصرف على هذا النحو، صلبًا في الخطوط العريضة لتعليماته، ومرنًا في التفاصيل.

حين علم جوليوا بذلك، كان ممتنًّا له دون أن يُظهر ذلك. في بداية المفاوضات كان قد خشي رجلًا مصادِرًا.

— أفضّل أن أترك بعض القطع تفلت على أن أُرسي سابقة في التعسّف، قال هاميلتون. إذا ظنّ الفرنسيون أننا نصادر خارج كل قاعدة، فقدنا تعاونهم فيما بعد.

3 - أخلاقيات السلب

في صباح السابع عشر من سبتمبر، خرج جوليوا وحده إلى الإسكندرية. لم يكن لديه ما يرسمه على وجه الخصوص. كان يريد أن يمشي. لقد دامت المفاوضات أربعة عشر يومًا. وسيُوقَّع المحضر بعد أيام قليلة. وبعد ذلك لن يبقى شيء يُدافَع عنه.

عبر حيّ التجار دون أن يتوقف. كانت المدينة تواصل حياتها. هذا ما كان يلفت نظره أكثر من أي شيء. أن المدينة تمضي كأن شيئًا لم يحدث. النساء عند الآبار. البغال في الأزقة الضيقة. رائحة الخبز الساخن والياسمين.

توقف أمام دكان مجلّد كتب. كان الرجل يعمل على عتبة بابه، يخيط الكراريس بعناية بطيئة، عناية من تعرف يده الحركة منذ الطفولة. رفع عينيه إلى جوليوا، ثم أعادهما إلى عمله دون فضول يُذكر. فرنسي آخر. لقد رأى منهم الكثيرين طوال ثلاث سنوات. وسيرى غيرهم. عثمانيين وإنجليزًا ومماليك. وعادت الإبرة إلى الكراس.

راقبه جوليوا وهو يعمل. الأدوات البالية، والحركات الآلية، والمنضدة التي صقلتها سنوات الاحتكاك. كانت رائحة الغراء المسخّن في وعائه تعبق في الشارع. حلوة، لاذعة قليلًا.

لم يكلّمه جوليوا. وبلا مترجم، ظلّ يتأمله وهو يعمل قبل أن يتابع طريقه إلى الميناء. كانت السفن البريطانية هناك، في المرسى، تنتظر. وكانت الصناديق تتكدّس على الأرصفة. ستُرسَل الآثار الكبرى بعد أيام قليلة. وسيرحل هو بُعيدها، على إحدى هذه السفن. في حقائبه دفاتره. وفي صناديق الإنجليز حجر رشيد وتابوت نختنبو الثاني.

فكّر في المجلّد. كان المجلّد يصنع الدفاتر. وهو كان يملؤها. ستذهب الدفاتر إلى باريس، والصناديق إلى لندن. وبعد مئة عام — بعد مئتي عام — سيفتح أحدهم هذه الدفاتر ويرى مصر كما كانت في عام 1801. أعمدة معابد ومقابر ملكية، لكن لا المجلّد ولا الشارع. هذا ما اختار جوليوا أن يرسمه. أما ما تركه جانبًا — المدينة اليومية، والناس العاديون، وعمل اليدين — فلن يكون في أي مكان.

رسم الميناء والأرصفة والسفن الراسية في المرسى. ثم رسم، في زاوية الصفحة، من الذاكرة، يدي المجلّد على كرّاسه. لم يكن يعرف السبب. ذلك أن هاتين اليدين لن تذهبا إلى أي مكان. ستبقيان هنا، في هذا الشارع، تصنعان الدفاتر.

تفحّص الرسم. اليدان السريعتان الواثقتان، بالجلد الغليظ في مواضعه الصحيحة. يدان لم تغادرا هذا الشارع قط. ولم تكن بهما حاجة إلى مغادرته. حركة تُعلِّمت باكرًا حتى صارت هي الجسد نفسه. فكّر في يديه المتّسختين بالحبر. وفي عبد الله

بن يوسف الذي كان يعرف القناة بغير القياسات. وفي الصانع القبطي الذي كانت يداه تعرفان الورق.

في مساء ذلك اليوم، بعث إليهم هاميلتون برقعة. كان يطلب أن يتناول العشاء معهم في الغد، دون كاتب. أطلع جوليوا فوريبه على الرقعة.

— إنه يأتي وحده، قال فوريبه دون أن يرفع عينيه عن الرقعة. دون كاتب.

— كرجل إذن، قال جوليوا. لا كمفوّض.

وضع فوريبه الرقعة وقلبها وبحث فيها عن تاريخ لم يكن فيها. أن تأتي إلى بيت الخصم دون كاتب ودون بروتوكول، فهذا يعني أنك تريد أن تقول ما لن يحتويه أي تقرير. سيقبل باسم الجميع.

في مساء الثامن عشر من سبتمبر، حضر هاميلتون إلى منزل الفرنسيين كما اتُّفق. كان وحده.

كانت المائدة بابًا موضوعًا على حاملين خشبيين. خبز وجبن ماعز وزجاجة نبيذ محلي لم يحكم عليها أحد. كان فوريبه هناك، وجوفروا، ومارسيل. في الخارج كان الجنود يحمّلون الصناديق على العربات. كان يُسمع الخشب يحتكّ بالخشب.

أكلوا برهة دون كلام. كان هاميلتون هو من طلب المجيء. وكانوا ينتظرون أن يعرفوا السبب.

— تابوت نختنبو الثاني، قال أخيرًا. ذاك الذي درستموه هنا في الإسكندرية. سيُنقل غدًا إلى الميناء. أردت أن أقول لكم ذلك وجهًا لوجه.

وضع جوليوا كأسه ببطء. كان تابوت نختنبو من حجر البريشيا الأخضر، يزيد طوله على ثلاثة أمتار، مغطى بنقوش من الأمدوات. وقد قضى يومًا كاملًا في رسمه. كان يتذكر الضوء على البريشيا. لا انعكاسًا، بل امتصاصًا، كأن الحجر يحتفظ بالضوء لنفسه. وكانت الكتابات الهيروغليفية منحوتة بدقة ما زالت تتيح، بعد عشرين قرنًا، تمييز ريش الطيور ومفاصل الأفاعي.

— هذا التابوت، قال فوريبه، كان في الإسكندرية قبلنا. كان العرب قد أعادوا استعماله حوضًا للوضوء. نحن من أخرجه من هناك. ونحن من درسه.

— أعلم. وجدناه نحن أيضًا مذكورًا في رواية رحلة بوكوك. وهذا أحد الأسباب التي دعتني إلى إخباركم. لستم أول من نقله من مكانه.

في الخارج، ارتطم صندوق بآخر. وشتم أحدهم بالإنجليزية.

— ما يزعجني... قال جوليوا. ليس أنكم تأخذونه. بعد مئة عام، سيضطر مصري إلى المجيء إلى لندن ليرى تابوت أحد فراعنته.

كان هاميلتون ينظر إلى كأسه. وكان فوربيه يراقب هاميلتون وهو ينظر إلى كأسه.

— إن وُجد بعد مئة عام مصري يريد أن يرى هذا التابوت، قال هاميلتون، فذلك لأن أحدًا سيكون قد علّمه ما هو. وهذا الشخص سيكون على الأرجح قد اشتغل انطلاقًا من رسومكم ومقاييسكم. لا من الحجر.

— هذا تبرير.

— نعم. مثل كل التبريرات التي نعطيها لأنفسنا هنا.

لم يأكل أحد برهة. كان مارسيل يملأ كأسه بالدقة التي يضعها في كل ما يفعله.

— هذا التابوت، قال مارسيل دون أن يرفع رأسه، كان قد انتقل من يد إلى يد قبل العرب. لم يستقبل جثمان نختنبو قط، وانتهى به الأمر في الإسكندرية. صُنع منه حوض. ثم نصبه العرب، فيما بعد، للوضوء في فناء جامع العطارين. ونحن قسناه ورسمناه. وأنتم ستعرضونه. لكل عصر طريقته في تملّك مصر.

— ومصر نفسها ليس لها أن تقول كلمتها.

كان جوفروا ينظر إلى السقف.

— ليست مصر هي التي دعتنا.

كان الحديث قد مسّ للتو شيئًا لم يتوقعه هاميلتون. فكّر في تعليماته، مصادرة الآثار، والحفاظ على الإنصاف. لم تكن تعليماته تتحدث عن المصريين. لم يخطر لأحد أن يُدرجهم فيها. لم يردّ على جوفروا.

— لو تكوّنت مصر يومًا أمةً، وطالبت بممتلكاتها، تابع فوربيه، فماذا سيجيب المتحف البريطاني؟

— لن أكون أنا من يجيب. سيكون شخصًا آخر، في ظروف أخرى. لا أستطيع أن ألزم القرن المقبل.

دوّن فوربيه هذا الجواب. كان صادقًا. وكان أيضًا غير كافٍ. لكنه كان كل ما يستطيع رجل في موضع هاميلتون أن يقوله تلك الليلة.

بعد بضع سنوات، في ملاحظاته لمقدمة *وصف مصر*، سيعثر على هذه العبارة. لن يضعها فيها. كانت شخصية أكثر مما ينبغي، مرتبطة بأمسية لم يكن لها شاهد رسمي. لكنه سيفكر في هاميلتون وهو يكتبها.

نهض هاميلتون أولًا. شكر على العشاء. وعند الباب توقف.

— إن أراد عالم فرنسي أن يفحص التابوت في لندن، فسأسهّل له الوصول.

راقبه جوليوا وهو يغادر. في الخارج واصل الجنود التحميل. كان ليل الإسكندرية يدخل من النافذة. أصوات بالعربية، وكلب، ورائحة الميناء.

— لقد سلّم لنا بكل ما قلناه له، قال مارسيل. ومع ذلك أخذ التابوت.

في صباح اليوم التالي، حين عبر جوليوا الفناء، لم يكن تابوت نختنبو هناك. وفي مكانه أثر مستطيل في الرمل.

في الثاني والعشرين من سبتمبر، باكرًا في الصباح، قدم تاجر مصري إلى أبواب المستودع وطلب أن يتحدث إلى هاميلتون.

كان اسمه محمود الطويل. كان يملك دكان آثار في الحي القبطي بالإسكندرية، على بعد شارعين من الميناء. وكان ابنه البالغ خمس عشرة سنة يرافقه وسيتولى الترجمة. توقف جوليوا، الذي كان يمرّ في الفناء لحظة وصولهما.

استقبلهما هاميلتون في الغرفة التي كانت تتخذ مكتبًا له. طاولة، وأربعة كراسي، وأكوام المحاضر التي كان الكاتب يصنّفها منذ أسبوعين. وضع محمود الطويل على الطاولة قطعة ورق مطوية وانتظر حتى يترجم الابن.

كان يزعم أن عدة تماثيل صغيرة مدرجة في حصة الآثار الصغيرة البريطانية سُرقت منه على يد جنود فرنسيين عام 1798. وكان يطالب بردّها.

— يقول إن أباه كان قد اقتنى هذه القطع من أبيه، ترجم الابن. كانت في العائلة منذ ثلاثة أجيال. أخذها الجنود من الدكان في الأسبوع الأول من الاحتلال. وعنده شهود.

أصغى هاميلتون. نظر إلى الورقة المطوية. قائمة من ثمانية أشياء موصوفة بالعربية، بحواشٍ بالقروش، هي الأثمان التي دفعها الأب عند اقتنائها. طلب أن يرى الشهود. خرج الابن وعاد برجلين من الحي نفسه، أكّدا أن محمود الطويل كان يملك هذه الأشياء فعلًا قبل وصول الفرنسيين.

كان جوليوا قد اقترب من الباب. عرف وصف أحد التماثيل، تمثال صغير من البرونز يمثل أوزيريس واقفًا، ذراعاه متقاطعتان، يبلغ ارتفاعه نحو عشرين سنتيمترًا. كان قد رسمه. لا عند هذا الرجل، بل في صندوق مفتوح في المعسكر، عام 1798، في الأيام الأولى. لم يسأل من أين جاء.

— لا أستطيع أن أردّ إليك هذه الأشياء، قال هاميلتون. إنها جزء من مصادرة رسمية أقرّتها معاهدة الاستسلام. وإجراء الرد الفردي في هذا السياق معقّد قانونيًا إلى حد يستعصي على الحل.

ترجم الابن. أصغى محمود الطويل دون أن يتغير وجهه. وطرح سؤالًا قصيرًا.

— يسأل من يملك هذه الأشياء الآن. الإنجليز أم الفرنسيون؟

— الإنجليز. هي في صناديق المصادرة البريطانية.

سؤال قصير آخر.

— يسأل إذن لماذا لا يستطيع الإنجليز ردّها، ما دامت عندهم.

أخذ هاميلتون وقته ليصوغ جوابه. لم يكن في ذلك أي سوء نية. فالنظام لم يكن قد صُمّم لهذا النوع من الأسئلة.

— لأن هذه الأشياء أصبحت الآن جزءًا من مصادرة دولة، تنظّمها معاهدة دولية. والحقوق الفردية، ولو كانت مشروعة، لا يمكن معالجتها في هذا الإطار. فذلك يعني فتح إجراء لا ينتهي.

ترجم الابن. أصغى محمود الطويل، وأومأ برأسه مرة واحدة، وقال شيئًا.

— يقول إنه يفهم. ويقول سجّلوا اسمي مع ذلك.

سجّل هاميلتون. كتب الاسم والعنوان ووصف الأشياء الثمانية وأسماء الشاهدين. ووقّع الصفحة وسلّم محمود الطويل نسخة منها.

أخذ التاجر الورقة وطواها بعناية ودسّها في جبّته. شكر بلا حرارة وخرج مع ابنه. وفي الفناء توقف لحظة ونظر إلى الصناديق المكدّسة إلى الجدار. ثم عاد إلى المدينة، وابنه يمشي خلفه بخطوة.

بقي جوليوا في إطار الباب. كان يفكر في تمثال أوزيريس البرونزي. وفي صفحة دفتره التي رسمه فيها. سيذهب التمثال إلى لندن. وسيذهب الرسم إلى باريس. وسيبقى اسم محمود الطويل في سجل بريطاني لن يعثر عليه أحد على الأرجح أبدًا. كل ذلك مدوَّن. ولن يُردّ شيء منه.

ملّاك جُرّدوا من ممتلكاتهم، ومطالبات مشروعة، ولم تكن فرنسا ولا إنجلترا في وضع يتيح لها الردّ عليها بإنصاف.

في مساء الثاني والعشرين من سبتمبر، وُقّع المحضر النهائي في فناء المستودع.

كانت قد نُصبت مائدة في الفناء، في المكان نفسه كما في الأسابيع السابقة، تحت المظلة القماشية نفسها التي كانت شمس سبتمبر قد أبهتت أطرافها السفلى. وضع كاتب هاميلتون نسختي الوثيقة جنبًا إلى جنب، إحداهما محررة بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية، لكل منهما ملاحقها المرقّمة. اثنتان وعشرون صفحة لكل نسخة. صفّ الكاتب الأقلام والمحابر وخاتم الشمع. كان يفعل ذلك بالعناية الدقيقة لمن يعلمون أن عملهم سيُحفظ في الأرشيف.

وصل هاميلتون أولًا، ومعه ضابطان شاهدان. مثّل فورييه الفرنسيين مع جوليوا. وكان جومار حاضرًا أيضًا، في الخلف، دون صفة رسمية، لكنه أراد أن يرى.

وقّع هاميلتون أولًا. هكذا كان البروتوكول يقتضي. فالطرف الذي فرض شروطه يوقّع قبل غيره. فعل ذلك دون تردد، بحركة من وقّع كثيرًا من الأشياء في بلدان كثيرة.

تناول فورييه القلم. أمسكه لحظة دون أن يكتب. كان القرار متخذًا منذ زمن بعيد، ولم يكن هناك بديل. لم يبقَ سوى الوقت الذي تستغرقه اليد لتقبل ما قبله العقل مسبقًا. وقّع. وجفّ الحبر سريعًا في حرارة المساء.

ثم وقّع جوليوا. وختم الكاتب النسختين بشمع الطرفين، أحمر للبريطانيين، وأزرق للفرنسيين. وترك كل ختم أثرًا واضحًا في الشمع الطري، بصوت مكتوم.

عدّ جومار الملاحق آليًّا، أربعًا وأربعين صفحة في المجموع. وفي هذه الأوراق قائمة الآثار الكبرى التي صادرها البريطانيون، وقائمة المجموعات العلمية المعترف بها للفرنسيين، وبنود الاطلاع المتبادل، وضمانات النقل. لم يكن في هذه الصفحات ما يقول كم يزن تابوت نختنبو، ولا كم استغرق اليوم الذي رسمه فيه جوليوا.

سُلّمت النسختان إلى الطرفين. دسّ هاميلتون نسخته في حقيبته دون أن ينظر إليها أكثر. وأمسك فورييه نسخته برهة بين يديه، كأنه يقدّر وزنها. لندن من جهة، وباريس من الجهة الأخرى. أما ما كان لا يزال هناك، في هذه الأزقة وهذه الأسواق وهذه ورشات الحفر، فلم يكن ملكًا لأحد من هذا الجانب من المائدة.

لم يقل أحد شيئًا لبضع ثوانٍ. ثم تنحنح أحد الضباط البريطانيين، وتحرك الجميع في وقت واحد.

أدلى هاميلتون بملاحظة أخيرة وجدها جوليوا سديدة في صياغتها.

— ما فعلناه هنا ستحكم عليه الأجيال القادمة. وليس بالضرورة لصالحنا. سنكون قد حاولنا على الأقل... شيئًا من الإنصاف.

لم يجب جوليوا. كان مرهقًا أكثر من أن يخوض في الفلسفة. لكنه دوّن العبارة في دفتره مساء اليوم نفسه، مع التاريخ والسياق. ولن ترد في أي كتاب منشور.

4 - الوداع

بعد أن تقرّر تقاسم المجموعات، قضى العلماء الفرنسيون والمفوضون البريطانيون الأيام الأخيرة من سبتمبر في تغليف ما سيحمله كل منهم.

من الجانب البريطاني، كانت الآثار الكبرى مسجّلة في السجل منذ الرابع من سبتمبر. ولم يكن على رجال كلارك سوى وضعها في الصناديق والتحقق من الأحزمة والأختام. وفي فناء المستودع، كانت الصناديق والتوابيت الأخرى والتماثيل على عرباتها تنتظر التحميل. ولم يكن أحد يفتحها بعد الآن.

كان جوليوا يراقب هذه الاستعدادات دون أن ينبس بكلمة، مرًّا ومستسلمًا. هذه القطع ستذهب إلى لندن. لن يراها ثانية أبدًا. بقيت له رسومه، التي ستحفظ ذكرى آثار ضاعت على فرنسا.

وفي 24 سبتمبر جاء هاميلتون ليشكر جوليوا وفورييه على تعاونهما النسبي أثناء المفاوضات.

أما العلماء الفرنسيون فقد عبّؤوا من جانبهم المجموعات التي نجحوا في إنقاذها.

وأُجريت الجرود قطعة قطعة، ومخطوطًا مخطوطًا، ورسمًا رسمًا، كلٌّ بحسب ما يحمله.

وفي 25 سبتمبر أُجري تفتيش أوّلي تحت إشراف مشترك من ضابط بريطاني وفورييه. فُتح كل صندوق، وتم التحقق من محتواه بمقارنته بالجرد، ثم أُعيد إغلاقه.

وفي مساء 26 سبتمبر كان التغليف قد انتهى. كان العلماء الفرنسيون مستعدين للإبحار إلى فرنسا. ولم يكونوا ينتظرون سوى السفن البريطانية.

وفي الساعات الأخيرة من ذلك اليوم جمع جوليوا مساعديه لإجراء تحقق نهائي. أمر بفتح كل أنبوب معدني يحوي رسومًا وإعادة فحصه، وتأكد من إحكام السدادات ومن خلوّ الأنابيب من أي شقوق. وفعل الشيء نفسه مع حزم الأوراق وعلب الملاحظات وحافظات النسخ المطبوعة بالتنقيش. كل ما ستحمله اللجنة إلى فرنسا كان يتسع لبضعة صناديق وبضع لفائف نحاسية.

ـــ ألم ننسَ شيئًا؟

ـــ لا شيء جوهري، على ما أظن. آلات القياس في الصندوق رقم ثلاثة. ودفاتر الرفع المعماري في الصندوق أربعة. ورسومك في الأنابيب من واحد إلى ثلاثة وعشرين. ونسخ مارسيل المطبوعة بالتنقيش في الحافظات. وسجلات المجمع في الصندوق خمسة.

نظر جوليوا إلى الأنابيب. كانت في داخلها، ملفوفة ومثبتة بورق قطني، لوحات مصر القديمة كلها، تلك التي عبرها الجيش، وقد اختُزلت إلى خطوط وتهشيرات على ورق سميك. وكان هذا الورق قد صار أثمن من الآثار نفسها، لأن الحفر يستطيع أن يستنسخه بقدر ما يشاء، ولأنه يعبر الزمان والمسافات خيرًا مما يعبرها أي حجر. وكان النحاس باردًا تحت راحة يده.

وفي الليلة الفاصلة بين 26 و27 سبتمبر ظل جوليوا جالسًا في غرفته، والأنابيب المعدنية مصفوفة إلى الجدار عن يساره، يعمل على إعداد فهرس رسومه، وهو قائمة أبجدية وموضوعية بجميع الآثار الموثقة، مصنفة بحسب الموقع والعصر والطراز المعماري.

وكان هذا الفهرس، الذي أنهاه نحو الرابعة صباحًا، أول جدول لمحتويات ما سيغدو وصف مصر. وقد أحصى فيه ألفين وسبعة وثمانين رسمًا تغطي مئة وستة وثمانين موقعًا مختلفًا، من جزيرة فيلة في الجنوب إلى الإسكندرية في الشمال. وكان يدوّن لكل رسم ما إذا كان منظرًا عامًّا أم تفصيلًا معماريًّا أم نقشًا أم تصويرًا لشخوص.

عند الفجر لفّ الفهرس ودسّه في الأنبوب رقم واحد مع أثمن دفاتره، ودفع السدادة براحة يده.

وُضع الختم النهائي على الصناديق في 27 سبتمبر عند العاشرة صباحًا، بحضور ضابط بريطاني وشاهدين فرنسيين وكاتب عدل عسكري ارتُجل للمناسبة. كانت هذه الصناديق ستعبر البحر المتوسط وتنضم إلى المجموعات الوطنية. انتصار جزئي، بعد كل ما جرى. ونفخ كاتب العدل على الشمع.

وعد جومار نفسه بأن يصف المشهد في مذكراته، لما كان يُغلقه. في الثالثة والعشرين، كان يترك خلفه مرحلة من حياته لن تشبه أي مرحلة أخرى.

أما جوليوا فلم يكن يفكر في المستقبل. كان يفكر في مواقع الجنوب التي لم يفعل سوى أن لمحها. في كل ما لم يتسع له الوقت ليرسمه.

وفي 29 سبتمبر علم العلماء أن السفن البريطانية المخصصة لإعادتهم لن تستطيع نقل ركاب قبل أكثر من شهر. كان لا بد من الانتظار.

وفي صباح 31 أكتوبر تلقى العلماء الفرنسيون الأمر الرسمي بأن يكونوا مستعدين للإبحار في اليوم التالي على متن سفن النقل البريطانية التي ستعيدهم إلى فرنسا عبر مالطا.

وقبل الإبحار، قام هاميلتون بزيارة أخيرة إلى العلماء الفرنسيين. وكان يحمل تصاريح المرور التي ستسمح لصناديقهم بعبور نقاط التفتيش في الموانئ البريطانية، موقّعة ومختومة. ولن يستطيع أحد أن يستولي على أمتعتهم في اللحظة الأخيرة.

— هذه تصاريح مروركم. أتمنى لكم رحلة عودة طيبة.

ناول جوليوا الحزمة، فتناولها.

— وأتمنى لكم أن تحسنوا استعمال ما تحملونه معكم.

ارتسمت على وجه هاميلتون ابتسامة خاطفة. لقد فهم. حسن استعمال ما كانوا يحملونه كان يعني نشر اللوحات، وفتحها أمام علماء كل البلدان، واستخلاص معرفة لا تبقى حبيسة باريس. وكان ذلك هو المبرر الوحيد الذي يمكن أن يقدّمه يومًا لما فعله هنا.

— سنبذل قصارى جهدنا.

كان هذا كل شيء. ولم يلتقيا بعد ذلك أبدًا.

وفي المساء الأخير اجتمع العلماء فيما بينهم، دون هاميلتون ولا الضباط البريطانيين. أكلوا قليلًا وتحدثوا طويلًا. كان لكل منهم حسراته، موقع فاته، ونقش لم يُنسخ، ومعبد كانت سنة إضافية ستتيح رفع مخططه. لم يقل أحد بصوت عالٍ إن ذلك لن يتكرر، لكنهم جميعًا كانوا يفكرون فيه.

وفي ليلة الحادي والثلاثين من أكتوبر إلى الأول من نوفمبر، كان جوليوا ممددًا على فراشه من القش في المخزن، يصغي إلى البحر وصياح النوارس. كانت السنوات الثلاث تعود إليه في فوضى، بعيدة من الآن، كأن رجلًا أصغر سنًّا قد عاشها. النزول في الإسكندرية، والمسير في الصحراء، والمشهد الأول للأهرامات، وثورة القاهرة، ومعابد صعيد مصر، وحجر رشيد، ومقتل كليبر، والمفاوضات مع هاميلتون.

نهض عند الفجر، وذهب ليتحقق للمرة الأخيرة من الأنابيب، وخرج إلى الرصيف. كان البحر هادئًا تحت سماء ما زالت داكنة. وبقيت بضع نجوم في الغرب. وعلى السفن الراسية في المرفأ كانت الفوانيس تلمع. وبعد ساعات قليلة سيكون على متنها. وبعد أسابيع قليلة سيكون في باريس.

وفي صباح الأول من نوفمبر ودّع كلٌّ على طريقته. زار جوليوا للمرة الأخيرة شيخًا من الإسكندرية تلقّى تكوينه في الأزهر، كان قد تحدث معه مرارًا عن الآثار الفرعونية. وكان العالم المسن، الذي يقرأ العربية والفارسية والتركية ولا يقرأ الفرنسية، قد فحص طويلًا الرسوم التي عرضها عليه جوليوا.

— يقول إن الفراعنة كانوا عمالقة، ترجم المترجم. عمالقة كانوا يبنون للأبدية لأنهم كانوا يعتقدون أنهم سيعيشون فيها.

— لعله محق. لقد نجت هذه الآثار من جميع الإمبراطوريات التي احتلت هذه الأرض. ومن إمبراطورياتنا أيضًا، على الأرجح.

قال الشيخ شيئًا آخر. وتردد المترجم قبل أن يترجم.

— يقول إنكم نظرتم إلى هذه الحجارة كأن لها روحًا. هذا حسن. للفرق قيمته، حتى وإن رحلتم.

دوّن جوليوا العبارة في دفتره، بعد عبارة *الوكيل* عبد الله. رجلان لا يعرف أحدهما الآخر، بينهما سنة، ولم يعدّ أي منهما هذه النظرة المسلطة على بلده بلا قيمة.

جرى الصعود إلى السفن في أواخر صباح الأول من نوفمبر. كانت السفن البريطانية قد رست على بعد بضع مئات من الأمتار من الرصيف. وكانت الزوارق تنقل الركاب جيئة وذهابًا بين الرصيف والسفن. وشُحنت صناديق الفرنسيين أولًا، وقد سمح بذلك هاميلتون الذي أدرك قلق العلماء على مجموعاتهم.

كانت سفن نقل وسفنًا حربية بريطانية. وكانت ترسو في المرفأ أيضًا *المصرية*، فرقاطة فرنسية قديمة أُخذت في ميناء الإسكندرية وصارت تحت الراية البريطانية، وقد أبقى الإنجليز على اسمها ؛ وإليها خُصص حجر رشيد.

ـــ انتبه، قال جوفروا لبحّار كان يرفع أحد صناديق قوارير الحفظ من جانب واحد. قوارير. هشّة.

أخذ البحار الصندوق من جديد بكلتا يديه ليقدّر توازنه، ثم وضعه في الزورق مع الباقي. ولم يزد جوفروا شيئًا.

وكان ما يقلقه هو العنبر. مظلم رطب قليل التهوية، عرضة لصدمات الاهتزاز. وكانت قوارير الكحول تطرح المشكلة الأخطر. صندوق ينقلب في طقس عاصف، لوح ينكسر، فينسكب الكحول. وفانوس قريب أكثر مما ينبغي، فيندلع الحريق. وكان قد قال ذلك للقبطان البريطاني الذي أذن بوضع أكثر الصناديق هشاشة في حيّز يسهل الوصول إليه من السطح السفلي.

صعد جوليوا إلى الزورق أخيرًا. ألقى نظرة أخيرة على الإسكندرية من مستوى الماء. البيوت البيضاء بسطوحها المستوية، والمآذن، والقلعة المقامة على أنقاض المنارة القديمة، ومن ورائها الصحراء، ووادي النيل الذي يختفي نحو الجنوب، وكل تلك الآثار التي لم يفعل الجيش سوى أن مرّ بها.

ـــ ما زال هناك الكثير مما يُرى، تمتم.

ـــ وسيظل هناك دائمًا، قال جومار الذي كان قد صعد إلى الزورق نفسه.

ابتعد الزورق عن الرصيف. ولم يلتفت جوليوا. احتفظ أمام عينيه بصورة الإسكندرية كما كانت في ذلك الصباح، واضحة مضيئة في هواء نوفمبر الجاف.

وما إن استقر على متن السفينة حتى رفض أن يترك أنابيبه النحاسية في العنبر. حملها إلى قمرته، حجرة ضيقة طولها مترين وعرضها متر ونصف في مقر صغار الضباط، فيها سرير من القماش وخطّاف في السقف. ثلاثة وعشرون أنبوبًا، نحو خمسين كيلوغرامًا. ثبّتها على الرف فوق السرير وربطها بحبل إلى الخطاف.

لم ينم تقريبًا في الليلة الأولى. فعند كل حركة للسفينة كان الحبل يشتد وتصطدم الأنابيب برفق بالحاجز. وكان يصغي إليها في العتمة.

وضع جومار صناديق رسومه الخرائطية بالاتفاق مع الملازم الأول، مشدودة إلى الحواجز بالحبال، كما تُشدّ معدات المدفعية. طريقة عسكرية للوقاية من الاهتزاز.

ـــ هل سبق أن نقلتَ خرائط ثمينة؟ سأله الملازم.

ـــ لا. لكنني رأيت كيف تربطون المدافع.

أومأ الملازم برأسه. كان ذلك منطقيًا.

على متن السفن، اختلط الركاب الفرنسيون، علماء وجنودًا، بالطواقم البريطانية في حيّز مُعدّ لثلثي هذا العدد. وظلّت الفئات منفصلة، الفرنسيون في المقدمة وعلى الميسرة، والبريطانيون في الوسط وعلى الميمنة. لكنهم كانوا يتلاقون في الممرات الضيقة والأروقة والسلالم عشرين مرة في اليوم دون أن يتبادلوا كلمة.

كان العلماء يجدون في ذلك العبث قبل كل شيء. كانوا يعودون إلى فرنسا على سفن الذين أخذوا منهم لتوّهم حجر رشيد وتابوت نختنبو الثاني. الأسطول نفسه الذي أغرق أسطولهم في أبو قير.

كتب جوليوا ذلك على هذا النحو، مساءً، في رسالة لم يُتمّها.

« نعود إلى فرنسا على متن سفن من انتصروا علينا، وتصاريح مرورهم في جيوبنا، وحجر رشيد ينتظر عنبر *المصرية*. لقد أخذنا مصر من المصريين، وهم استردّوها منا. ستسافر الحجارة إلى لندن. وتسافر رسومنا نحو باريس في أنابيب نحاسية أحتفظ بها فوق سريري. أظن أن هذا فرق سيكون له شأن على المدى البعيد. »

أعاد قراءتها، وجعّد الورقة ورماها. لم تكن الكلمات فيها. وسيحاول أن يجدها في *وصف مصر*.

5 - العبور

كان للبحر المتوسط في نوفمبر أمزجته. ومنذ اليوم الثاني هبّت ريح شمالية شرقية واضطرب البحر. وأخذت السفينة تتأرجح بشدة. وقضى عدة علماء، ممن لم يعتادوا الإبحار، الأيام الأولى طريحي مقصوراتهم، ما عدا جومار الذي نزل إلى العنبر ليتفقد صناديقه، وجوفروا سانت هيلير الذي كان يذهب لتفقد قواريره كل ساعتين.

بقي جوليوا على سطح السفينة. كان قد قطع رحلة الذهاب دون عناء، ونشأت لديه مع البحر، على مدى الأشهر المصرية، علاقة هادئة. كان يراقب الأمواج والغيوم والضوء المتغير بالنظرة نفسها التي ينظر بها إلى الآثار، منتبهًا وبلا أحكام. وجاءه أحد الضباط البريطانيين الشباب ليحادثه.

— ماذا تحمل بالضبط في هذه الأنابيب؟

— مصر القديمة.

نظر إليه الضابط دون أن يفهم.

— رسوم، أوضح جوليوا. مخططات لآثار. نسخ لنقوش. كل ما استطعت توثيقه في أكثر من ثلاث سنوات. سيكفي لملء مجلدات كاملة.

— مثل موسوعة؟

— مع صور، قال جوليوا.

بدا الضابط راضيًا وانصرف. وبقي جوليوا على السطح ساعة أخرى، يده على حاجز السفينة المبلل بالرذاذ. في مكان ما وراء الأفق كانت الأهرامات لا تزال هناك.

في اليوم الخامس خفّت الريح. واستعاد البحر حركته المنتظمة. وعاد العلماء إلى الظهور على السطح، شاحبين بعدُ لكنهم واقفون. وقبل أن تظهر مالطا حتى، كان كلٌّ قد استعاد مكانه ودفاتره، مثبّتة ضد التمايل تحت مرفق أو فنجان.

كان جومار يعمل على ملاحظات القياس، يتعقب التناقضات. وكان عدد منها يقبل الحل. واستعصى اثنان.

— انظر، قال وهو يضع دفاتره على حاجز السفينة، وإبهامه على الصفحة في وجه الريح. قاعدة هرم خفرع أطول قليلًا على المحور الشرقي الغربي منها على المحور الشمالي الجنوبي. ليس كثيرًا. عشرون سنتيمترًا على مئتين وخمسة عشر مترًا. لكن الأمر يتكرر في الأهرامات الثلاثة الكبرى في الجيزة.

— خطأ في قياساتك؟

— ممكن. فكرت في ذلك. لكنني قست كل ضلع ثلاث مرات بالسلسلة، وفي المرات الثلاث...

— إذن؟

— إذن فالفارق مقصود. لعل البناة أخذوا في الحسبان قياس الأرض. قبل قرون من أن... قبل النظرية، باختصار.

نظر إليه جوليوا طويلًا.

— انشر هذا.

— ليس الآن. إنها فرضية، لا أكثر. يجب أن يعيد مونج الحسابات. في باريس.

كان مونج قد عاد إلى فرنسا مع بونابرت منذ أغسطس 1799. أما القياسات فكانت تسافر مع جومار، في أحد أنابيبه. وهذا العمل، المنشور في مجلدات *الوصف*، سيظل موضع نقاش وتناول لعقود. أما في تلك الليلة على السطح، فلم يكن جومار سوى شاب لا يقدر على النوم.

أما ما لم يقله جومار، وما لم يقله لأحد منذ مغادرة الإسكندرية، فهو أن الفرضية كانت ترعبه بقدر ما كانت تُحمّسه. فإن كان بناة الأهرامات قد عرفوا قياس الأرض، فهذا يعني أن شيئًا ما قد ضاع. لا أنه نُسي، بل دُمّر وتبعثر وصار بعيد المنال. عشرون قرنًا من الغزوات والنهب والحرائق. مكتبة الإسكندرية. البرديات

التي أحرقها جنود قيصر دون أن يقرؤوها. واللامبالاة الطويلة التي أبداها المحتلون المتعاقبون تجاه ما تحتويه الجدران.

أخرج من معطفه الدفتر رقم سبعة عشر، الذي خصصه للفرضيات غير المحققة. كان قد دوّن فيه، على مدى الأشهر، الملاحظات التي استعصت على التفسير الفوري. التوجّه الفلكي للمعابد. وانعدام أي خطأ في نسب معبد آمون الكبير في الكرنك على امتداد خمسمئة متر. وترتيب الحجرات والممرات الداخلية في الأهرامات الكبرى، التي بدت له محاورها تستجيب لحساب لم يستكمل إعادة بنائه بعد.

لم تكن الأهرامات مقابر فحسب. وربما لم تكن مقابر على الإطلاق، بالمعنى الذي يُفهم به هذا اللفظ في فرنسا. كانت أدوات. آلات لقياس العالم، ولتثبيت السماء في الحجر، ولنقل معرفة إلى من سيأتون بعد أصحابها، معرفة لا يستطيع البردي أن يضمن بقاءها. لأن البردي يحترق. أما الحجر فاحتراقه أقل.

أعاد الدفتر إلى معطفه وزرّر ياقته من جديد. فرضية أوسع من أن تُحشر في هامش صفحة. عشر سنوات من العمل، على الأقل. كان في الثالثة والعشرين.

كان الليل قد حلّ. وبدت النجوم فوق البحر المتوسط أقل لمعانًا مما كانت عليه فوق الصحراء. بحث عن الجبار فوجده منخفضًا عند الأفق، ونجوم نطاقه الثلاثة مائلة قليلًا نحو الجنوب. بقي يتأملها حتى أجبره البرد على الدخول. وفي أحد أنابيبه، بين لفّتين من الورق المزيَّت، كان قد دسّ ورقة صغيرة مطوية أربع طيّات، نسخ عليها في الجيزة القياسات الدقيقة لقواعد الأهرامات.

على ظهر السفينة الخلفي كان فوربيه يكتب. وكان يبحث منذ أيام عدة عن مطلع المقدمة التاريخية لوصف مصر، عن العبارة التي تجعل القارئ يدرك لماذا كانت مصر أهمّ من أي حضارة قديمة أخرى. لم تكن المادة هي المشكلة. المشكلة كانت النبرة. فإن اتخذ نبرة العالِم، خسر القارئ المثقف الذي يريد أن يتأثر. وإن اتخذ نبرة الخطيب، خان الدقة التي ينتظرها منه معهد فرنسا.

كان قد ملأ إحدى عشرة صفحة أولى ومزّقها. وفي هذه المحاولات الإحدى عشرة كلها الخطأ نفسه. كان يبدأ بالحملة. «في 19 مايو 1798، أبحر الجيش الفرنسي من طولون.» أو «لجنة العلوم والفنون، المؤلفة من مئة وسبعة وستين عضوًا.» عبارات سليمة، تَعِد القارئ بتقرير، في حين كان يريد أن يمنحه شيئًا آخر تمامًا.

ما كان يبحث عنه ولا يجده هو الكلمة التي تجعل القارئ يدرك لماذا تختلف مصر عن سائر البلدان. لا أجمل، ولا أقدم بالمعنى المألوف. بل قديمة على نحو آخر. القِدَم بوصفه خاصية فيزيائية للهواء والحجر والنهر. كان عليه أن يُدخل ثلاثة آلاف

سنة من التاريخ في مقدمة واحدة. ولم يكن أحد قد اهتدى بعدُ إلى كيفية كتابة ثلاثة آلاف سنة.

— بماذا أبدأ؟ قال بصوت عالٍ، لنفسه بقدر ما هو لجومار الذي كان يصغي إليه.

— بما لا يتغير. النيل. الفيضان السنوي. الفصول. كل ما عدا ذلك، الفراعنة والأسرات والفتوحات، زائل أمام هذا. ابدأ بالجغرافيا. والباقي يتبع.

دوّن فورييه. كان قد وجد مدخله أخيرًا. لا الجغرافيا بالمعنى التقني، لا خطوط العرض ولا خطوط الطول. بل الجغرافيا بمعنى شكل العالم من حيث ما يفرضه من قيود على البشر. النيل الذي يعلو وينحسر. الوادي بين صحراءين. الحضارة جوابًا على قيد فيزيائي. هذا، كان يستطيع أن يكتبه.

شرع في الصفحة الثانية عشرة. ولم يمزقها هذه المرة. كتب ثلاثة أسطر وأعاد قراءتها. كانت متماسكة. وكان السطر الثالث يؤكد أن النيل يعبر القرون دون أن تعبره القرون. لم يكن كاملًا. لكنه كان حيًّا. كان بداية. فواصل الكتابة.

وكان جوفروا سانت هيلير، في تلك الأيام نفسها، يحرر الملاحظات التي ستصبح مقالاته الأولى عن حيوانات النيل. كان يعمل في قمرته، محاطًا بقوارير مربوطة بإحكام اتقاءً لتمايل السفينة. ورائحة الكحول التي تحفظ الحيوانات تملأ المكان الضيق.

— بماذا تفكر حين تكتب هذه الأوصاف؟ سأله جومار ذات مساء.

— أفكر فيمن سيقرؤون بعد خمسين سنة. أريدهم أن يروا ما رأيت، لا أكثر ولا أقل. الحرشفة، والزعنفة، واللون الذي كان قبل الكحول. ما هو كائن فحسب.

دون أن ينتبه، كان قد صاغ للتوّ شعاره.

في صباح 10 نوفمبر دخلت السفينة ميناء فاليتا. نزل العلماء إلى البر وتجوّلوا جماعاتٍ صغيرة في شوارع المدينة المحصّنة. كان قد مضى أكثر من عام بقليل منذ أخلت الحامية الفرنسية الجزيرة تحت الضغط البريطاني، وأصبح العلم البريطاني يخفق الآن فوق الأسوار التي رأى جوليوا العلم الثلاثي الألوان يرفرف عليها حين مرّ بها في يونيو 1798.

— ثلاثة أيام لأخذها، قال فورييه وعيناه على تحصينات فاليتا. وسنتا حصار لفقدانها. كالباقي، تقريبًا بالنسبة نفسها.

جلس جوليوا أمام كنيسة القديس يوحنا الديرية ورسم واجهتها الصارمة بسرعة. لا من أجل *وصف مصر* الذي لا يتناول إلا مصر، بل لنفسه، بحركة غريزية من يده التي لم تعد تعرف كيف تبقى عاطلة أمام صرح جدير بالنظر. استغرق الرسم عشرين دقيقة. وحين رفع عينيه كان جومار واقفًا خلفه.

ـــ ما زلت ترسم، قال جومار.

ـــ دائمًا. لا أعرف أن أنظر بغير ذلك.

في المساء اجتمع العلماء في النزل للعشاء. وتناول الحديث ما ينوي كل منهم فعله عند عودته إلى باريس. أراد جوفروا سانت هيلير أن يستعيد منصبه في متحف التاريخ الطبيعي. وكان فوربيه يفكر في كرسيه في مدرسة البوليتكنيك. وذكر مارسيل بحنين المطبعة الوطنية.

ـــ وأنت يا جوليوا؟ سأل جوفروا سانت هيلير.

ـــ أنا؟ سأعمل. هذه الرسوم لن تُنقش من تلقاء نفسها.

في 11 نوفمبر عند الفجر رفعت السفينة مرساتها واستأنفت طريقها نحو الشمال الغربي. وكان البحر المتوسط الغربي، أبرد وأشد اضطرابًا من البحر الشرقي، يذكّرهم بلونه الرمادي المخضرّ بسواحل فرنسا التي غادروها.

في هذا الجزء الأخير من *الرحلة*، ثمانية أيام منذ مالطا، كان العلماء يجتمعون كل يوم في القمرة الكبيرة ليتناقشوا في شأن *وصف مصر*. من يكتب ماذا. وبأي ترتيب. وكم مجلدًا.

ـــ يجب أن يكون *وصف مصر* هذا موسوعة، قال فوربيه. لا بضع لوحات مع شروح، بل كل ما رأيناه وقسناه وراقبناه. الآثار والجغرافيا والتاريخ الطبيعي والمجتمع المعاصر. عشرون مجلدًا على الأقل.

ـــ هذه اللوحات ستكون كاملة أو لن تكون، قال جوليوا. أفضل النقّاشين في باريس، وكل ما يلزم من الوقت. عند أي عيب نعيد من البداية.

أراد جومار أطلسًا جغرافيًا كاملًا، أولى الخرائط الدقيقة لوادي النيل بأسره. وطالب جوفروا بمكانة مرموقة للتاريخ الطبيعي. وكان مارسيل يفكر في نسخ حجر رشيد المطبوعة.

كان كل واحد يفكر فيما سيبقى منه. رفع جومار، عند مقدمة السفينة، عينيه عن دفاتره. كان الساحل لا يزال غير مرئي. فكر في القياسات المحفوظة في أنابيبه، التي سيستعملها أحدهم بعد مئة عام دون أن يعرف اسمه. بلّل قلمه واستأنف عمود أرقامه.

في 17 نوفمبر، في عصر خريفي صافٍ، ظهرت فرنسا أخيرًا عند الأفق، خطًّا داكنًا منخفضًا أولًا، ثم، مع الاقتراب، هيئة رؤوس وتلال. فرنسا. لم يقولوا شيئًا.

في 18 نوفمبر، عند الفجر، دخلت السفينة المياه الساحلية لبروفانس. كان ضوء الخريف على البحر يختلف عن ضوء البحر المتوسط الشرقي، أشحب وأكثر انتشارًا، بلا الكثافة التي كانت له في مصر.

— هذا الضوء، قال جوليوا لجومار. هذه هي فرنسا.

كان الساحل يقترب. وصارت تُرى الآن الجروف الكلسية، والخلجان الصخرية الضيقة، وأولى بيوت الصيادين.

— نحن عائدون، قال جوليوا.

كان في الكلمة ارتياح وأسف، وكل العمل الذي ينتظر. لم يجب جومار. ولم يكن أي منهما يعتقد أن مصر كانت قوسًا يُغلق.

6 - العودة إلى فرنسا

رست السفينة في طولون في 19 نوفمبر 1801، بعد ثلاث سنوات وستة أشهر من رحيل الأسطول الفرنسي عن هذا الميناء نفسه في مايو 1798. وكانت ظروف العودة تناقض ظروف الرحيل. فبدلًا من أسطول من أربعمئة سفينة تقلّ ثمانية وثلاثين ألف جندي، كانت بضع سفن بريطانية تعيد بقايا جيش مهزوم.

كان لا بد أولًا من قضاء الحجر الصحي المفروض على السفن القادمة من الشرق، وقد قُصّر هذه المرة. ثم نزل العلماء في طولون. كانت فرنسا قد تغيّرت. وكانوا هم قد تغيّروا أكثر.

غادر جوليوا المحجر الصحي ووضع قدمه على رصيف طولون. الحجر المبلول، البارد. رائحة الملح والقطران. النوارس تصيح فوق الميناء.

توقف، تاركًا الآخرين يتجاوزونه. لم يقبّل الأرض. نظر إلى الرصيف والمباني والتلة التي تعلو المدينة والسماء الرمادية. كان الهواء باردًا رطبًا، برد المتوسط في نوفمبر، لا شيء من البرد الجاف في الليالي المصرية. استنشقه في رئتيه وانتظر أن يتذكره جسده.

أُنزلت الصناديق، وفيها رسوم جوليوا ومجموعات جوفروا سانت هيلير ونسخ مارسيل المطبوعة والأدوات والمخطوطات، تحت إشرافهم.

في المساء اجتمعوا في نزل عند الميناء.

— نخب مصر.

رفع فورييه كأسه.

— ونخب من لم يعودوا منها.

شربوا. ولم يضف أحد شيئًا، ونام الجميع باكرًا.

في صباح اليوم التالي أرسلت سلطات الميناء ضابطًا لتسجيل الصناديق رسميًّا. كان شابًا لا يعرف عن حملة مصر إلا ما قالته الصحف الباريسية. فحص بيانات النقل سطرًا بعد سطر، وعدّ الصناديق مرتين، وعيّن مستودعًا قرب الرصيف.

ـــ هذه الأشياء تشكل التراث العلمي للجمهورية، قال له فورييه بسلطة لا تقبل الجدل. ستُنقل إلى باريس تحت الحراسة في أقرب وقت ممكن. احرص على أن تكون المستودعات جافة ومقفلة بإحكام.

انحنى الضابط ونفّذ. كان فورييه قد استعاد دون أن يفكر نبرة الموظف الباريسي، سليمة تحت ثلاث سنوات من الغبار.

بعد الظهر جلس عدد من العلماء في مكتب بالإدارة البحرية، تحت صورة القنصل الأول التي ما زال طلاؤها طريًّا، لتحرير تقاريرهم الأولى إلى وزارة الداخلية. كان المقصود إثبات أن لجنة العلوم والفنون أنجزت مهمتها، وأن مجموعاتها سليمة في الجزء الذي نجا، وأن النشر يمكن أن يبدأ. حرر فورييه التقرير الرئيسي بيد واثقة، ولم يذكر الخسائر التي ألحقها البريطانيون إلا في ملاحظة وقائعية في الملحق.

ـــ لندع السياسة لمن سيستعملونها، قال دون أن يرفع القلم. نعرض ما فعلناه وما نحمله معنا. وما عدا ذلك شأن المؤرخين. والدبلوماسيين.

وافق جومار، وكان يقرأ من فوق كتفه. كان في الثالثة والعشرين، ولم يجد ما يعترض عليه في ملاحظة في الملحق.

مرت الساعات الأخيرة في طولون بين استمارات وتواقيع وضربات أختام، وحملة مصر تبتلعها الدوائر المعتادة لبيروقراطية القنصلية.

كان الموظف الذي يسجل صناديق اللجنة يعاملها كما يعامل شحنة من الدقيق أو الصوف. صناديق من خشب، هذا ما كان يراه. راقبه جوليوا لحظة، ثم التفت إلى فورييه.

ـــ هكذا تحفظ الحضارات ذاكرتها، قال. في سجلات لا يقرؤها أحد.

ابتسم فورييه. كان ذلك صحيحًا، وكان أيضًا المبدأ الذي يقوم عليه أمله في أن يبقى *وصف مصر* بعد الأنظمة والحروب. سيُفهرس ويُجرد، وسيرجع إليه أجيال من العلماء لن يكونوا قد سمعوا قط بفورييه ولا بجومار، لكنهم سيقرؤون كلماتهم.

في صباح اليوم التالي أخذوا طريق باريس.

استغرقت الرحلة نحو أسبوعين، بما فيها التوقفات، على الطريق الرئيسي الذي يعبر وادي الرون ثم يواصل شمالًا عبر بورغوندي. كان العلماء يسافرون في عربات عمومية، وأمتعتهم الثمينة تتبعهم على حدة في عربات نقل مؤمَّنة.

كانوا يعلمون منذ الإسكندرية أن فرنسا غيّرت نظامها. وعلى الطريق رأوا علاماته. في محطات البريد كانت الملصقات تحمل الآن ترويسة القنصلية، ولم يعد أحد يتحدث عن الديركتوار.

في أفينيون كان حشد ينتظر أمام العربة. وكان الناس يسألون عن أخبار أبناء وإخوة وأزواج انقطع أثرهم منذ ثلاث سنوات. نزل فوربيه وأجاب بصبر. لم يكن يعرف مصير الجميع.

ترك هذا المشهد فيه أثرًا أعمق من الأهرامات. كانت بين المنتظرين امرأة في نحو الخمسين تمسك بيدها صورة مصغّرة. لم تسأل عن شيء. اكتفت بالنظر في وجوه الجنود النازلين. وأشاح فوربيه ببصره.

كان المرور بليون مناسبة لتوقف يومين. وكان لعدة علماء عائلة أو أصدقاء في المنطقة فاغتنموا الفرصة للقاءات ارتجالية. أما فوربيه، الذي كان معلمه القديم بونار يعيش في أوكسير، بعيدًا قليلًا عن الطريق، فاكتفى بأن يكتب إليه من ليون أنه لن يستطيع المرور لرؤيته وأنه سيكون قريبًا في باريس.

أما جوليوا فاغتنم هذين اليومين في ليون لزيارة نقّاش مشهور كان قد رأى عمله قبل الحملة. أراد أن يعرف ما إذا كان يمكن إشراك هذا النقّاش في إنجاز لوحات *وصف مصر*.

— هذه نماذج، قال جوليوا وهو يفتح بعض دفاتره على طاولة المشغل.

فحص النقّاش الرسوم طويلًا، العدسة في يده، متتبعًا بعض الخطوط بظفره. فالخطوط الهيروغليفية تتطلب دقة بالغة، وللنقوش البارزة فروق عمق يصعب نقلها في النقش المسطّح، والمناظر الشاملة للمعابد تقتضي إتقانًا للمنظور لا يملكه كل النقّاشين.

— إنه عمل جاد. أستطيع إنجازه. لكنني سأحتاج وقتًا. وقتًا كثيرًا.

نظر جوليوا إلى يدي النقّاش. عريضتان ثابتتان، فيهما ثفنات في مواضع دقيقة لا ينتجها إلا الإزميل. يدان مختلفتان عن يديه، هو الذي كان يرسم حيث ستنقش هاتان. هذا الانتقال من حركة إلى أخرى سيتعين عليهما أن يتعلماه معًا. وكان هو لا يزال يفهمه على نحو سيئ.

— لدينا وقت. ما لا نملكه هو الحق في التسرع والإهمال.

اتفقا على شروط مبدئية. دوّن جوليوا الاسم في دفتره وخطّ تحته. كان هذا النقّاش الليوني بالضبط ما يبحث عنه.

في المساء، وهو عائد إلى النزل، التقى جوليوا فوربيه في القاعة المشتركة.

— بونابرت تخلّى عنا، قال. والآن... والآن سيستعمل عملنا لمجده.

انتظر فورييه أن يُقدَّم لهما النبيذ قبل أن يجيب.

ـــ لولاه لما كنا هناك. وهو الذي يستطيع أن يموّل *وصف مصر*. علينا أن نُبقي الأمرين معًا في أذهاننا.

في ليون اشترى جوليوا من مكتبة نسخة من مراسلاته هو نفسه مع معهد فرنسا، نُشرت أثناء غيابه. لم يعرفه صاحب المكتبة. وأعطته قراءة رسائله من مصر وهو في فرنسا انطباعًا غريبًا. كأن رجلًا آخر عاش هذه التجربة ويقدّم له تقريرًا عنها من بعيد. كان يعرف الكلمات لكنه لا يعرف الصوت تمامًا. لقد تغيّرت كتابته. صارت أكثر مباشرة، وأقل اكتراثًا بالمؤثرات.

ـــ لم أعد الرجل نفسه الذي غادر طولون في مايو ثمانية وتسعين، قال لجومار على الطريق.

ـــ لا، قال جومار بعد هنيهة. لا أحد.

دخلوا باريس من ضاحية سانت أنطوان عند الغسق. كانت المدينة أكبر في ذكراه مما هي في الواقع. لقد أضفى على باريس طابعًا مثاليًا طوال أشهر مصر حتى جعلها رمزًا لكل ما كان يفتقده. وراعه في واقع المدينة تماسكها العادي المألوف. الشوارع نفسها، والروائح نفسها، وضجيج العربات نفسه على الحجارة المرصوفة.

ـــ باريس تبقى باريس، تمتم جوليوا وهو ينزل من عربة البريد.

ـــ أتعود من بعيد يا سيدي؟ سأل الحوذي.

ـــ من مصر.

ـــ آه، قال الحوذي. يقولون إنها جميلة.

ـــ إنها أكثر من جميلة. لكن لا بد من العودة لتعرف قيمتها.

جاء الوصول إلى باريس في 8 ديسمبر أكثر هدوءًا مما كان يتمنى بعضهم. لا موكب ولا استقبال رسمي ولا خطب. فقد عاد جيش الشرق مهزومًا، ولم يكن لدى حكومة القنصلية أي سبب للاحتفال باستسلام. وكان بونابرت قد أعاد بناء أسطورته من غير مصر. فصارت الحملة في الخطب الرسمية قوسًا سخيًا، وعملًا ذا غاية علمية اضطر إلى التراجع أمام الظروف، لا هزيمة عسكرية.

ترك جوليوا رفاقه يتفرقون، وعاد وحده إلى بيته في شارع سان دومينيك. وكان أهله، وقد أُبلغوا برسالة من طولون، قد أمروا بفتح مصاريع الشقة. دخل، وضع معطفه، وجلس في المقعد الذي اعتاد القراءة فيه. كانت في المدفأة نار. وكان الدفء على وجهه لطيفًا ثابتًا، دفء خشب يحترق لا صلة له بدفء مصر.

كان كل شيء في مكانه. المكتبة واللوحات والمكتب. ثلاث سنوات في مصر، ولم يتحرك هنا شيء.

تناول من الرف دفترًا فارغًا، أول ما وقعت عليه يده، وكتب في أعلى الصفحة الأولى «ديسمبر 1801 — تبدأ الأعمال.» ثم ذهب إلى فراشه.

جرت اللقاءات في الأيام التالية، كلما انتشر الخبر. الوالدان والأصدقاء وزملاء الأمس. أراد كل واحد منهم حكايات. هل الأهرام فعلًا بالضخامة التي يزعمها المسافرون؟ هل الحر محتمل؟ هل كان الخوف حقًا بالقدر الذي توحي به الرسائل؟

كان جوليوا يطوّع رواياته بحسب محدّثيه. مع والديه كان يسكت عن المعارك والأمراض. ومع أصدقائه العلماء كان يخوض في تفاصيل الآثار. ومع سائر الناس كان يكتفي بالدهشة والعجب. واكتشف في نفسه هذا الفن، فن تطويع الحكاية بحسب الجمهور، وهو ما لم يكن يظن أنه يملكه، وسينفعه في إعداد *وصف مصر*.

— أكبر من ذلك، كان يجيب من يسألونه عن الأهرام. ما لا يمكن تخيله، تصغّره الإشاعات دائمًا.

جلبت له هذه العبارة بعض النظرات المرتابة وبعض الدعوات إلى العشاء عند باريسيين متشوقين لسماع مغامراته. قبلها وروى، وفي كل مرة شعور بأن الكلمات تخون التجربة. أما مصر نفسها فكانت تنتظر في الأنابيب النحاسية المكدسة إلى جدار مكتبه، بسداداتها المشمّعة، أن تُترجم إلى لوحات محفورة.

نام ذات مساء من تلك الأمسيات على هذه الفكرة. العمل الحقيقي لم يبدأ بعد. وسيدوم قرابة ثلاثين عامًا.

وبعد أن انقضت اللقاءات، بدأ العلماء ينظمون أنفسهم.

في 15 ديسمبر استقبل بونابرت فوريه في قصر التويلري. كانت الممرات واسعة باردة، ودفء المدافئ لا يبلغ قاعات الانتظار. كان بونابرت ينتظره في مكتبه، واقفًا كعادته. عرض فوريه مشروع النشر. وأصغى إليه بونابرت، وقد أدرك المصلحة السياسية في تمجيد حملته رغم فشلها العسكري، من غير أن يقاطعه، ورحّب بالمشروع.

— حسنًا. انشروا هذا، قال بونابرت. سأجعله مشروع دولة.

ستمضي الأمور بسرعة، أسرع مما كان فوريه يأمل في ذلك اليوم. فقد قرر مرسوم قنصلي صدر في 6 فبراير 1802 أن تموّل الدولة تمويلًا كاملًا إعداد *وصف مصر* وطباعته، بوصفه مشروعًا وطنيًا ذا أولوية. وفي 18 فبراير عيّن الوزير شابتال لجنة تحرير تتألف من برتوليه ومونج وكونتيه وفورييه وكوستاز وديجينيت وجيرار ولانكريه، يتولى كل منهم قسمًا، وكان فورييه قد احتفظ لنفسه بالمقدمة التاريخية. وسيكون كونتيه المفوّض العام للحكومة؛ وسينضم إليها قريبًا جومار وجوليوا وديفيليه. أما فورييه، الذي عُيّن في العام نفسه محافظًا لإيزير، فسيغادر إلى غرونوبل في الربيع.

وفي الأثناء وُفرت للعلماء مكاتب في مبنى حكومي في باريس، وخُصصت اعتمادات لتشغيل حفارين محترفين ورسامين مساعدين وكتّاب ناسخين.

كرّس جوليوا نهاية ديسمبر لتصنيف آلاف رسومه، وهي المرحلة الأولى قبل الحفر. بسطها على الأرض لأن الطاولات لم تكن واسعة بما يكفي، ووزعها بحسب الآثار والأنواع. مناظر عامة، وتفاصيل معمارية، ونقوش بارزة، وكتابات هيروغليفية، ومساقط أفقية، ومقاطع رأسية.

— من دون هذا التصنيف، كان يشرح لمساعديه، سنضيع أسابيع في البحث عن الرسم الذي سنحتاج إليه.

بدأ جوليوا مع كونتيه، الذي كان الجميع يعدّونه مفوضًا عامًا مقبلًا، يختار أفضل الحفارين على النحاس في باريس ليعهد إليهم بالمهمة الدقيقة، مهمة استنساخ رسومه. قابل كل مرشح، وفحص نماذج من أعماله السابقة، وناقش طويلًا معايير الجودة التي سيفرضها.

كشفت الاتصالات الأولى بالحفارين صعوبة لم تكن في الحسبان. فهؤلاء التقنيون المدربون تدريبًا رائعًا كانوا يعرفون استنساخ أي أصل بأي أسلوب متعارف عليه. لكن رسوم جوليوا ورفاقه لم تنتمِ إلى أي أسلوب. كان لها حرية في الخط وعجلة وغموض مثمر لا يعرف الحفر الأكاديمي كيف ينقله.

— سيتعيّن عليكم تدريب أعينكم، قال جوليوا لأحدهم، وكان قد صحّح لتوّه ملامح وجه فرعون. هذه الأعراف ليست هفوات. الحفار الذي يجهل لماذا يُرسم الوجه المصري هكذا سيصحّحه. وسيقع في أخطاء جسيمة.

سيكون ذلك أطول مما قُدّر. أعاد جوليوا اللوحة إلى الحفار، من غير أي تنازل.

أما فوريير فكان يتقدم في المقدمة التاريخية. وقد اتخذ نبرة تداول علمي، يزن كل جملة ويشطب منها الكثير. وكان يريد أن يكون *وصف مصر* أكثر من فهرس مصوّر، عملًا فكريًا يضاهي *الموسوعة*، يقول للأجيال القادمة ما فهمته فرنسا من مصر، وما كانت مصر تقوله عن فرنسا.

انقضى ديسمبر 1801 في تلك المكاتب وتلك الورش. ولم يكن أي من العلماء يعلم حينذاك أن مجلدات *الفوليو* الثلاثة والعشرين من *وصف مصر* لن تكتمل إلا في عام 1829.

كان اجتماع 19 ديسمبر في معهد فرنسا أول اجتماع رسمي للجنة العلوم والفنون منذ عودتها. وقد نظّم فوريير الدعوة إليه بعناية، وأرسل رسائل شخصية إلى كل عضو لا يزال على قيد الحياة — فقد هلك نحو ثلاثين في مصر — يدعوهم إلى اللقاء في القاعة الكبرى للمعهد.

كانوا نحو ستين، قدموا من أنحاء فرنسا. وبعضهم لم يلتقِ منذ الإسكندرية. وكانوا يتصافحون مدة أطول مما ينبغي قليلًا، ويبحثون بأعينهم عمّن غاب.

ترأس فورييه الاجتماع، فذكّر بالأعمال المنجزة والصعوبات والخسائر، وتلا أسماء الزملاء الموتى، ثم عرض خطة نشر *وصف مصر*، والتمويل الذي وعد به القنصل الأول، والجدول الزمني المبدئي.

— سيستغرق هذا العمل وقتًا. عشر سنوات، ربما. وأكثر — فالحساب غير مؤكد، وقد أعدته مرات عدة. وسيُطلب من كل واحد منكم أن يسهم في قسمه. ما بدأناه في مصر سننهيه هنا، في مكاتبنا ومكتباتنا.

جلس جوليوا بين الحضور يفكر في أنابيبه النحاسية، وفي كل تلك الرسوم التي تنتظر أن تُحفر. لم يكن قد أنجز في مصر إلا نصف العمل، في أفضل الأحوال.

خُصص الأسبوع الأخير من ديسمبر لتحرير أول تقرير رسمي من لجنة العلوم والفنون إلى وزير الداخلية. وقد عرض هذا التقرير، البالغ اثنتين وتسعين صفحة، جردًا لما أنجزته اللجنة، وما جاءت به معها، وما تعتزم نشره.

كتب فورييه معظمه، وكوستاز قسم الآثار القديمة، وجوفروا سانت هيلير قسم التاريخ الطبيعي، ومارسيل الجزء المتعلق باللغات والمخطوطات. وقد أثارت الوثيقة، الرصينة الدقيقة، إعجاب الوزير فرفعها إلى بونابرت مرفقة بمذكرة مؤيدة.

استدعى بونابرت، الذي تابع تقدم المجموعات منذ عودته إلى فرنسا قبل عامين، فورييه إلى اجتماع عمل. كان يريد أن يكون *وصف مصر* صرحًا علميًا وصرحًا سياسيًا أيضًا يمجّد حملته الشرقية. ولم يكن الهدفان متعارضين، لكن تعايشهما كان يُلزم العلماء بالإبحار بحذر.

— سنخدم العلم، قال فورييه لكونتيه وهما يخرجان. وسندع القنصل الأول يعتقد أننا نخدم مجده. هذا هو الثمن المعتاد للأعمال الكبرى، أو يكاد.

ابتسم كونتيه. فمنذ بداية الحملة لم يسمع شيئًا أصدق من هذا في وصف وضعهم.

تلقى بونابرت تقرير اللجنة باهتمام لم يكن مصطنعًا. فقد كان له فضول فكري حقيقي تجاه بعض جوانب الحملة، الأهرام وحجر رشيد ومعابد طيبة. وسيقرأ بشغف، بعد بضعة أشهر، *رحلة* دونون ويحدّث عنها المقربين منه.

— صاحبكم دونون يكتب جيدًا، سيقول له مونج. وهذا نادر بين العلماء — وأنا أولهم، أعترف بذلك طوعًا. صفحاته عن الأهرام أفضل ما قرأت، والله يعلم كم قرأت!

— إنه يرى ما يصفه، سيقاطعه بونابرت. فنان. بقدر ما هو عالم.

وفي السنة التالية، أبلغ بونابرت دونون أن لديه فكرة من أجله، من غير أن يخوض في التفاصيل.

بالنسبة إلى علماء *وصف مصر*، كانت فكرة أن ينال دونون منصبًا رفيعًا خبرًا سارًا. فسيكون لهم محاور رفيع المقام، مطلع وحسن النية.

كان التمويل سخيًا لكنه غير محدود. واضطر العلماء سريعًا إلى مواجهة الواقع الاقتصادي لمنشور ضخم. فالحفارون كلفتهم باهظة، وطباعة اللوحات الكبيرة أغلى، والورق الجيد مرتفع الثمن.

أما كونتيه، وقد صار المفوض العام للحكومة، فقد التمس الاقتصاد في ميدان الحفر نفسه. تخيّل آلة تنفّذ الخلفيات والسماء وكتل الآثار، وتترك للحفارين العمل الدقيق. وقد أتاحت ضبط التكاليف وربح وقت كبير.

أما دونون فقد تفاوض من جهته مع ناشر باريسي على نشر *رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر* في مجلد مستقل، قبل *وصف مصر* الجماعي. وسيبقي صدوره منذ عام 1802 اهتمام الجمهور حيًّا، ويهيئ لاستقبال *وصف مصر*.

— ننشر على مرحلتين، كان دونون يشرح. *رحلتي* أولًا، للجمهور العريض. ثم *وصف مصر*، للعلماء. وللأبدية، إن شاءت.

كان تعيين دونون مديرًا عامًا للمتحف المركزي للفنون، بمرسوم قنصلي صدر في نوفمبر 1802، مفاجأة له بقدر ما كان لزملائه في اللجنة. وقد قرره بونابرت بعد أن قرأ *رحلة في الوجه البحري وصعيد مصر* وبعد محادثات عدة مع دونون عن الفن والمجموعات.

هذا المنصب، الذي لم يطلبه، سيضع دونون في قلب تناقض. فبصفته مديرًا للمتاحف سيشرف على اقتناء الأعمال الفنية القادمة من البلدان التي غزتها الإمبراطورية النابليونية. وسيصير الحلقة المحورية في سياسة سلب منهجي كان في مصر شاهدًا عليها، ناقدًا لها وعاجزًا عن مواجهتها.

ومع ذلك قبل. فقد ظن أنه من هذا الموقع سيستطيع أن يؤثر في طريقة تكوين المجموعات وعرضها، وأن يلحّ على بعدها العلمي بدل بعدها الانتصاري.

لم يغب عنه هذا التناقض. دوّنه في يومياته في ثلاثة أسطر جافة. ثم انتقل إلى شيء آخر.

ستكون السنوات الثلاث عشرة التالية أخصب سنوات حياته، أكثر استقرارًا وأكثر إدارية مما عاشه للتو، لكنها لا تقل مشقة. فإدارة متاحف فرنسا ستتطلب جلدًا يضاهي جلد الحملة. أخذ قبعته وخرج يمشي على امتداد أرصفة النهر.

7 - بدء العمل

كان جومار يسكن في شارع لا كروا فوبان منذ عودته. غرفة باردة في الشتاء، متجهة نحو الشمال، لكن فيها طاولة كبيرة نشر عليها أوراق قياساته.

مضت سنة على عودته. وطوال سنة كان ينسخ ويقارن ويصحح. وامتدت مسوحاته الطبوغرافية الآن على مئتي ورقة من الورق المليمتري، من الدلتا إلى جنادل أسوان. أدق خريطة لمصر رُسمت على الإطلاق.

كان يحسب ارتفاع الهرم الأكبر، مئة وستة وأربعون مترًا ونصف. فقد استخدم البناؤون وحدة قياس دقيقة، وكان يعتقد أن هذه الوحدة يمكن الآن استعادتها. وسينشر قيمتها عام 1817، 0,462 متر للذراع. وسيتعين على علماء المصريات تصحيحها. فالذراع الملكية تساوي 0,5236 متر، ويبلغ ارتفاع الهرم الأكبر نحو مئتين وثمانين منها.

وكان يفكر كذلك في قناة السويس. فقد تصورها بونابرت.

أما لوبير، كبير المهندسين، فقد ارتكب خطأ جسيمًا. إذ خلص إلى أن البحر الأحمر أعلى من المتوسط بنحو عشرة أمتار، مما يجعل القناة مستحيلة من غير هويس.

كان جومار يشك أصلًا في تلك الأرقام، من غير أن يستطيع البرهنة على ذلك. وسيُنشر تقرير لوبير في *وصف مصر* نفسه.

وسيكلف هذا الخطأ قرابة نصف قرن، إلى أن يعيد بوردالو في عام 1847 القياسات ويبيّن أن البحرين على مستوى واحد تقريبًا، ويشق فرديناند دي ليسبس القناة في عشر سنوات.

كان جومار في تلك الليلة يتأمل خريطته للنيل. كل منعطف مرصود بالبوصلة والثيودوليت. كل قرية. كل معبد. كان وادي النيل يمتد على عشر أوراق من الشمال إلى الجنوب، بدقة تتيح لمهندس أن يتوقع أين سيذهب الماء لو أُقيم سد.

وبعد قرن، سيرجع المهندسون البريطانيون الذين سيبنون أول سد في أسوان إلى مسوحات جومار.

دوّن في يومياته تلك الليلة جملة واحدة. «كل هذا العمل كي يتمكن مهندسو القرن القادم من إدارة مياه شعب لم نعرف كيف نحكمه.»

من بين المئتي ورقة، كانت مئة وعشر أوراق لا تزال في حاجة إلى تبييض قبل أن تتمكن اللجنة من البدء في طباعة المجلد الأول من *وصف مصر*.

جاء أكتوبر بأولى العقبات الحقيقية في العمل.

وأعمقها كان يتعلق بالهيروغليفية.

كان جوليوا يدرك ذلك كل مساء وهو يعيد قراءة ملاحظات يومه. فقد رسم مع ديفيليه مئات الأعمدة المنقوشة في الكرنك والأقصر ووادي الملوك. ونسخاها بدقة حفّار، علامة علامة، من غير أن يفهما منها واحدة. وسينشر *وصف مصر* تلك الأعمدة التي سينظر إليها آلاف القراء من غير أن يعرف أحد ما كانت تقوله.

لم يكن في الإمكان فعل شيء. ليس بعد.

وقد قالها مارسيل بلا مواربة في اجتماع عُقد في أكتوبر.

— لا نعرف كيف نقرؤها. هذا كل ما في الأمر. فننسخها — بدقة — وفي ما عدا ذلك، أسلوب وصفي صرف. ما نراه. أما ما تعنيه... فسيجده غيرنا.

كان *وصف مصر* في البدء فكرة لفورييه، أو يكاد. فقد شجع كليبر المشروع، وأمر بونابرت بالنشر، وكان كونتيه يدير التنفيذ، والرسامون يوفرون الصور. لكن فورييه هو من أدرك أولًا ما ينبغي أن يكونه هذا الكتاب، موسوعة حضارة بأسرها، كما وُجدت.

وسيكتب المقدمة التاريخية من محافظة غرونوبل على مدى سنوات. خلاصة كثيفة لكل ما عُرف عن مصر منذ اليونانيين.

كان حجم الصور مذهلًا. كان لدى جوليوا وديفيليه دفاترهما، ولدى ديترتر ودونون وسيسيل دفاترهم. وكان لدى جومار مئتا ورقة من المسوح، ولدى جوفروا مئات اللوحات في علم الحيوان والنبات، ولدى المهندسين مخططات معمارية لكل أثر جرت زيارته. وبلغ المجموع أربعًا وتسعين وثمانمئة لوحة، نحو ستين منها ملوّنة. وحشد المشروع نحو أربعمئة حفّار على مدى عشرين عامًا، وعشرات الرسامين، كان كثير منهم قد شارك في الحملة.

لوحات بلغت من الضخامة أن أي مطبعة باريسية لم تكن تستطيع طباعتها. وكان كونتيه — كونتيه نفسه الذي صنع الأقلام في مصر — قد ابتكر قبل وفاته عام 1805 آلة لحفر الخلفيات والسماء، نفّذها خلفاؤه. وشُيّدت مطابع جديدة. وكانت بعض اللوحات تغطي ما يقارب مترًا مربعًا. واقتضى الأمر أوراقًا صُنعت خصيصًا. وبعضها استغرق العمل عليه وحده عامين.

صدر المجلد الأول عام 1809. وصدر الأخير عام 1829. ثلاثة وعشرون مجلدًا، طُبعت على ورق صقيل فاخر. أما الطبعة التجارية لدار بانكوك فكانت ستصدر ابتداءً من عام 1820 في سبعة وثلاثين مجلدًا.

سيرى فورييه المجلدات الأولى تصدر، ثم العمل وقد اكتمل. وسيموت عام 1830.

وصف مصر أنشأ علم المصريات بوصفه فرعًا معرفيًا. وثّق آثارًا دُمّرت منذ ذلك الحين، وألوانًا امّحت، ومواقع نُهبت. ومكّن عالمًا فرنسيًا من وضع منهجه في فك الرموز. أما ما احتفظت به فرنسا حقًا من مصر فكان مئة وسبعة وستين عقلًا

وأربعًا وتسعين وثمانمئة لوحة أنتجوها. وما سرقته، وكانت الكلمة دقيقة مهما كان التبرير، كان في لندن. التماثيل كانت في لندن. والمعرفة كانت في باريس.

لم يكن العزاء هيّنًا.

أما الصعوبات الأخرى — الاتساق بين لوحات فنانين مختلفين، وتوحيد أسماء الآثار — فقد حُلّت بإجراءات عمل وضعتها اللجنة على منهج فورييه المعتاد، الواضح العملي القابل للتطبيق فورًا. جرى التحقق من كل لوحة على ضوء المسوح الأبعادية. واعتُمدت الأسماء العربية الحديثة أسماءً رسمية، مع الأسماء اليونانية القديمة بين قوسين.

اقترح جومار قاعدة الأسماء. واعتمدتها اللجنة.

في نوفمبر، شرع جوليوا وديفيليه في تحرير الشروح. وكان لا بد أن يرافق كل لوحة نص يبيّن الموقع والأبعاد وحالة الحفظ والنسبة الأسرية المرجّحة.

حرّر جوليوا الشروح المتعلقة بأهم معابد طيبة التي رسمها مع ديفيليه. وكان نثره، الذي يدين بشيء للرومانسية الناشئة، يمزج بين القياسات ومقاطع يمرّ فيها بعدُ ما أحسّه أمام تلك الآثار.

بدأ شرحه عن الكرنك بالأبعاد. سور آمون نحو خمسة وعشرين هكتارًا، وأربع وثلاثون ومئة عمود في القاعة ذات الأعمدة، واثنا عشر عمودًا مركزيًا ارتفاع كل منها واحد وعشرون مترًا. ثم جملة. «إن الأثر الذي تحدثه غابة الأعمدة هذه هو أثر فضاء تلتبس فيه العظمة الإنسانية بالعظمة الإلهية.»

شطب فورييه الجملة. وأعادها جوليوا.

كان فورييه يعيد قراءة الشروح في غرونوبل، وقد حملها إليه البريد، ويشطب مقاطعها الغنائية. وكان جوليوا يعيدها. فيشطبها فورييه من جديد.

— نحن نمارس العلم، كتب فورييه على الهامش، وعيناه على الصفحة التالية. لا الأدب.

— علم ماذا؟ كان جوليوا يجيب بالبريد نفسه. هذه الآثار شُيّدت لتُحدث أثرًا. في من ينظر إليها. ومن دون الأثر، فإننا نفهرس حجارة.

لم يتراجع أي منهما، وبقيت النبرتان في *وصف مصر* جنبًا إلى جنب، وأحيانًا في الصفحة نفسها.

كان فورييه يقيم في محافظة إيزير، في غرونوبل، على بعد أيام عدة بالعربة من اللجنة.

كان يفكر في بونابرت، تاركًا جانبًا الغرور والطموح اللذين كفّ منذ زمن بعيد عن معارضتهما. هذا الرجل أطلق حملة غيّرت نظرة أوروبا إلى مصر، وغيّرت نظرة فوريه نفسه إلى التاريخ، ولا يعرف عنها على الأرجح إلا القليل. فبالنسبة إلى بونابرت، كانت مصر خطأً عسكريًا أصلحه انقلاب ناجح. أما بالنسبة إلى فوريه، فستبقى طوال حياته الفترة الأكثر كثافة التي عرفها.

الذين يصنعون التاريخ، فكّر، والذين يفهمونه... بحث عن نسبة، فلم يجد.

توقف على الرصيف، على ضفة نهر إيزير. كان شاب يبيع الصحف في البرد. اشترى واحدة من غير أن يقرأها، وواصل سيره.

في شارع لا كروا فوبان، كان جومار لا يزال يعمل. وقد غطى ورق الكلك الطاولة الكبيرة كلها في النهاية، وتكدست الدفاتر على الأرض. وفي تلك الليلة كان يعدّ أوراقه للخريطة التي سيرسمها جاكوتان، رئيس المهندسين الجغرافيين، لأطلس *وصف مصر*. كان وادي النيل يمتد على ثماني درجات من خطوط العرض، لكن عرضه لا يتجاوز قط عشرين كيلومترًا. وإسقاط بون، المعتمد لهذه الخريطة، يحفظ المساحات ولا يشوّه المسافات إلا قليلًا قرب خط الزوال المركزي. وكان يلائم ذلك الشريط الخصيب الرفيع.

رسم خط الزوال الأول. ثم خطوط العرض. ثم مصب النيل في الشمال، عند رشيد. ثم مجرى النهر نحو الجنوب بتعرجاته التي كان يعرفها عن ظهر قلب لأنه قاسها على مدى ثلاث سنوات.

كانت الخريطة تتشكل. وفي البرد كان الحبر يجف بصعوبة.

كان منتصف الليل حين وضع جومار قلمه. أطفأ المصباح بالنفخ بدل أن يتركه ينطفئ، عادة من مصر حيث كان الزيت غاليًا، وبقي برهة في الظلام. أربعة وعشرون عامًا. لقد رأى الأهرامات، ومعابد طيبة، والصحراء، ومعركة، واستسلامًا، وقاس أشياء لم يقسها أحد قبله.

والآن كان يرسم خريطة في غرفة باردة.

لم يشعر بأي ندم. فكّر في عبد الله، *وكيل* القناة، الذي لم ينتهِ عنده التعلم أبدًا لأن القناة أيضًا لا تنتهي من التغير. كان الحصاد قد تم. وبقي أن يُدرَس الحَبّ، ليلًا، ببطء.

كان جوفروا سانت هيلير، في مكتبه بمتحف التاريخ الطبيعي، يكتب إلى كوفييه. كانا صديقين، ولن يصبحا غريمين إلا في ما بعد. وكانت الرسالة تقول ببساطة ما يعدّه حقًا.

وصف له طيور أبو منجل المحنّطة في سقارة، وتماسيح النيل، وقطط بوباستيس. وأسرّ إليه بما لاحظه خلال الشهور المصرية. فهذه الحيوانات التي يبلغ عمرها

ثلاثة آلاف عام لا تختلف في شيء عن أحفادها الأحياء. وفي هذه النقطة كان هو وكوفييه لا يزالان متفقين.

سيغيّر جوفروا رأيه، وسيحاربه كوفييه. وستنفجر خصومتهما علنًا عام 1830 أمام أكاديمية العلوم. وستكون من أهم الخصومات في التاريخ الطبيعي الأوروبي. لكنها لم تكن قد بلغت ذلك بعد، في ديسمبر 1802، في مكتبه بالمتحف، مع رسالة إلى رجل يحبه وسيكون خصمه.

ختم الرسالة وبعث بها بالبريد صباح اليوم التالي.

كانت مصر تواصل فعلها، عن بعد، في من عبروها.

في ديسمبر، أبلغت وزارة الداخلية كونتيه بأن النفقات تجاوزت التقديرات. فالحفّارون يمتصون أربعين في المئة من الميزانية. والورق الجيد عشرين. تقليص النفقات دون التضحية بالجودة مستحيل. قال كونتيه ذلك للوزير. قال الوزير إنه سينظر في الأمر.

نظر. وأُبقيت الاعتمادات. واستمر *وصف مصر*.

أخرج جومار في مساء آخر ملاحظاته عن الفيوم. مسوح ري لم ينقلها بعد من أجل *وصف مصر*. قنوات، وتصريفات، ودورات السواقي. قضى أسبوعين هناك يقيس أشياء كان الفلاحون يعرفونها دون أن يدوّنوها قط. نظام هيدروليكي قديم قدم الفراعنة، محفوظ بكامله في رؤوس الرجال الذين يمارسونه منذ الطفولة. دوّنه، وحوّله إلى دقائق وتصريفات، وصاغه بحيث يستطيع مهندسو القرن التالي قراءته. ولم يكن يرى سبيلًا آخر لإنقاذه.

ظل طويلًا والدفتر مفتوح على ركبتيه. وفي الفيوم، كانت الثيران نفسها على الأرجح تدور في دوائرها.

في نهاية ديسمبر، كانت مذكرات أجزاء الكتاب الأربعة، الآثار القديمة والحالة الحديثة والتاريخ الطبيعي والجغرافيا، قيد الإعداد في وقت واحد. كان الاتجاه مرسومًا، والفرق في أماكنها.

في مساء 31 ديسمبر 1802، وضع جوليوا قلمه ونظر إلى الأنابيب النحاسية المصفوفة إلى جدار مكتبه. ثلاثة وعشرون أنبوبًا نحاسيًا، مرقّمة بالطلاء الأسود. في الأنبوب رقم واحد، دفاتره الأقدم، الإسكندرية، والمسير في الصحراء، وأولى مناظر الأهرامات. وكان الأنبوب رقم اثنين يحفظ تتمة الرحلة، ورقم ثلاثة مسوح طيبة ووادي الملوك. وفي الأخير، آخر الرسوم، التي أُنجزت في الإسكندرية في سبتمبر. نهض، وأخذ الأنبوب رقم واحد، وفكّ السدادة. أخرج الدفتر الأول. انفتح الدفتر على رسم سريع. سطح سفينة، بأشرعتها والأسطول في الخلفية، رُسم أثناء

عبور مايو 1798. قبل أربع سنوات. أغلق الدفتر، وأعاد إحكام السدادة. أعاد الأنبوب إلى الجدار.

في الخارج، كانت باريس تودع سنتها في الضجيج المألوف لمدينة كبيرة. الأجراس، والأصوات، وعجلات العربات على الحجارة المتجمدة. بعد ساعات قليلة، سيتحول عام 1802 إلى عام 1803. *وصف مصر* سيبلغ عامه الأول. وسيلزمه ستة وعشرون عامًا أخرى.

ترك المصباح ينطفئ وخرج إلى الشارع. مشى برهة دون وجهة محددة، في برد الليل الباريسي الجاف. عند ناصية شارع غرونيل، توقف ورفع عينيه. كانت السماء صافية. كان الجبار هناك، فوق الأسطح، تمامًا حيث رآه فوق الأهرامات في شتاء 1798.

بقي رافعًا رأسه إلى السماء حتى خدّر البرد أصابعه.

عاد إلى بيته، وجلس إلى طاولته، وفتح دفترًا فارغًا. وفي رأس الصفحة الأولى كتب التاريخ. ثم، تحته. «معبد الكرنك، القاعة ذات الأعمدة. الأعمدة المركزية، 21 مترًا. القطر، 3 أمتار و50 سنتيمترًا. تيجان بردية الشكل.»

عاد إلى الشرح.

أما بونابرت فلم ينتظر. قنصل أول منذ برومير من السنة الثامنة، وقنصل مدى الحياة عام 1802، وإمبراطور الفرنسيين عام 1804. الرجل الذي قال لعلماء القاهرة إن عملهم سيبقى من بعده كان يبني شيئًا أكثر طموحًا وأكثر هشاشة، نظام حكم. وسيصدر *وصف مصر* في ظل الإمبراطورية. وما كانت الحملة عليه في الواقع — هشّة وناقصة ومكلفة — كان يتحول في الرواية الرسمية إلى أساس من أسس المجد الوطني.

أما بالنسبة إلى دونون، في اللوفر، فلم يكن العمل قد بدأ إلا للتو. كانت الحملات ستُستأنف. النمسا عام 1805، وبروسيا عام 1806. ومع الحملات، المجموعات.

نهاية الجزء الثاني